مواقف الإمام الإبراهيمي

7

الرِّجالُ أعمَالٌ



عالم الأفكار

إهـــــداء ٢٠٠٨
وزارة الثقافة
الجمهورية الجزائرية

مواقف الإمام الإبراهيمي

(7)

الرّجال أعمال

إعداد وتقديم الدّكتور محمّد درّاجي



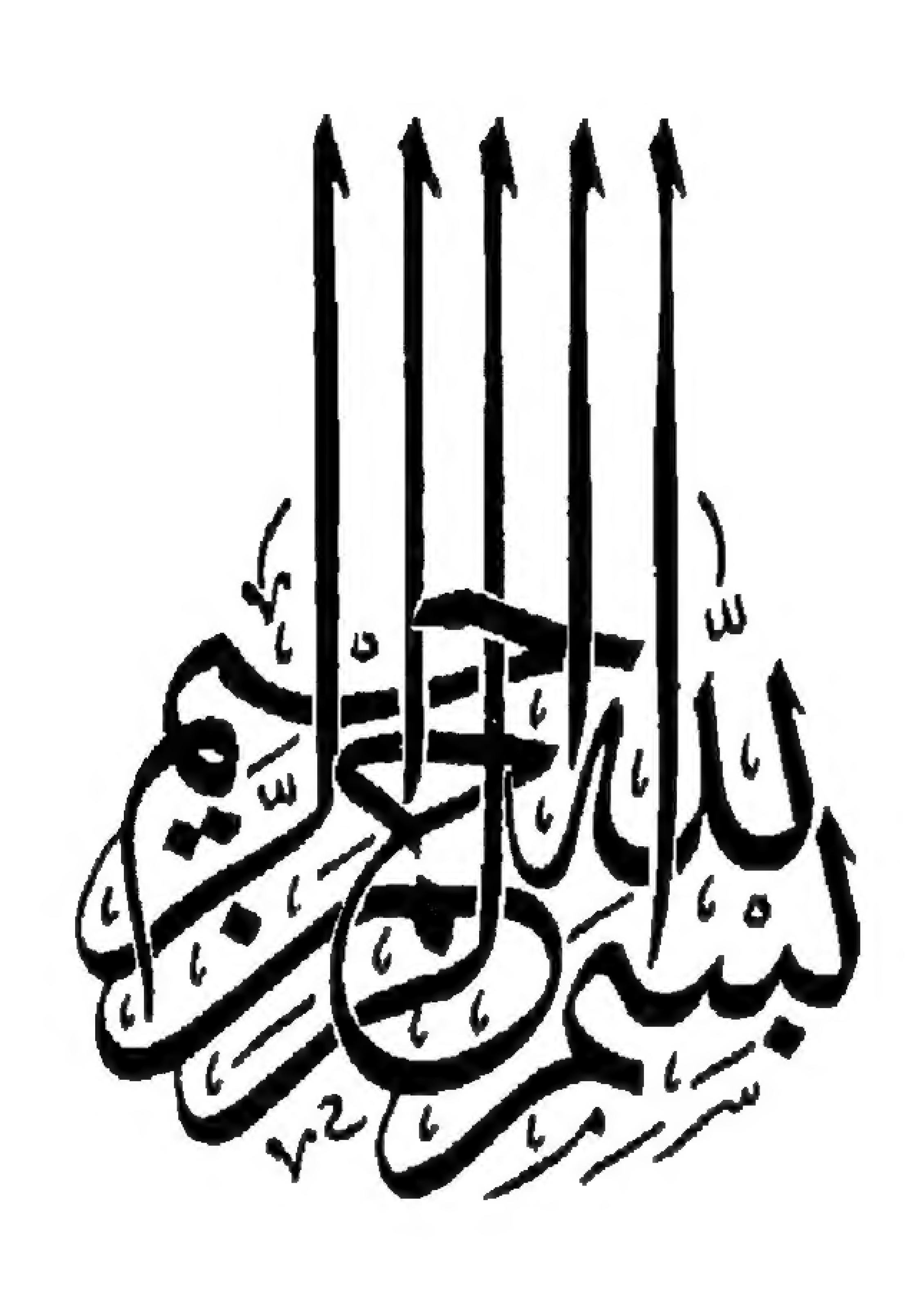
عالم الأفكار

مؤسسة عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع
حي باحة رقم 59 الليدو - المحمدية - الجزائر

تصفيف ومعالجة النص: ياسين أصنام

الطبعة الأولى
2007

إيداع قانوني: 2006 / 3594
ردمك: 3 28 712 9961 978


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عالم مجاهد

لم يكن العلاّمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عالما بالمعنى المألوف عند كثير من النّاس، غايتُه حفظ المتون، وتحقيق ثمرات الفنون، والتفوّق على الأقران، أثناء الطلب والتحصيل، ثم تصدُّر المجالس، والحرص على الهندام، وشغل عقول العوّام بالغرائب، وسفاسف الأمور، وقشور العلم،

وإنما كان عالمًا مجاهدًا، جاهد من أجل تحصيل العلم والرّسوخ فيه، وجاهد من أجل تبليغه وتربية الأمة به، وجاهد من أجلِ المحافظة على شرف العلم من أولئك الذين أرادوا أن يمتهنوه، وجاهد من أجل أن يقوم بالواجبات والتبعات التي يفرضها العلم ويوجبُها يُحتمها شرفه، فحمل هموم أمّته في قلبه حيثما حلَّ وارتحل، وفي كل ما كتب أو إرتجل، ودعاهُ هذا كله إلى التعاون مع رجال الأمّة الإسلامية -مشرقًا ومغربًا- على تعدد اختصاصاتهم، وتنوُّع ملكاتهم ومواقعهم، فيهم السياسي، والعالم الديني، والأديب، ورجال المال والأعمال، والدُّعاة، فنسج شبكة من العلاقات تمتدُّ من شبه القارة الهندية إلى المغرب الأقصى، مُروراً بالحجاز والشام والعراق ومصر، لم يوظفها لتحقيق مآربه الشخصية، أو أغراض دنيوية، وإنما وظّفها لخدمة الأمّة، والدّفاع عن قضاياها، وها هو الشيخ من موقع القيادة العلمية الّذي تبوّأه يؤدي شهادته في أولئك الرّجال ويخلد هاتيك المواقف، واكرم بها من شهادة، وانعم بها من مواقف.

إشادة بالرجال وجلائل الأعمال:

كان الإمام الإبراهيمي متيقنا كل اليقين بأنّ الثراء الحقيقي في الأمّة، هو ما تمتلكه من رجال، الّذين يحملون بين جوانبهم، همومها ويحترقون شوقًا لإيجاد الحلول لمشكلاتها، يتألمون لواقعها البئيس، ويعملون جدّين لغدها المشرق، كلٌّ في موقعه، وبحسب طاقته.

فالرّجولة في المفهوم الإبراهيمي، ليست صباحة وجه، ولا ضخامة جسم، ولا كثرة مالٍ، وإنما هي أعمال متواصلة، وحركة دائبة لنفع الأمّة، ورفع الحنين عنها.

وهؤلاء الرّجال جديرين بأن يُحتفى بهم، وأن يُشادَ بأعمالهم، وأن تعرَف بهم الأجيالُ، حتّى تأتسي نهجهم، وتسلُك سبيلهم في خدمة أُمّتهم، وإنجاز أعمال جليلة كالتي أنجزوها أو أزيد.

ومن مثل الإبراهيمي، قوّة بيانه، وصدق تعبيره، لتخليد هؤلاء العظماء من الرّجال، والإشادة بأعمالهم، يقول الإمام الإبراهيمي: «إن البصائر لا تمدح أحدا إلا حيث يكون المدح دعاية إلى حسن التأسي والاقتداء ولا تُثني إلا على عمل يتصل بمبدئها الديني التعليمي أو يؤيده، ولا تطري إلا المناقب المذكرة بأمجاد الأوائل، المحيية لمكارمهم وآثارهم في سبيل العلم والخير العام...» [1]،

ومن هذا المنطلق وضع الشيخ الإبراهيمي منهجا واضحًا ودقيقًا في تقويم الرّجال، وهو الإشادة بأعمالهم والتنويه بها، لا إضفاء الألقاب الفارغة عليهم لأنها لا معنى لها، لذلك كتب يقولْ: «انتقد بعض الأدباء تجريدنا للشاعر محمد العيد من الألقاب التي هو أحق بها وأهلها، واقتصارنا في وصفه على لقب: "شاعر الحكم والمثل" فيما صدرنا به قصيدته الحكيمة في احتفال بسكرة.

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص168.

ونحن نقول لهذا المنتقد المخلص، إننا جرّدنا شاعرنا نم تلك الألقاب مخلصين، عَن عمد، لأمرين خطيرين، أما الأول فهو أن هذه الألقاب الأدبية أصبحت كالألقاب الحكومية، يتمجّد بها من لا يستحق التمجيد، ليكمل بها نقصه، ويوازن بإقاعها رقصه، حتى أصبح الناس مترددين في وجه الإستحقاق وعلّنه، أهو كماله لينقص بها؟ أم نقصه ليكمل بها؟

وقد أصبحت هذه الألقاب موردا آجنا لكثرة طرّافه، وأسرف الفارغون في خلعها على الفارغين، ونظرنا، فإذا هي لم تنفق كاسدا، ولم ينْبه بها خامل، وإنما مكّنت للزور ومهّدت، وسوّت بين السابق وبين المتخلف، فتعسر التمييز، وإعتبر أثرها في قائدين: (قائد) الجيوش في الميدان و(قائد) الجحوش في الدوار، ذاك يبلغ المجد صاعدا، وهذا يريده قاعدا، فهل يستويان مثلا؟ ولكن اللقب سوّى بينهما على رغمي ورغمك...»[1]،

إذا الإشادة بالرجال وجلائل أعمالهم، ومواقفهم الحميدة، هو الهدف من وراء كل ما كتب الإبراهيمي عن الشخصيات،

وعدم الغلوّ في المدح أو الذّم عند الكتابة هو المنهج المتّبع في كل المقالات،

وقد اجتهد الإمام البشير الإبراهيمي أن يرسّخ هذا المنهج في كل أتباعه ومحبّيه، من خلال المدرسة المفتوحة، وهي "البصائر"، لسان حال جمعية العُلماء، فكتب قائلاً: «البصائر ميزان حق، ولسان صدق، فهي تزن الرجال بأعمالهم الجليلة، ومواقفهم الشريفة، وتقوّمهم بالقيم الإيجابية، لا بالقيم السلبية، وهي تمدح المستحقين للمدح فلا تشين المدح بالغلوّ، وتذمّ المستأهلين للذم فلا تزين الذمّ بالكذب والاختلاق.

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص581.

و"البصائر" لا تأبه للصيت الطائر في المجامع، والإسم الدائر على الألسنة، والشهرة السائرة في الآفاق، مالم يكن من ورائها أعمال تشهد، وآثار صالحة تعهد، وثمرات طيبة تجنى،،، وإذا كانت الشهرة قد تكذب، فإن الأعمال لا تكذب... ونحن حينما نذكر العمل لا نريد به المعنى القاصر في عرف الفقهاء، وإنما نريد منه هذه الأعمال العامّة النافعة التي فيها ما في النور والدماء من غذاء وقوّة وحياة، وفيها ما في الدهر من استمرار وامتداد...»[1]،

مع جمعية العلماء ورجالها

إن رجال جمعية العلماء بالنّسبة للإبراهيمي هم إمّا إخوان الصدق، وخلاّن الوفاء، وإمّا تلاميذ بررة، جمعهم جميعا ميدان الجهاد من أجل دين الأمّة ولُغتها، ولاقوا في سبيل ذلك الأمرّين، بل ما تنوء عن حمله الجبال الرّاسيات، فما وهنوا لما أصابهم، بل ظلّوا مُرابطين في الثغور، مصابرين على اللأواء، ناظرين إحدى الحسنيين، وعليه فلا غرو أن ينوّه الإبراهيمي في كتاباته بجهود هؤلاء الرّجال، وأن يشيد بأعمالهم، خصوصاً أولئك الّذين فارقوهم وهم أحوج ما يكونون إليهم وإلى آرائهم النيّر، ومواقفهم الشجاعة، فها هي ذكرى وفاة مبارك الميلي تعود، فيكتب مذكّراً بحقوق هذا الأخ الكريم على جمعيته التي نذر نفسه لخدمتها، فيقول: «... وإن لأخينا مبارك الميلي على جمعية العلماء حقوقا، فقد كان مرجعها يوم تحلو لك المشكلات، وتضلّ الآراء، فيشرق عليها بالرأي كأنه فلق الصبح، وقد كان معقلها يوم تشتبه المسالك، وتكاد الأقدام تزلّ، فيثبت على الحق كالجبل الراسي، وكان منها بحيث لا يجترى عنها مجترى، ولا يفتري عليها مفتري، إلا رمته منه بالسيف الذي لا تنبو مضاربه.

---

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي ج3، ص 548.

ويميناً لولا ملازمة المرض الذي أودى به، وتأثيره نني قوّته البدنية، وفي قوّته العقلية لكان فلتةً في البطولة العلمية بهذا الوطن، كما كان آية في الذكاء ودقّة الفهم والجلد على البحث والإطلاع، وإنّ واجب جمعية العلماء في هذا النوع الطريف من إحياء ذكره ينحصر في ترويج الباقي من مؤلفاته المطبوعة، وإعادة طبعها طبعا فنيًّا مصحّحًا، وإتمام تاريخه للجزائر...»[1]،

ونلاحظ الجانب العملي في ما كتبه الإبراهيمي عن عالم جليل من علماء الجمعية اختطفته المنيّة وهو في قمة العطاء، فيشيد ببطولته العلمية، داعيا بذلك الشباب ليستثمروا أوقاتهم، في التحصيل العلمي، وبذل قصارى الجهد لبلوغ أعلى مرتبة ممكنة فيه، كما يدعو أعضاء الجمعية للاهتمام بتراث الرّجل، وإعادة طبعه لتنتفع به الأمّة، لما فيه من ذخائر، ولما حواه من فوائد، ويدعو كذلك إلى إكمال المشاريع العلمية التي كان بدأها، حتى لا تموت بموت صاحبها، وخاتم الاقتراحات العلمية، الدعوة إلى تأسيس معهد علمي يحمل اسمه لأنّه أدل على الوفاء والاعتراف بالجميل من ألف شاهد.

ولما تعرّض الأستاذ الفضيل الورتلاني إلى حملة من الدعاية المغرضة، وضاقت به الحكومات، وتبرم منه الملوك والرؤساء، وتجهم له كثيرٌ من الأصدقاء، انبرى الإمام الإبراهيمي لتجلية حقيقة الرجل، والدفاع عن ولده الروحي، وإبراز مظاهر العظمة فيه، وشواهد الرجولة الكاملة عنده، فكتب يقول: «أما ماجرّته تلك التهمة على الأستاذ الفضيل من تنكّر المملوك له، وضيق الحكومات به، فهو إمتحان البطولة، وطالما أدّاه الأبطال قاسيا ثُقيلا، وما زالت العليا تعني غريمها، كما يقول إبن خميس، وهو دليل البطولة، والبطولة منها عليها شواهد.

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 575.

وأما ما لقيه بسببها من تجهّم بعض الأصدقاء، فهو دليل على أن صداقتهم كان على دخن، أو من شماتة بعض الخصوم، فهو دليل على أنه كان غيظ الحاسد، ومسيح الدجاجلة، وكل ذلك مما يغلي قيمة الفضيل، ويبين عن صفاء جوهره، وأن تلك الغمّة العارضة ما زادت على أن كانت تلقيحا في رجولته، وتنقيحا في أصدقائه، وافتضاحا لخصومه.»[1] .

والإبراهيمي هُنا إنما يقوم بما يمليه عليه الإيمان، وتوجبُه الأخلاق من جهة، فيدافع عن عرض أخيه، فيبدد الاتهامات، ويدحض الشبهات، ويهتك المضللات، ومن جهة أخرى، فهو يشد على يد ابنه الروحي وأخيه في الجهاد، ويخبره بأن ما يُعلنه هو ضريبة البطولة، وثمن الرّجولة، وعليه فلا يسعه إلاّ أن يثبت أمام هذه الأزمات، ويصارع هاتيك الزعازع.

ويبقى الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس هو الّذي أخذ حصة الأسد من كتابات الإبراهيمي حول جمعية العلماء ورجالها الكرام، فهو «باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشيء مجلة «الشهاب» مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربّي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح، ومحيي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسّر كلام اللّه على الطريقة السلفية في مجالس إنتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقّن مباديها، علم البيان، وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين»[2]،

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج 3، ص 593.

(2) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 582.

وكان الإبراهيمي في كل مناسبة يذكّر بهول الفاجعة، وعظم المصيبة، وجلائل الرزء، في فقدان ابن باديس -رحمه الله- فهو صاحب اللسان القوّال، والفكر الجوّال، الذي يتقدم إخوانه إلى ساحات الوغى دونما خوف أو وجل، وهو صاحب الأعمال الجليلة التي تنوء بحملها العُصبة من الرّجال، وحسبه أنّه أحيا اللسان العربي، وجدّد معالم الدين الإسلامي، وبذر بذور الوطنية الصادقة،

ولم يكن هذا التذكير بكاء على الأطلال، وإنّما هو دعوة صادقة للأتباع والمحبين أن يخلفوا الرّجل في الأمانة التي استودعها إيّاهم، وأن يبذلوا قصارى جهودهم لإتمام المسيرة التي بدأها، ويضحوا بأرواحهم لصيانة الوديعة، لأن شيخهم ابن باديس لم يعش لنفسه ولا لأسرته وإنّما عاش لأمّته، عاش لخدمتها بإحياء دينها ولُغتها، وعليه فجمعية العلماء -ممثلة الأمة- هي الوارثة المعنوية له، والمأتمنة على تُراثه، يقول الإبراهيمي: «هذه بعض أعمال الرجل العظيم الذي مات فورثت أسرته جثمانه فأقامت له مشهدا، وورثنا نحن أعماله فأقمنا له معهدا، وعسى اللّه أن يوفّق أسرته إلى وقف مكتبته على معهده ليعمّ النفع بها كما عمّ النفع بعلمه، وليحيا ذكره بهما معا، وليس بالكثير في حقّ من وقف حياته الغالية على الأمّة، أن نوقف مكتبته الرخيصة على الأمّة»[1]،

مع الحسنين المجاهدين بأموالهم

وركن آخر من أركان الإصلاح، ودعامة من أهم دعائمه، ألا هو المال، إذ لا يمكن لأي مشروع إصلاحي حركي تغييري أن يحقق أهدافه أو يؤتي أكله ما لم يتوفر له المال الكافي، ولحكمة سامية فإنّ القرآن في معظم آياته -إلا قليلا- قدّم ذكر الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، وعليه فإذا

(1) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 554.

نوّه الإبراهيمي بالركن الأوّل وهم رجال الجمعية وعلمائها، فمن اللاّزم أن ينوّه بالركن الثاني وهم رجال المال، الذين وظّفوه بسخاء لخدمة مدارس الجمعية ومساجدها الحُرّة، ومشاريعها الخيرية، يقول الإمام الإبراهيمي مبينا مكانة المال في العملية الإصلاحية: «وأما المال فإن الإصلاحات تتطلب أموالا طائلة، ونفقات سخية، ومهما تبذل الحكومة من الخزينة العامة فإن ذلك لايكفي ولا يغني، على ما فيه من آفات، فإن الحكومات لا تعطي بدون أخذ ، بدون أن تتخذ من العطاء وليجة للتدخل ومقادة للمسيرين، ودرٌ درُّ الأوقاف الإسلامية لوم لم يفسدها سوء الإدارة وتسلّط الإستعمار،إن الكليات حتى في أغنى أمم العالم لاتقوم على مال الحكومة المحدودة وحده، وإنما تقوم على عطاء الكرماء وبذل المحسنين، فهل آن لأمّتنا أن تعلم هذا فنعمل به؟ »[1]،

والرجال المحسنون بالمال، المكثرون للمبرّات، جديرون بأن تخلّد أعمالهم، ويعدّون في الرجال الوطنيين، لأن الوطنية أعمال وليست كلمات تمضغ في المجالس والمنتديات وحسب، فذكر الإبراهيمي عميد المحسنين، ونوّه بصنيعه، وهو السيد «محمد خطاب الفرقاني»، فقال: «ألا إن الثناء على محمد خطاب ثناء على جميع المحسنين إلى المعهد، لأنه رمزهم الأعلى، فلكل محسن حظه من هذا الثناء وإن لم يذكرت اسمه، لأن الإحسان كالحرفة، ومن مدح حرفتك فقد مدحك، وإن لم يعرفك، فلا يظنن إخواننا في الحق وأعواننا على الخير، أننا نسيناهم أو يخسانهم حقّهم»[2]،

(1) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 551.

(2) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 515.

والإبراهيمي بقدر ما كان يمدح المُحسنين، فإنه كان يعرّض بالدخلاء الذين جمعوا ـال وعدّدوه ولكنّهم لم ينفقوا منه شيئًا على مشاريع الخير وما أكثرها، ـ ـ أحوج الأمة إليها، فقال: «نعده أيضا -أي محمد خطاب- حجة قائمة سى أمثاله من أبناء الوطن الذين تأثلوا الثروات فيه أو في خارجه، فلم ينفعو رطنهم بشيء يرفع الذكر ويجلب الذخر ويعظم الأجر، ولو أنهم كانوا مثل هدا الرجل أو قريبا منه لم يبق في الوطن ولد بلا تعلم، ولا فقير بلا قوت، ولا مريض بلا دواء، فإذا قلنا لهذا الرّجل: كثر الله من أمثالك، فلسنا ندعو له وإنما ندعو للوطن»[1]،

فالمحسنون هم الكتيبة المقدّمة في جيش الإصلاح، إذ لولاها لما استطاع المصلحون أن ينجزوا مشروعا أو يجسّدوا فكرةً، فالمال قوام الإصلاح، بل عماد الحياة.

مع الإصلاح والمصلحين

ومقالات الإبراهيمي التي بين أيدينا أفردت للإصلاح والمُصلحين حيّزاً كبيراً، ومساحة واسعة، واهتماما متزايداً، ذلك أن الإبراهيمي كان يرى بأنّ كل أوضاع الأمة تحتاج إلى إصلاح، فالعقائد والعبادات، قد شابتهما الضلالات والبدع، والتربية والتعليم قد غطّى عليه التقليد، فكان صاحب صوت جهير في الدعوة إلى الإصلاح، وإلى الأخذ بأيدي المصلين هنا وهنا،

ولذا ثمّن جهود الإمام محمد الطاهر بن عاشور في الإصلاح التعليمي في جامع الزيتونة المعمور، وعدّ هذا من مناقب الرّجل الكبرى، وأجلّ أعماله على الإطلاق، فقال: «... وإنما نعد منها إصلاح التعليم في جامع الزيتونة وقد

(1) آثار الإبراهيمي، ج2، ص 167.

اجتمعت في الأستاذ وسائله، وتكاملت أدواته، من عقل راجح لا يخيس وزنه، وبصيرة نافذة إلى ما وراء المظاهر الغرارة، وفكر غوّاص على حقائق الأشياء، وذكاء تشف له الحجُب، واطلاع على تاريخنا العلمي في جميع أطواره، واستعداد قوي متمكّن للتجديد والإصلاح...»[1]،

وبالإضافة إلى التنويه بالإصلاح التعليمي الذي كان يعده الإمام الإبراهيمي الخطوة الأولى في مجال النهضة، لأنه المؤهّل لتخريج العلماء وقادة الرأي الذين يوقظون الأمة من سُباتها، ويدفعون بها نحو الريادة والسيادة، فإنه كان يفرحُ ويثلج صدره لمّا يرى الإصلاح يكتسح له بعض المواقع في المجتمع، وينتصر على الباطل في الصراع الدائر بينهُما،

فكتب عن الشيخ أبي القاسم بن حلوش، حين بلغه نعيُه: «... والشيخ أبو القاسم -رحمه الله- مصلح بطبعه وتربيته، خلقه في منبع من منابع البدع، وفتح عينيه عليها، فأنكرتها فطرته السليمة، وتربيته القويمة من أوّل أمره، ونشأ على نفور منها وازدراء لأهلها، ولقي منهم تجريحًا وأذًى، ولقوا منه تسفيهًا وإنكارًا، وكان كل ذلك مزيدًا في رفعة شأنه،

طلب العلم على فئة من الفقهاء المدارين المجارين للعامة في أهوائها، فأخذ ما صلح من علمهم، وهجر ما قبح من أعمالهم، ووحّد اللّه وعبده بما شرع على الوجه الذي شرع، وابتني لنفسه مسجدا من ماله بسوق «تاجديت» يصلّي فيه بأبتاعه في السيرة، ويلقي عليهم دروسا في الوعظ والإرشاد، وفيه بدأ ينشر الإصلاح العملي فنبذ البدع اللاصقة بالعبادات ولم يزل متطلعا إلى العلم الصحيح يطلع بدره، متشوقا إلى

(1) آثار الإبراهيمي ج3، ص 529.

الحق الصريح بتبلج فجره، إلى أن ظهرت بواكير الحركة الإصلاحية العلمية في دروس الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد إبن باديس، فجهّر ولده الشيخ مصطفى حلوش لتلك الدروس ليستدرك بأحد اولاده ما فاته»[1]،

ومُراد الإبراهيمي من وراء التنويه بهذا النموذج من المصلحين، هو الدّعوة إلى التغلغل في أوساط العامّة وتعليمها دينها تعليماً صحيحاً، بعيدا عن غلواء البدع والضلالات، والصّبر على ذلك، والسعي الحثيث للاستزادة من العلم لأنّه هو الذي يعصم السالك في الطريق من سرّ الانحراف، ويجعل دعوته إلى الله تكون على بصيرة، وأخيرا يمدّ اليد للتعاون مع العاملين للخير الساعين إلى الإصلاح عند وجودهم أو ظهورهم.

كما كان الإبراهيمي من فرط حُبّه للإصلاح وأهله، وإدراك أهميته وشأنه، يسعد كثيراً لما يتفطّنُ قادة الرأي فيث الأمة إلى جوانب من الإصلاح، كانت مهملة على أهميتها، فيحيونها، ولذلك ثمّن جهد الإمام جمال الدّين الأفغاني في الدعوة إلى الإصلاح السياسي، ورأى بأنه أحيا بذلك وظيفة العالم الديني وأعادها سيرتها الأولى، وأنعش جدها العاثر، وجدد رسمها الدائر، فقال: «وجمال الدين رأى أن أنكر المنكر في زمنه هو عبث الأمراء المستبدين أو الأمراء الضعفاء بمصالح المسلمين وأنهم أضاعوها في سبيل شهوتهم الشخصية؛ وأنه لولا سكون العلماء وقعودهم مع الخوالف لما تمادي أولئك الأمراء في عيّهم فوجه جهوده ووقف مواهبه على هذا الميدان السياسي، والسياسة في نظر الإسلام هي من لباب الدين لأنها حامية لشرائعه وشعائره وحدوده، وموقف الأفغاني، من شاه إيران وسلطان العثمانيين وخديويه مصر

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 282.

مشهورة، فالأفغاني باتساع معلوماته وباستعداده الفطري، وببعد نظره وبصراحته وشجاعته وبحسن فهمه لأمراض المسلمين، ومعرفته بأصناف علاجها، مصلح سياسي، اجتماعي مستكمل الأدوات لا يشق له غبار ولا يصطلى له بنار»[1]،

وهكذا فالإمام الإبراهيمي من خلال ما دبّج يراعه من مقالات حول بعض المصلحين، كانت له لفتات ووقفات مع عديد جوانب الإصلاح التي يتطلّبُ على الأمة أن تأخذ بها جُملةً إذا ما رامت الخروج من وهدة التخلف الذي طال زمنه، والعودة إلى مرحلة الشهود على الأمم التي ناطها بها دينها الحنيف،

مع العلماء والأدباء والشعراء

كما توقف الإمام الإبراهيمي مطوّلاً مع رجال الفكر والأدب والشعر، ذلك أن العلماء والأدباء والشعراء، هم قادة الرأي، وصانعو الفكر، وهم الموجّهون الحقيقيون لشباب الأمّة، والآخذون بأيديهم نحو المستقبل، فإذا كانوا أمناء على هوية الأمة وانتمائها الحضاري، كانت المسيرة مسددة، والخطوات ثابتةً،

والإمام الإبراهيمي من خلال إبرازه بعض النقاط المضيئة في جهود هؤلاء العلماء والأدباء والشعراء إنما أراد أن ينوّه بالأدب الرفيع، والفكر الحي، والإنتاج الخصب، من جهة، ومن جهة أخرى أراد أن يأخذ بأيدي قرائه ومحبيه، وعارفي فضله ومكانته العلمية، وذوقه الأدبي الرّفيع، ودقّة فكره، إلى الاهتمام بإنتاج هؤلاء والاحتذاء بهم، في خدمة الأمّة بالأدب، والذود عن قيمها بالفكر،

ولذا وجدناه يركّز –عند كل أديب أو مفكّر– على أحسن ما يُستفاد منه، فقد استوقفه دقة البحث العلمي، عند الدكتور مُحمّد بن شنب، فقال: «أما

(1) آثار الأفغاني، ج5، ص 195.

أسلوب البحث العلمي وبناؤه على المحاكمة والنقد فهو ظاهرة الرجل الخاصة به ونعته الصادق، ولا أكتمكم أني ما كنت شديد الإعجاب بالرجل إلا من هذه الخلة، ولا أكتمكم السبب الذي أودع هذا الإعجاب في نفسي بهذه الناحية من نواحي الرجل دون نواحيه الكثيرة وكلها أجواء صافية، السبب هو أنني نظرت في جميع مالدينا من تراث الأوائل مما نسمّيه علما وأمعنت في تتّبع أطوار العلوم الإسلامية من النقطة التي وصل إليها مداها في الإتساع إلى المنشأ الأصلي، فوجدت أن جميع علومنا الإسلامية في جميع أدوارها يعوزها الأخبار والنقد، يعوزها الإستقلال في الرأي، تعوزها الشجاعة إلى أن جاءت عصور الإنحطاط فكان ذلك الإعواز بذرة فاسدة للتقليد في جميع علومنا حتى أصبحت أشباحا بلا أرواحا، فلا عجب إذا أكبرت الرجل وأكبرت، كل ـن يوفّق إلى غرس هذه الملكة فيه في نفسه»[1]،

كما توقف الإمام الإبراهيمي مع البحوث اللّغوية الدقيقة للأستاذ عبد ـعزيز الميمني، وأبدى إعجابه الكبير بمنهجه الدقيق في تحقيق النّصوص، إطلاعه الواسع على اللغة العربية، فقال: «وأخي الميمني- ولا أحابيه- يرجع ـع سعة الأطلاع إلى ذهن مشرق، ورأي في تصحيح النصوص شديد، وحافظة هي رأس المال لمن يتعاطى هذه الصناعة، وحظ من لغة العرب مفرداتها وأساليبها يندر أن يتاح لمن نشأ مثل نشأته، فهذه هي الأصول التي بوأته بين علمائنا المنزلة التي اعترف بها كل منصف»[2]،

لكن وقفة الإبراهيمي مع أمير الشعراء أحمد شوقي كانت مطوّلة ولافتة للانتباه، إذ لم يُخف تعلقه بهذا الشاعر العظيم، ورعجابه الكبير به، فعدّه من

(1) آثار الإبراهيمي، ج1، ص 47.

(2) آثار الإبراهيمي، ج4، ص 381.

أعظم شعراء العربية، فراح يقارن بينه وبين المتنبي، ويميل إلى أنّ الأغراض التي طرقها تجعل شعره يتفوق على شعر المتنبي الذي وظّف عبقريته في التغني بأمجاده الشخصية، فقال: «ولقد دأب شوقي على تقليد المتنبي في أول أمره فجاراه، وما كبا وما قصّر ثم شآه في التشبيب الصادق والغزل الرقيق، ثم طاوله فطال عليه في وصف الآثار الباقية عن الحضارات الدائرة وفي التغني بالأمجاد الغابرة لبني جنسه أو بني وطنه أو بني دينه، على حين كانت عبقرية المتني لاتتجاوز به مدح شخص يجود، أو شجاعة في وصف حروب وانتصارات قد يكون الغناء فيها لغير الممدوح، ولا تبرز العبقرية إلا في الحكم التي سجّلها والأمثال التي سيّرها...»[1]،

وفي هذا دعوة للشباب الناهض أن يحتفي بشوقي وشعره، فيتعلم منه الاعتزاز بدينه، وبأمجاد أسلافه، وكيف يذود عنهما، لأن الأدب الذي يؤمن به الإبراهيمي ويدعو إليه هو الأدب المربّي، ولذلك اهتمّ «بأدب الطفل» ونوّه كثيراً بجهود «باني الأجيال» كما سمّاه، الأستاذ كامل الكيلاني، مصرّح قائلاً: «إنني أشهد الله وأشهد أمام خلقه، بأن الرجل الذي انتهت إليه حكمة التربية من طريق كتب التعليم هو الأستاذ «كامل كيلاني»»[2]،

ولما كان أفضل ما يربى عليه الطفلُ هو خشية الله، واستشعار مراقبته في كلّ حين، فقد آسن كثيراً ألاّ ينتشر شعرٌ كشعر عمر بهاء الدين الأميري، صاحب ديوان «مع الله»، في أوساط الشباب، ويتداول على أوسع نطاق، لما فيه من نَفَسٍ إيماني، وعاطفة رقيقة، ومشاعر حيّة، تجعل قارئه يسمو إلى عالم الروح النقي، خصوصا أن الشاعر يجيد سبك تلك المعاني السامية

(1) آثار الإبراهيمي، ج5، ص 227.

(2) آثار الإبراهيمي، ج5، ص 204.

كما يقول الإبراهيمي: «... يمزجها الشاعر في مقاطيع صغيرة، من البحور القصيرة، سهلة السبك، سهلة القافية، فتأتي مؤدية لمعانيها، وكأنها بين الآهات انقطاع واستراحة.

ولشاعرنا «خماسيات» تعوّد منذ سنين أن ينظمها في أيام «رمضان» وكأنها تجليات من روحانية هذا الشهر المبارك، على نفس الشاعر الرقيقة، التي يذكيها الاتصال باللّه...»[1]،

وهكذا أبان الشيخ الإبراهيمي عن ذوق أدبي رفيع، وحسٍّ نقدي عالٍ، وثروة لغوية طائلة، واطلاع واسع على الإنتاج الأدبي،

مع السياسيين وهمومهم

وجانبٌ آخر مهم جداً في حياة الأمة الإسلامية لم يغفله الإمام الإبراهيمي وهو أن يعيش مع السياسيين، شؤون السياسة وهمومها، لأن السياسة معناها الاهتمام بمصالح المسلمين العامّة، فوقف إلى جانب الحُكّام المسلمين العادلين الّذين تبنّوا قضايا الأمّة يشدُّ أزرهم، ويثني على جهودهم في هذا الاتجاه، داعمًا لها، وهو في هذا يُحاول إيجاد رأي عام في المسلمين لتأييد هؤلاء الحُكّام ونصرة القضايا التي نذروا أنفسهم لخدمتها، لأن جُهد الحاكم المعزول عن الجماهير الحاشدة التي تحتضنه وتؤيده، يبقى محدود النتائج، قليل التأثير،

ولكنّه في ذات الوقت، وبنفس الحدّة والقوّة كان شديد النكير على أمراء السوء، وملوك الظُلم، الذين كانوا وبالاً على شعوبهم، وعلى أمّتهم، فقال: «... خصوصا مع ما أنتحلوه لأنفسهم وتعبدوا به رعاياهم من هذِا التألة

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج4، ص 85.

الكاذب، وهذه الحقوق التي لم يأذن بها اللّه، وهذه المميزات التي زادها طول الزمن ، وإستحكام الجهل رسوخا، والتي إستمسكوا بها حتى في هذا العصر العالم اليقظان، عصر الدساتير المسنونة، بإرادة الأمم، فلا يحاكمون،وإن خربوا الدين والدنيا، ولا يعاقبون وإن أهلكوا الحرث والنسل، ولا يعاتبون ، وإن إنتهكوا الحرمات، وجاهروا بالمنكرات، وإنك لتسّميهم ملوكا لترفعهم عن مقام العبيد، فتجبهك الحقيقة بأنهم عبيد لشهواتهم... »[1]،

ومن المواقف الجيدة التي سجلها الإمام الإبراهيمي لبعض القادة وأيّدهم فيها، وانتصر لهم بكل ما أوتي من قوّة، لما تلمّس فيهم من صدق، ووجد عندهم من إخلاص لخدمة الأمة الإسلامية، موقفان حاسمان، كان أوّل هذه المواقف، موقف القائد مُحمّد نجيب من القضية الفلسطينية، خصوصا عندما اقترح أن يصوم المسلمون يومًا في الأسبوع، أو يصوموا أسبوعا عن الكماليات، ويوفّروا تلك المبالغ لدفع غائلة الجوع عن إخوانهم الفلسطينيين الذين شرّدتهم العصابات الصهيونية، فاهتبل الإبراهيمي هذا الموقف العملي الذي يُغني عن مئات الخطب العصماء التي تتوقف عند حدود الكلام ولا تتحول إلى مشاريع في الواقع لتغيير حال الفلسطينيين البئيس، ودعا إلى إذاعتها وتعميمها بين المسلمين قاطبةً، حتّى إذا التزموا بها يكونون قد كفّروا عن سبة التقصير، وقاموا ببعض الواجب تجاه القضية المركزية للعالم الإسلامي «فلسطين». فقال: «إن فكرة الصوم لو تمّت وانتشرت وصحّت العزائم على جعلها عادة وموسما لم تقف عند إستحياء المشرّدين وكفكفة دموعهم، بل كانت تغسل الخزي وترحض العار، وتسلّح جيشا لاسترداد فلسطين... »[2]،

(1) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 585.

(2) آثار الإبراهيمي، ج4، ص140.

وثاني هذه المواقف، موقفه الشجاع من السلطان محمّد الخامس، رحمه الله، الذي تمالأ عليه الاستعمار وأعوانه في الدّاخل، فعزلوه ظُلما وعدوانًا، لما رأوا فيه من أعمال جليلة، وتديُّن متين، ومواقف مشرفة، في نُصْرة السّنّة، وقمع للبدعة، والدفاع عن حقوق مواطنيه، وخدمة الإسلام، مع انفتاح على العصر ووسائله وآلياته، فدعا الإبراهيمي إلى وجوب نصرته، وأكّد أن عزله باطل شرعًا، فكتب يقول: «والمحنة الأخيرة لهذا الملك المظلوم كانت جرحا في قلب كل مسلم طاهر السريرة، لما وسمت به من التلاعب بالدين الإسلامي، والعبث به، وجعله سلما لأغراض سياسية استعمارية، ولما وصمت به من الإهانة لملك مسلم صالح ذي سلطة دينية لم يُخل فيها بشرط، تستند على بيعة شرعية قرّرتها الأوضاع والرسوم، وثبتها الإجماع على الرضا، ومكّن لها الاختبار والامتحان، واستوى في إيجابها نطق الناطق، وسكوت الساكت، ولم ينقض الملك لها عهدا، ولا نكث عقدا، ولم يأت في حالتي الشدة، والرخاء إلا ما يقتضي توكيدها ويوجب تجديدها، فالاعتداء على الأوضاع الإسلامية اعتداء على الإسلام في نظر المسلمين، والإهانة لملك مسلم صالح إهانة للإسلام...»[1]،

إخوانيات

لقد كانت علاقات الإمام الإبراهيمي واسعةً في العالم الإسلامي، ولكن كانت تربطه علاقة مودّة وحب ببعض الشخصيات منقطعة النظير، لما لها من تميُّز في العطاء، وتواصل في العمل، ولما حصل بينه وبينها من التقارب الفكري والتمازج الروحي، فها هو يقول عن الشيخ محمد نصيف عالم

(1) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 587.

الحجاز الكبير: «أيها الإخوان: إذا لم ينصف الحجاز شيخه ومخلد مجده، ورافع رايته أستاذنا الشيخ نصيفا، فإن العالم الإسلامي كله، ينصفه، فكلنا ألسنة شهادة بأنه مجموعة فضائل نعدّ منها ولا نعدّدها، وأنه مجمع يلتقي عنده علماء الإسلام وقادته وزعماؤه فيردون ظماء ويصدرون رواء...»[1]،

ويقول عن عالم الشام ومحيي السلفية فيه، الشيخ محمد بهجة البيطار الذي بادر بكتابة رسالة إلى الشيخ الإبراهيمي ذكّرته بالأيام التي قضاها في دمشق، والإخوان الذين تعرّف إليهم هناك، فهيجت ذاكرته وحرّكت عاطفته المشبوبة، فكتب: «وهي التي أثارت هذه الذكريات في نفسي فكتبتها، ليعلم هذا الجيل الذي تقوم على تربيته أن في الدنيا بقايا من الوفاء والمحبة، تتماسك بها أجزاء هذا الكون الإنساني، وأنه لولا هذه البقايا لانحدر الإنسان إلى حيوانية عارمة كالتي بدت آثارها في الجماعات التي جفّت نفوسها من الوفاء والمحبة...»[2]،

وهكذا فالإمام الإبراهيمي قد خلّد في مقالاته التي كتبها حول مجموعة من الشخصيات المؤثّرة في واقع الأمة الإسلامية، أحداثا حاسمة، ومواقف عظيمة، في التاريخ الحديث للأمة، كما ناقش قضايا ومسائل علمية من الأهمية بمكان، فمقالاته بالإضافة إلى قيمتها الأدبية، تعد وثائق تاريخية مُهمّة في مرحلة حاسمة من مراحل تطوُّرها، ومنعرج خطير في طريقها نحو استرداد استقلالها وتثبيت هويتها الثقافية وانتمائها الحضاري، لا يستغني عنها باحث أو مفكّر أو سياسي أو داعية.

الأستاذ الدكتور محمّد دراّجي

(1) آثار الإبراهيمي، ج4، ص125.

(2) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 567.

محمد بن شنب[*]

ما هذا الجمع الحاشد؟ وما هذه الرمز المحدوة؟ وما للأحياءحشروا في صعيد الأموات ؟ أجل، مالهذا الفريق الممتاز من إخوان الأدب وأخدان العلم وعشراء البحث ورصفاءالتفكير وأسرة الكتابة والقلم – يظهرون بهذا المظهر الرهيب. وينزعون هذا المنزع الغريب – لولا داعٍ دعا وباعث بعث وسايق حث فأزعج .

بلى ماهذا الحشد فوق التراب إلا لقضاء حق عزيز ثوي تحت التراب.

مات محمد فعرفت هذه الطائفة من مات، وعرفت أنه مات فبكت فضله المدفون و نفعه الذي فات.

مات محمد فأسف العارفون لفضله وما هو بالذخيرة المنزورة ولا الحظ المنقوص ولكنه البحر فيضاً وسعة جوانب. وأسف المشفقون على هذا الوطن البائس أن ينقصف علمه المفرد وواحد الآحاد فيه قبل أن تتحقق آماله في العلم أو تتحقّق آمال العلم فيه.

مات محمد فأيقن زملاؤه وشركاؤه في الصنعة أنهم فقدوا بفقده ركناً من أركان العلم الصحيح، وعلماً من أعلام التاريخ الصحيح، ومثالاً مجسماً من الأخلاق العالية والخلال الرفيعة، لا بل فقدوا معياراً من أصدق المعايير لقيم الروايات وعيناً لا تغر صاحبها بالسراب، لا بل فقدوا عقلاً هذّبه العلم وعلماً هذّبه العقل فأنتجا خير النتائج، لا بل فقدوا مثالاً كاملاً من حياة العمل والنشاط والعبادة للعلم والفناء في العلم.

مات محمد فلم يخسر تلامذته تعليمه وإرشاده ونصحه واجتهاده، بل خسروا وراء ذلك الغاية التي يصبون إليها وينتظرها الوطن منهم، وهي الانطباع

---

*) خطبة ألقاها الإمام في حفل تأبين الفقيد محمد بن شنب بالعاصمة، مجلة الشهاب.

بطابعه في الذوق، في الأخلاق، في أسلوب البحث، في طرز التفكير، في الاعتماد على النفس، في الانقطاع للعلم والإخلاص له، في الأدب النفسي، في الصبر على العمل – وإن شقّ – حتى الوصول إلى النهاية.

في المحافظة على القومية الصحيحة. في اطّراح الحظوظ و الرعونات، في استخدام البصيرة في كل شأن من شؤون الحياة، في القصد .

ذلك أن الرجل محافظ والمحافظة ألزم مايكون لنهضة كنهضتنا لم تزل في طور الاختمار، تتجاذبها العوامل الخارجية أكثر ممّا تكيّفها الضرورات الداخلية، فنحن أحوج ما نكون في هذا الموقف إلى محافظة مهذّبة تسايرنا في أطوار الانتقال وتكون لنا قنطرة نعبر عليها من قديمنا إلى الصالح الذي ننشده، وتقينا شرّ الذبذبة التي هي وليدة الطفرة .

الرجل كان محافظًا حقًا ولكنه محافظ بالمعنى المعقول، محافظة البصير الناقد الذي يرى أن مشخّصات الأمم منها جوهر ومنها عرض، وأن الجوهر منها هو الصالح للبقاء وأنه لا يد للفرد ولا للجماعة في تكييفه كما يشاء أو كما تشاء، أن تطوّره موكول إلى تدبير الاجتماع لا إلى تدبير الجماعات – وأن العرض منها هو محل التبديل والتغيير يصلح لزمن فيُؤخذ، ولا يصلح لآخر فيُنبذ. فالمحافظة على جوهر المقوّمات ليست محافظة وإنما هي حفظ للقومية من الاندغام والتداخل وعماد لها أن تتداعى وتسقط ، وأما الأعراض فهي قشور تتحوّل وتزول فهي كأوراق الخريف توجد وتعدم والشجرة شجرة.

والرجل مخلص في أعماله وما نجاحه في حياته العلمية إلا نتيجة إخلاصه، والإخلاص أحوج ما تحتاج إليه ناشئتنا في وقت ذهب فيه الإخلاص ضحية المداجاة والنفاق والغش والمؤاربة، مجموعها هو الرياء الخادع .

الرجل صبور والصبر مطية النجاح وقوام الحياة كلها.

الرجل معتمد على نفسه، يظهر ذلك في جميع أطوار تعلمه وإن الهمّة التي سمت به إلى تعلّم عدة لغات حيّة أجنبية وإتقانها هي عنوان هذا الخلق العظيم، خلق الاعتماد على النفس، والاعتماد على النفس خير ما حمل الآباء عليه أبناءهم فهو الرائد إلى السعادة وهو أساس الحياة الاستقلالية.

الرجل مؤدب النفس مهذّب الطباع وهذا الخلق أساس حسن العشرة وحسن العشرة أساس الجاذبية وما أحوج نا شئتنا إلى هذا الخلق القويم إذاً لكانت الإفادة إذا أفادوا والاستفادة إذا استفادوا على قاب قوسين منا.

أما طرز التفكير فالإنصاف في حق الرجل أنه لم يكن مفكرا إجتماعيا بالمعنى الواسع ومن وصفه بذلك فقد ظلمه اللهم إلامشاركة قومه في شعورهم الخاص، وإحساسهم الخاص، واللهم إلا معنى آخر يماس التفكير وهو صدق الإستننتاج وسلامة الحدس، فقد كان نصيبه من هذا لخلق نصيبا موفورا أما أسلوب البحث العلمي وبناؤه على المحاكمة والنقد فهو ظاهرة الرجل الخاصة به ونعته الصادق، ولا أكتمكم أني ما كنت شديد الإعجاب بالرجل إلا من هذه الخلة، ولا أكتمكم السبب الذي أودع هذا الإعجاب في نفسي بهذه الناحية من نواحي الرجل دون نواحيه الكثيرة وكلها أجواء صافية، السبب هو أنني نظرت في جميع مالدينا من تراث الأوائل مما نسمّيه علما وأمعنت في تتّبع أطوار العلوم الإسلامية من النقطة التي وصل إليها مداها في الاتساع إلى المنشأ الأصلي، فوجدت أن جميع علومنا الإسلامية في جميع أدوارها يعوزها الاختبار والنقد، يعوزها الاستقلال في الرأي، تعوزها الشُجاعة إلى أن جاءت عصور الإنحطاط فكان ذلك الإعواز بذرة فاسدة للتقليد في جميع علومنا حتى أصبحت أشباحا بلا أرواحا، فلا عجب إذا أكبرت الرجل وأكبرت، كل من يوفّق إلى غرس هذه الملكة فيه في نفسه.

العلوم الإسلامية موضوع تاريخي كسائر المواضيع التاريخية والباحثون في هذا الموضوع ثلة من الشرقيين وقليل من الغربيين، وجهات هذا الموضوع مترامية الأطراف، ولا نعلم موضوعا لقي في أثناء تكوينه من الفواعل الداخلية والخارجية مالقيه هذا الموضوع، لذلك قلّ من يجيد البحث فيه وقل في هذا القليل من تنتهي، به أبحاثه إلى نتيجة يرتضيها التاريخ الصحيح.

ولئن كان في طريق باحثي الغرب في هذا الموضوع عقبات تقوم لهم بالعذر عن التقصير فيه، فليس في طريقنا معشر الشرقيين من عقبة لولا تلك العلة المشؤومة التي هي عائقنا الأكبر عن الإنتاج الفكري والخصب العقلي، بل هي السبب الوحيد في موت ملكة الإبتكار فينا، تلك العلة هي التقليد الذي أصبح ظاهرة من ظواهر العلوم الإسلامية وتاريخها.

وإن المفكرين مناّ لينشدون نهضة تقضي على التقليد وتغرس ملكة الإستقلال في البحث التاريخي، وإن بوادر هذه النهضة قد ظهرت من عهد غير بعيد، وإن فقيدنا اليوم من الطلائع المبكرة لهذه النهضة بهذا الوطن وأن تبكيره هو سر خموله.

نشأت العلوم الإسلامية في ظروف متفاوتة وفي أمم متفاوتة يجمعها الإسلام، فكان للظروف أثر في تكوين تلك العلوم ولاختلاف الجنس أثر في تكوينها أيضا، وكانت منذ نشأتها خاضعة للدين، فكان للدين أثره الأقوى فيها أيضا ثم تطوّرت تلك العلوم تبعا لتطور الحياة العامة، فكان للآداب الجنسية الخاصة وللآداب الدينية العامة أثر في ذلك التطورّ.

وأصبح تاريخ العلوم الإسلامية يتناول تاريخ رجالها وتاريخ إنتقالها في ظل الإسلام من الشرق إلى الغرب وتاريخ أطوارها قوة وضعفا ، فلا عجب إذا أعجبت بهذا الفقيد وهو الذي إذا بحث في هذه المواضيع الشائكة أرضى

الحق وأرضى التاريخ، وإن ناشئتنا لفي شديد الحاجة إلى تلقين هذا النوع من العلم في مبدأ نهضتنا العلمية وإلى الانطباع بهذا الطابع طابع الاستقلال والنقد.

لست في موقفي هذا شاعرا أؤبّن فأجري وراء الخيال في تصوير عظم المصيبة بفقيدنا العزيز لأجري دمعة جامدة أو أحرّك عاطفة خامدة، كلا ليس هذا من شأني وليست بصاحبه وإني لتاركه إلى شعراء الحفلة فليبكوا ماشاءوا وليستبكوا ما شاءوا فالموقف حقيق باستنزال العبرات وتصعيد الزفرات وذهاب النفوس حسرات.

وإنما وقفت لأبيّن لكم ناحية من نواحي الفقيد، وهي ناحية عرفها القليلون منّا وجهلها الكثيرون، هذه الناحية هي بالغرة اللائحة في حياة الراحل الكريم، وهذه الناحية هي في نظري سر نبوغه أو سر تفوّقه أو سر غربته في هذا الوطن.

هذه الناحية هي التي لاحت للعلماء من غربيين وشرقيين فأكبروا الرجل وأنزلوه المنزلة التي هو بها حقيق هذه الناحية هي العظة البالغة والعبرة النافعة للناشئين منّا في العلم وهي المثال الذي يجب أن يحتذوه، وما حياة العلماء الذين وقفوا حياتهم لنفع البشر إلا أمثلة تحتذي ولها بعد ذلك أثرها في النفوس إن خيراً وإن شراً.

أمتاز الفقيد بعدة خلال جليلة مجموعها هي تلك الحياة الجليلة التي يبكيها الباكون منّا اليوم ويعتبر بها المعتبرون.

هذا الفقيد العظيم يصفه الواصفون بالمحافظة فيمدحها قوم ويذمّها آخرون، ويصفه الواصفون بالنزعة الإسلامية الشاذة فيمدحها قوم ويذمّها آخرون.

ويصفه الواصفون بسعة الإطّلاع على تاريخ العلم الإسلامي والتوفّر على البحث فيه على المنهج العلمي المبني على المحاكمة والنقد والإستدلال، فتجتمع الآراء وتتفق المشارب وتلتئم الأهواء.

ياساكن الثرى ومستبدل الوحشة بالأنس، هذه طائفة من قرنائك وعارفي قدرك وتلامذتك جاءتك وأنت في ثراك تجدّد بك العهد بعد الأربعين وانها لغيبة طويلة لولا أن ما بعدها أطول.

جاءت تجدّد ذكراك الخالدة وتعدّد ما خلفت من تراث وما هو إلا علم صحيح ومبدأ صريح وكفى بهما ذخرا لك ولنا.

ياساكن الثرى إن ذكراك هي الشعاع الهادي لهذه الطّائفة فيما يعرض لهم من شؤون الحياة وتجاريبها.

ياساكن الثرى ومستبدل الغربة بالأهل، هذه الجزائر تناجيك بلسان طائفة من أبنائها البارين بك وبها وتقول: عرفك الغرب والشرق ولم تعرفك الجزائر حق المعرفة في حياتك، فهي تبكي عليك حق البكاء بعد وفاتك، وهذه الألفاظ هي دموع المقصر بعد العتب، والتائب بعد الذنب.

ياسكان الثرى نم هيئا في جوار ربّك، فهذا آخر العهد بشخصك الكريم ولكنه ليس آخر العهد بأثارك الخالدة.

وإنّا عليك يا محمد لمحزونون.

الشيخ محمد الطيب
عميد آل الشيخ الحواس(*)

أرزئ عرش ريغة العظيم بفقد هذا العظيم من رجاله، ولقد كان – رحمه الله– رجل همة وشهامة وحزم وصرامة، وكان شيخ طريقة ولكنه نزيه عن أوساخ أيدي الناي، يعطي ولا يأخذ، وله أتباع كثيرون ولكنه لا يستخدمهم ولا يترفع عليهم ولا يقبل منهم ذلا، ولا خنوعا ويأمرهم عند مقابلته بالإقتصار على المصافحة، ولما ذهبنا لعزاء إخوانه فيه، كاتب هذه السطور والشيخ البشير الإبراهيمي والسيد عبد الرحمن بن بيبي زرنا قبره للعظة والتذكّر والدعاء، فألقى الشيخ البشير الكلمة التالية وهو خير ما بين صفات الفقيد. رحمه اللّه وعزّى أهله وقومه فيه):

في هذا البسيط الواسع وعلى هذه الهضبات الشمّات قضيت أنا والفقيد خمس سنوات كاملة من أعمارنا لم نفترق فيها إلا لماماً.

خمس سنوات كاملة بلونا فيها سراء الحياة وضراءها، وتقاسمنا فيها نعيم العيش وبؤسه واعترضتنا فيها الحوادث ألوانا فكنّا نقتحمها برأيين كرأي، ونصدر عنها إثنين أشبه بواحد.

خمس سنوات كاملة كنّا نقرأ فيها دروسا في العلم يحضرها الناس ودروسا أخرى في تحليل معاني الأخوة والصداقة نستجلي فيها خفايا الأنفس ومكنونات الضمائر ولا يحضر هذه الدروس إلاّ هو وأنا.

(*) مجلة الشهاب. الجزء الثاني عشر، المجلد السابع، غرة شعبان 1350هـ/ ديسمبر 1934م. قسنطينة.

خمس سنوات كاملة ولكنها مرّت كأحلام النائم وانقضت أواخرها تتعثر بأوائلها ثم ضرب الدهر بضربانه وفرّقتنا الأيام بين مشرق ومغرب، وكنّا نظن أن لا فراق فصرنا نعتقد أن لا لقاء، ثم قضى اللّه بجمع الشمل مرة أخرى فإذا العهد هو العهد وإذا الذي بيننا لا يزداد على تراخي الأيام إلا متانة ولا يزداد على إنبتات الحبل إلا إتصالا، وإذا تلك الأخلاق الشريفة التي تكوّنت منها تلك النفس الهادئة قد صادمتها الحوادث فشاب ذلك اللين شوب من الصلابة، وشاب ذلك الهدوء شوب من التنمر، وقد عدّ الناس هذه النزعة الجديدة منه تطورا في الجوهر، وأنا أعدّها تطورا في المظهر.

من واجبي إذن أن أتحدث عن الفقيد حديث من عاشر وجرّب، ومن واجبي أن أنوّه من صفات الفقيد بصفة فاق بها أقرانه ولم يلحقه فيها لاحق وما أكثر خصاله الحميدة لو كان في الوقت متسع لذكرها ، هذه الصفة التي تعد هي الغرة اللائحة من خلال الفقيد هي الشهامة بأوسع ما تدل عليه كلمة الشهامة، فقد كان حامل لوائها والسابق المجلي إذا تسابقت الرجال في ميدانها.

ولقد كانت تطير الحوادث وتقع فتجد عنده لكل ورد منها صدرا ولكل مبدأ عاقبة ، ولقد كانت الملمّة تنزل بصديقه فيسايقها رأي منه يفض مشكلها أو مال منه يكسر من شرتها.

ولقد كانت الكرامة تمتهن فيكون له منها الولي النصير.

ولقد كان الملهوف تحزبه الحاجة فيكون له الغيّاث المفرج.

فيا رفيق الأمس إن من حقوق الرفقة أن نقف على قبرك اليوم ولو كان من حقوق الصحبة أن ندفع ماحلّ بك لبذلنا غوالي الأعلاق اليوم كما بذلنا غوالي النصائح بالأمس، ولوجدتنا اليوم أوفياء في الدفاع كما كنا بالأمس أمناء على حقوق الصحبة.

لحقت بجوار ربّك ولم تبق إلا الذكريات من حياتك ، فرحمة اللّه عليك وبركاته.

الطاهر بن عاشور

أشيخ الإسلام هو أم شيخ المسلمين؟؟(*)

لسنا ممن يُكبر (شيخ الإسلام) للقبه، ولا ممن يعرفه- بمركزه ومنصبه، ولا ممن يزنه بِدَثْرِهِ ونشبه، ولا ممن يستهوي بديوانه وكتبه، وإنما نكبره لعلمه، ونكبره من نواحي هذا العلم بآثاره في العلم إن كانت، وبأعماله للعلم إن وجدت.

ولكن ما الحيلة؟ وقد طلعت علينا فتواه الأخيرة تحمل هذه الطغرى: فلان شيخ الإسلام لا فلان العالم. فشغلتنا بالنظر في هذه الطغرى عن النظر في كون الفتوى علماً أو ليست بعلم، وألهتنا بما ننكر عما نعرف. فلنبدأ بالنظر الأول ثم لنعد إلى النظر الثاني. ثم لا يكون اشتغالنا بالنظر الأول عبثاً. فإن هذه الفتوى بمكان هذه الطغرى منها، تقول للناس: إن قوّتي من قوة هذه الطغرى، وشهرتي من شهرتها، وإن موقع هذه الطغرى مني موقع شارة الجندي من الجندي، وسر هذه الشارة في الجندي كما تعلمون هو سر السبعية في السبع يرهب بالمنظر أضعاف ما يرهب بالمخبر، وقد شاع في محافل (الطرقية) بالجزائر وفي محافل (المروقية)[1] بتونس أن لسان حالها يقول: إنني فتوى شيخ الإسلام وكفى.

(*) جريدة «البصائر» السنة الأولى، العدد 20، الجمعة 1 ربيع الأول 1355هـ / 22 ماي 1936م.

(1) المروقيّة: من المَرَق.

فوجب أن نقول لها: لا ياهذه، إنك لم تهتكي الخدر على نيام، ولم تطرقي الحمى عن سواد مغفل، وإنك طفت منا بعقول لا تدين بهذه الألقاب، وإن تشرفت بالإضافة، ونفوس لا تنقاد إلا للدليل وإن كان صاحبه غفلا من(اللقب) عاطلا من الرتب، فلا يضيرك عندنا أن لو جئت من عند شيخ... وبيدك الدليل، ولا ينفعك أن جئت من شيخ الإسلام بصريح التناقض، وسخيف التأويل، فانزعي هذا البرقع وهلم نحتكم على سفور وإن كنا لا نقول به في الغانيات.

أما أننا لا نكبر هذا اللقب فلأننا لم نكبره يوم كانت تعطيه المؤهلات الحقيقية، ويمنحه الرأي العام العلمي، فيقال شيخ الإسلام «إبن القيم» وشيخ الإسلام « إبن حجر» مثلا فماأغنى هذا اللقب عندنا عن الأول معشار ما أغنى عنه(إعلام الموقعين) وغيره من كتبه، ولا أغنى عن الثاني معشار ما أغنى عنه«فتح الباري» وغيره من آثاره، فكيف نكبره الآن وحاله هي حاله؟

وإن هذا اللقب في أمثال « إبن القيم» ليؤدي معنى الإئتمان على حقائق الإسلام أن تقلب ، وعلى عصابة نصره أن تغلب، ومعنى الإحتفاظ على أوضاعه أن تغير، وعلى دلائله الصريحة أن تزور، فيقال في السنّة إنها بدعة، وفي البدعة إنها سنة، ويقال في دين اللّه: إن عمل الناس اليوم جرى... فشيخ الإسلام من هؤلاء هو ناشر حقائق الإسلام في المسلمين إرضاء اللّه لا ناشر أهواء المسلمين في الإسلام إرضاء لهم... وسبحان من رفع قدر الإسلام على الأديان حتى في المواضعات العرفية التي تقال على التوسع والتساهل لا على الدقة والتحديد.

أتدرون ما معنى هذا؟

معناه أن الناس يقولون في إطلاقاتهم العرفية« حاخام اليهود » ولا يقولون حاخام اليهودية، ويقولون « بطريرك النصارى » ولا يقولون بطريرك النصرانية. فإذا جاءوا إلى الإسلام قالوا: « شيخ الإسلام » ولم يقولوا شيخ المسلمين، مع أنهم قالوا قديما أمير المؤمنين.

إنني أؤمن بأن هذه الأوضاع اللفظية لم ترسل على ألسنة الناس عبثا، وبأنها إندفعت من أفواههم بسائق وجداني من نفوسهم يؤيده الواقع، وبشعور متمكّن فيها بأن كلا من « الحاخام » والبطريرك يوسو أمّة بدين يكفيه على أهوائها ويؤثر رضاها على رضاه، وبأن شيخ الإسلام يسوس أمّة بدين ثابت الأساس يحكمه في طباعها لتأتلف، ولا يحكمها في أوضاعه لئلا تختلف ويروضها على أحكامه وأخلاقه وآدابه لتتأثر به ، ولا يروضه على أهوائها لئلا تؤثّر فيه، وغايته إيثاررضى الدين الحق على رضاها، وبذلك تتم غاية الإسلام في المسلمين، ويتحقق كمال المسلمين بالإسلام، ولهذا أضيف كل واحد من الثلاثة إلى الجهة التي يجب عليه إرضاؤها، وكأن في تلقيب كل واحد بلقبه الخاص به أشعارا له بالجهة التي يفرض عليه اللقب إعتبارها، وفي ظني أنه لو لم يكن المؤمنون في عهد عمر-رضي اللّه عنه- مظهرا للإيمان الحقيقي، ولم تكن أقوالهم وأفعالهم تمثيلا صحيحا لحقائقه حتى كأنهما شيء واحد ، لما قالوا« أمير المؤمنين » ولما قال لهم عمر:« أنتم المؤمنون وأنا أميركم »، وهل كان المؤمنون في زمن عمر كمؤمني اليوم؟

وإذا استقام هذا فما قولكم، يرحمكم اللّه، في شيخ الإسلام صاحب الفتوى في قراءة القرآن؟ قولوا ما شئتم، فإنني لا أدعوه بعد اليوم إلا شيخ المسلمين في غير ظلم ولا تحيّز.

بل أعتقد أنني– إذ أسمّيه بهذا– إنما أسمّيه بأحب الأسماء إليه لأنه آثر رضاهم على رضى الحق، وإرضاءهم على إرضاء الدين، ثم لا تسألوني عمن أعني بهؤلاء المسلمين، فهم، بالضرورة غير من أغرى بهم قوة الحاكمين.

وما ظنكم؟ لو أن التاريخ الإسلامي العامر يؤلف من عظمائه هيئة (امتحان) ويكون من أصولها أن تعطي على درجات الإمتحان ألقابا معرفة لاغالية ولا مجحفة، ثم يتقدم إليها «إبن القيم» بكتاب «زاد المعاد» على أنه «أطروحته» العلمية، ألا يكون الإنصاف أن يعطى لقب شيخ الإسلام؟ ويتقدم إليها الشيخ الطاهر بن عاشور بفتواه هذه على أنها« تازه»[1] العلمي «وعفوا فإن لكن زمان تعبيرا» ألا يكون من العدل أن يعطى لقب شيخ المسلمين؟

هذه هي حجتي فيما أعتزمت عليه، فإن غضب الشيخ، فأمري وأمر الإسلام إلى اللّه.

والآن –وقد فرغنا من جهة اللقب وبيّنا قيمته عندنا وأسباب هوانه علينا وأنصفنا الحق– نتكلّم على الجهة العلمية فنصف الشيخ كماهو وننصفه، ثم نتكلم عن الجهة العملية. (وله اللّه علينا أننا ننصفه)، ولعل الشيخ إذا تنزل وقرأ كلامنا وسلّم أننا أنصفناه في واحدة، ويتحقق أننا أنصفناه في الجميع، ولعله بعد ذلك ينصفنا من نفسه كما أنصفناه من نفوسنا.

كنت من عشرين عاما مضت– وأنا بدمشق الشام– أسمع ذكر الأستاذ «الطاهر بن عاشور» من إخواننا الذين رافقوه في مراحل التحصيل بجامع الزيتونة، فكانوا يتفقون على عدّه في مقدمة الأذكياء من طبقتهم ثمّ يتفقون على عدّه بعد التخرّج في طليعة المتخرّجين على الطريقة الإستدلالية في العلم، مع أعترافهم بأن هذه الطريقة ليست نتيجة للتعليم الزيتوني وحده، ثم

(1) من الكلمة الأجنبية These أي الأطروحة الجامعية.

يرتقي به بعضهم فبعده في زمرة العلماء المستقلين في العالم الإسلامي، والمستقل في مذهبنا الكتابي اليوم هو الذي يحكم الدليل، وغلا بعضهم – في مجلس لا أزال أذكره– فعقد تنظيرا بينه وبين رجل من أئمة العلم والإصلاح ولا أزال أخجل كلما ذكرت ذلك التنظير.

وكانوا يعدون بجنبه أذكياء آخرين قطعتهم العوائق عن إتمام التحصيل، أو عاقتهم الوظائف من إظهار المواهب، فكنا نتأسف أننا جميعا لفعل العوائق بالأذكياء ولحرمان الأمّة من ثمرات ذكائهم، ولم نكن ندري إذ ذاك أننا سنتأسف على ذكاء الشيخ الذي لم تعقه العوائق عن التحصيل بل ساعدته الأيام على العلم، وانفسحت أمامه سبله، وأمدّته خزانة جده العالم، وخزانة جده الوزير بأسباب البحث والتوسع وأمدّه نشبهما بوسائل الانقطاع للعلم والتفرغ له.

كنت أسمع هذا كله عن الأستاذ فلا أصدّق ولا أكذّب، جريا على طبعي في عدم الحكم على الأشياء قبل إستبانة آثارها، ولم أكن قرأت له إلا تقريظا، وتأبينا لا يدلان على .

طائل، ثم وردت من المشرق على تونس، وعرض لي من أول يوم ما زهدني في الشيخ، فقد حملني بعض أصدقائه من المشرق أمانة كلامية أبلغته إياها بواسطة لمكان العجلة وفهمت من جوابه ما دلّني على مقدار الوفاء في الرجل... وعلى شيء آخر لا أسمّيه، ثم عرفت الشيخ بخلصائه وخواص تلامذته أكثر مما عرفته بشخصه،ومن هؤلاء من أعتقد سداده وأحترم رأيه ولا أتهم ذوقه في تحديد القيم العلمية، فعرفت منهم ومن القليل الذي قرأته للشيخ من الآثار،أنه على جانب من استقلال الفكر، وحيوية التفكير وأنه واسع الإطلاع، ممتع المذاكرة، يقظ البديهة ملمّ بأحوال زمانه، يرجع منه

جليسه إلى ذهن كيس، وطبع مرتاض على الآداب المدّونة، ويرجع منه مذاكره في أحوال المسلمين إلى ذاكرة واعية لشؤونهم وشعور بآلامهم وعلم دقيق بأمراضهم الاجتماعية والدينية.

وهل أنبئكم بمقياس آخر غريب من مقاييسي الخاصة في وزن الرجل؟

كنت قرأت- وأنا بالمدينة المنوّرة- تفسير المرزوقي لديوان الحماسة- وهو تفسير أي تفسيرا.

ولما دخلت الشام بحثت عن نسخة منه فلم أظفر بها، فذكرته في مجالس الأدباء، ونوّهت بمكانته وشوّقتهم إليه وتعادهنا على أن ننسخه إذا ظفرنا به، ونروّجه حتى يقيّض اللّه له من يطبعه.

ولما قدمت إلى تونس مصراً على ذلك العهد، سألت عن الكتاب فقيل لي إنه موجود وإنه مستعار عند «الشيخ الطاهر بن عاشور» وإنه يكاد يحتكره إحتكارا، فكان هذاالخبر (بمجرده) مزيدا في قيمة الرجل الأدبية عندي لأن حسن إختيار الكتب أول عوامل الإصلاح في نفس العالم.

هذه معرفتي بالرجل من جهته العلمية، ولولا هذه المعرفة لما أبهت لفتواه الأخيرة في قراءة القرآن على الأموات، ولعددتها كما هي في الواقع من ذلك النوع الرخيص الذي لا صلة فيه بين المسألة ودليلها، وقد امتلأت المجلّدات بالألوف من هذا النوع فماذا عسى أن تزيد فيه واحدة؟

أما جهة الرجل العملية، فإنني أصرّح على رؤوس الأشهاد، والأسى يحزّ الفؤاد، أن أمل الأمّة خاب فيه من أول خطوة خطاها في حياته العملية، فالرجل بموجب قيمته لم يخلق لنفسه، بل نقول إنه لم يخلق للأمّة التونسية وحدها وإنما هو للأمّة الإسلامية كلها، وإن الأمة الإسلامية لا تتشابك- على كثرة المفرّقات إلا بهؤلاء العلماء الذي يجتمعون على استقلال الفكر واتحاد الوجهة، ولا

تتلاقى في الدين– على كثرة القواطع، إلا على هذه المعاني السامية في نفوس هؤلاء العلماء، وهي معان تستمد قوّتها من (قال اللّه وقال رسوله).

وإننا لا نجد لصاحبنا أثرا يكذر في هذا الميدان ولا صالحا من الأعمال حصل على يده للأمّة التونسية أو للأمّة الإسلامية.

فقد ولي صاحبنا القضاء، أو قضاء الجماعة على إصطلاحنا،وهذا المنصب بتونس في حقيقة أمره شعبة من شعب الملك، بل معنى من معاني التمكين و(حرز) من خواصه المنع والتحصين، وأكسير يحيل الخروج عن الحد إلى نتائج الضد، فلا تسمّى السيئة معه باسمها، ولا يترتب عليهاما يترتب على السيّئات من عذل أو عزل، بل تعدّ من أسباب الترقية، وقد دام هذا إلى وقت قريب.

فهذا المنصب طريق واسعة إلى الإصلاح وميدان فسيح للأعمال، ووسيلة يفترصها الرجال العاملون لإظهار مواهبهم ولا ينقص صاحبها إلا أن يكون عالماً وصاحبنا الشيخ عالما كما وصفناه وأنصفناه، وأول ما يحتاج إلى الإصلاح، حين ولي هذا المنصب، القضاء الشرعي نفسه في نظمه وتراتيبه وتوضيح مناهج التداعي، وحسم أسباب الشر. في المنازعات الوراثية المتسلسلة، وتربية العائلة القضائية من أعوان وشهود ووكلاء ومقاديم على العفة والنزاهة، والقضاء هو المظهر الأول للعزة، فلم يجر صاحبنا في الإصلاح قدما، ولم يجرّر فيه قلما وضاعت الفرصة على محبي الإصلاح والعاملين للإصلاح.

ثم (ارتقى) إلى الإفتاء، وهووسيلة لا تقلّ عن سابقتها شأنا وقوة لو إستخدمت في الإصلاح لأتت بنتائج ذات خطر، ثم إلى رئاسة الإفتاء المالكي فيما أظن، (وهنا خانتني الذاكرة) ثم تمخضت الأحداث الطافرة عن تبدّل في الأوضاع وتقنين لا خطر له في عالم الاختراع، فأصبح صاحبنا شيخا للجامع المعمور وشيخ اسلام، وتهيأت له بهذه الوظائف التي لا وراءها كل أسباب

العمل، وأصبح يظاهر بين درعين من الثقة به والرضى عنه، ويستند إلى ركنين من المشيختين، فماذا فعل؟ ومذا أجدت مشيخته للجامع على الجامع؟ وكنا ننتظر للجامع في أيامه إصلاحا واسع النطاق، وسعدا مشرق الآفاق، فلم تكن إلا تلك النكبة المشؤومة على الجامع وعلى المسلمين والتي مهّدت السبيل للداء الوبيل؟

وهذه جهتهِ العملية جلوناها على القرّاء باختصار، وإذا محّصنا هذه الجهة التي هي مناط الإكبار للرجل فلم تجد فيها كبيرا لم يبق لفتياه من شأن إلا أنها فتوى رجل فقيه... ينقدها من يشاء نقدها ولو كانت ملفوفة في (شال) ويتركها من يشاء تركها، فما ثقل بها ميزان ولا شال.

أما أنا فإنني أحتفظ بحقي في المسألة.

وبعد، فهل يظن الشيخ أننا لا نعرف من أحوال تونس إلا كما يعرف هو من أحوال الجزائر مثلا؟ أو أننا لا نعنى بها وبغيرها من بلدان الإسلام إلا بشبه عن عنايته؟ أو يتوهم أن مكانة تونس في نفوسنا ومكانة جامعها المعمور كمكانة شاطىء خير الدين من نفسه؟ أو يعد كلامنا إذا تكلمنا عن تونس فضولا ولغواْ.

ليعلم الشيخ أننا- والحمد اللّه- نعرف عن بلدان الإسلام ما يعرفه هو عن المرسى والديوان، وأن الدار ليست داره وحده، وأن أخوّة الإسلام توجب علينا أن نمد أعيننا إلى ما وراء الرسميات والجغرافيات، فنحاسب أمثاله إن وجب الحساب، ونعاتبهم إذا لزم العتاب، وإننا نفهم من «جامع الزيتونة» و«الأزهر» وغيرهما أنها أوطان جامعة للمسلمين تذوب فيها الاعتبارات الفارقة، وتموت بين جدرانها النزعات المارقة، فما ثم إلا الإسلام ولسانه.

وإننا نحمل لهذه (الأوطان الجامعة) من الإحترام والتقدير مالا نحمله لديارنا ومتبَوَّإ صغارنا، ونتمنى لها أن تتقدم فتخرج الودائع الكمينة، وتحقق المعاني الدفينة.

وإن حال هذا الكاتب بالخصوص مع جامع الزيتونة كالحال التي يقول فيها شوقي للأزهر:

ما ضرّني أن ليس أفقك مطلعي وعلى كواكبه تعلمت السرى

فأنا لم أتخرّج في جامع الزيتونة، ولم أقرأ فيه حرفا، ولكنني تخرّجت ، بالمدينة المنوّرة، على أضوإ كواكب الزيتونة في وقته ولا أحابي، الشيخ «محمد العزيز الوزير التونسي»- رحمه اللّه - فكانت لي بسببه صلة بالزيتونة مرعية المتات، آمنة الإنبتات (وإلى اللقاء ياجناب الشيخ).

تعليق: في الجزء الثالث من آثار الإمام الإبراهيمي- عيون البصائر- وفي المقال المعنون:«الرجال أعمال» نجد الإمام الإبراهيمي ينوّه تنويها عظيما بالأستاذ الشيخ الطاهر بن عاشور في صورة تخالف الصورة المرسومة هنا، وهي حالة تذكرنا بموقف عمرو بن الأهتم من الصحابي الزبرقان بن بدر في مجلس رسول اللّه (صلي الله عليه وسلم) فقد مدحه مدحاً كريما ثم هجاه هجواً أليما في وقت واحد، ولما راى الإستغراب في وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال: « واللّه ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى، رضيت عن إبن عمّي فقلت أحسن ما علمت ولم أكذب، وسخطت فقلت أقبح ما علمت ولم أكذب» ، فقال رسول اللّه (صلى الله عليه وسلم): « إن من البيان لسحراً» ، أنظر العقد الفريد، لا بن عبد ربه، ج2، ص64- 65 (عبد الرحمن شيبان).

بين عالِم وشاعر(*)

دارت مكاتبة خاصة بين الأستاذ الإبراهيمي وشاعر الشباب وكانت في أمر يتصل بسير الحياة العام، كانت في بؤس طاف طائفه بالشاعر، فحاول العالِم تعويذه بآيات الأمل وتمائم الرجاء ، فلما إجتمعنا بالصديقين إنتزعنا منهما ما دار بينهما، ورأينا من حقوق قراء« الشهاب » الإطلاع عليه، لاسيّما وقد كان مثير هذا الحوار قصيدة[1] نشرت في مجلتهم.

كتاب العالم

الحمد للّه وحده

تلمسان يوم 3 صفر الخير 1355

إلى ولدي الروحي الأستاذ محمد العيد

ولدي

طالما قرأت في وجهك الشاحب آيات الحزن، وتلمحت في قسماتك دلائل الهم والأسى، وكم حركتك بمعاريض من القول علني أستبين شيئاً من حقيقة هذا الهم الدفين الذي تنطوي عليه أحناؤك، وهذا الأسى المبرح الذي أعلم أنك تقاسيه. فكنت كمن يستجلي المعنى الدقيق من اللفظ المعقّد، وإن بين التعقيد ونفوس الشعراء« الأتقياء » نسبا وثيقا، وياللّه للنوفس الشاعرة التقية وما تلاقيه من عناء ممض يتقاضاها الشعر إطلاقا، فيتقاضاها التقى تقييدا... لها اللّه فماذا تفعل!

أتظن أننا جاهلون بهذه المنازع العجيبة التي تنزعها في شعرك و وبمناشئها من نفسك، فالحمد اللّه على أن في قومك من يعرفها ويتذوقها ويطرب لها...

(*) مجلة «الشهاب» الجزء الثالث، المجلد 12، جوان 1936، ص 135.

(1) قصيدة للشاعر محمد العيد، نشرت في«الشهاب»الجزء الثاني، المجلد الثاني عشر، ماي 1936، ص 64، تحت عنوان «زفرات».

مالهذه النفس الكبيرة في هذا الهيكل الصغير يهفو بها الشعر في مضطربه الواسع فلا يبلغ مداه حتي يقول:

خلا القلب من حب العبادِ وبُغضهم وأصبح بيتا للذي حرم البيتا

ويقول: وتبت يارب تبت.

ويقول اليوم:

ولولا رجاء الذي إليه أنا زالف

إنها، وأبيك، لنزوة الشعر تعتلج في الفؤاد بنزعة التقى.

طالما سمعت منك كلمة« اليأس» وبودّي أن لا أسمعها منك مرّة أخرى لأنني أعدها غميزة في شاعريتك، ولولا شذوذ نعرفه في نفوس الشعراء كأنه من معاني كمالهم لما صدّقنا باجتماع اليأس والشعر، وكيف ييأس الشاعر وهو ملك مملكة الآمال وسلطان جو الخيال. فإن كان تقيّا رجع من «رجاء اللّه» إلى مالا يحدّ له أمد، فكيف تيأس نفس الشاعر لولا ذلك الشذوذ؟

لقد قال أولكم:

حرك مناك إذا أغتمـ ـمت فإنهن مراوح

وما قالها لغيره إلا بعد أن جرّبها في نفسه ... فلا تيأس يابني ولا تكذب إمامك الذي يقول: خلق الشاعر سمحاً طرباً.

قرأت زفراتك هذه الساعة في الشهاب وأنا طريح الفراش، أعالج زكاما مستعصياً ونزلة شعبية، وسعالا مزمنا وأولادا يطلبون القوت أربع مرّات في اليوم وتلاميذ يطلبون الدرس سبع مرات في اليوم والليلة فقلت: وهذه أخرى. إن ولدنا هذا لذو حق، وكتبت لك هذه الكلمات كما يكتب الأب الشفيق إلى ولده الرفيق، وعسى أن يكون فيها ترويح لخاطرك

محمد البشير الإبراهيمي

جواب الشاعر [1]

أبي «البشيـــر» سلام زاكِ وشـوق كبيـــــر
لا زلت فينــا منــارا بضوئــــه نستنيـــر
وافى كتابـك يهـدي إليَّ المنـى ويشيـــر
تذكــو العبــارة فيــه ما ليس يذكو العبيــر
إذا فــؤاديَ ســـال به وطَــرْفي قريـــر
قــد أرتددت بصيــرا فكيف يغوي البصير؟
قميـص يوسـف ألقى بـــه عليٌّ (البشيـر)!
يــا آسي اليــأس زدني كشفا فأنــت خبيـــر
اليـــأس داء عسيـــف والبـــرء منــه عسيـــر
فرجت عـن مستطـار بـــــلاؤه مستطيـــر
وكدت تجلو ضميري لو كان يجلى الضمير!
فليــس يجزيــك عني إلاّ الإلـــه القديـــر
غفرانـــه لـم يشقــى في الخلق جم غفيـر!؟
شِـقّ المرائـــر إربًـــا هذا الشقـاء المريــر!
كم للمعافيـن جـــار من بوســـه يستجيــر
يرى كجــذلان حـــر وهو الأسيـــف الأسير
يا لا هج الذكر باسمي والجاحــدون كثيــر!
لا باد فينا لك اســـم ولا إنقضى لك خيـــر
عفــواً فــإن يراعــي عيّ وباعـــيٍّ قصيـــر
عفـواً فما لي جنـــاح به إليـــك أطيـــر

---

(1) «الشهاب» الجزء الثالث، المجلد 12. جوان 1936، ص 137.

لا قفوَ إثـــر سَـــريٌ فوق الثريـــا... يسيـــر
نفحتنـــي بخطـــاب كالزهر وهو نضيـــر
فهل تعيـــر بيانًـــا لـــرده هـــل تعيـــر؟؟
يعبـــا الفـــرزدق عمًـــا تقولـــــه وجريـــر
يا واصف الخير زدني من وصـــف ما تستخير
يدق بيـــن ضلوعـــي قلب كسيـــف كسيـــر
أخشى عليه إنتكاسـا والإنتكـــاس خطيـــر
صِفْ وصفةً ليَ أخـرى فيها الشفـــاء الأخيـــر

محمد العيد

الأستاذ محمد بن مرزوق(*)

فجعت مدينة تلمسان عموما وطائفة الإصلاح خصوصا بموت الأستاذ الخير محمد بن مرزوق سليل البيت المرزوقي الشامخ البنيان، ورئيس شعبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأحد دُعاتها الثابتين.

لقي ربّه ليلة الأربعاء 22 جمادي الثانية بعد مرض لازمه زهاء عام، ولم يفد فيه علاج ولا حيلة، فكان موته صدمة لاقاها المصلحون بالصبر، وكان أثرها فيهم بقدر ما فقدوه بفقد الراحل الكريم من خلال صالحة وعزيمة ثابتة، ويقين لا تشويه الشائبة.

كان كل حظ الفقيد من العلم مبادئ عربية تلقّاها عمن أدرك من مشائخ ذلك العصر في تلمسان، وتعاليم مدرسة رسمية تلقاها بمدرسة تلمسان الحكومية.

ثم بعد حصوله على شهادتها الأخيرة سمت به همته إلى تحصيل الشهادة العليا من مدرسة الجزائر فحصّلها ، وبدأ حياته العملية مدرسا حكوميًا بالسودان، ثم مدرسًا بمدرسة الألسن الشرقية بباريس، ولم يرض ذلك كله شيئا من همته ولا اتّفق مع ما هو مستعد له، وكأنه كان يروّض نفسه الأبية على شيء لم يخلق له، ثم إنخرط في السلك القضائي من أول مراتبه فلم يلبث فيه إلا قليلا، ثم دخل في التدريس الرسمي ببلدة «بلعبّاس» فكان آخر رتبة

(*) جريدة « البصائر» العدد180، 25 أوت 1939 (بدون إمضاء).

لتلك الرياضة التي راض بها نفسه على الوظائف، فلم تتفق واحدة منها مع تلك النفس الحرّة.

ولو أن نفسه كان من طراز تلك النفوس التي تعشق الوظيفة بما فيها من قيود، لبلغت به اليوم أقصى تلك الدرجات وحلته بحلاها، ولكنها رجعت به، مع رقة الحال، إلى أقرب

عمل من الحرية وهو «الوكالة الشرعية» ومازال يتبلغ بما يحصله منها محتفظا بإيمانه وحريته وشرف نفسه إلى أن لقي ربّه.

إنتخب عضوا بالمجلس البلدي مرات متواليات، فكان ثقة الأمة به في محلّها وكان في حياته النيابية، التي استغرقت بضع عشرة سنة من عمره، مثال الصدق والإخلاص وأداء الواجب، لم يدنس شرفه بمطمع ولم يغمس يده في دنيئة، مع رقة حاله وكثرة عياله، وكان طاهر العقيدة متينها في دينه، صائب الرأي سديد التفكير في الشؤون الدينية العامة، سمعت من فيه، رحمه اللّه، أن التعاليم المدرسية الحكومية أثرت في نفسه تأثيرا سيئا كانت نتجته الإلحاد، ولكن هذه الغمرة إنجلت عنه سريعا، وتلتها غمرة تألم مطبقة، ولمّا لم يجد أمامه مظهرا إلا النحلة الدرقاوية انتحلها وغرق فيها إلى الأذنين، ولكنه أدرك بفكرته السليمة فسادها ومنافاتها لدين الحق، فانتشل نفسه من تلك الوهدة، وبقي يرقب فجر الهدى حتى إنبلج فجر نوره بظهور الحركة الإصلاحية على يد جمعية العلماء، فكان الرجوع إلى مبادئها خاتمة المطاف لنفسه التواقة إلى الحق.

• • •

كان يوم دفنه يوما مشهودا، فقد مشى في جنازته زملاؤه النواب من ملسمين وأوروبيين ونائبا شيخ المدينة ونائب عامل عمالة وهران بتلمسان وكثيرون من موظفي المجلس البلدي، وغمر هؤلاء الرسميين بحر لجي من طبقات الأمة يتقدمهم أعضاء الجمعية الدينية التي كان عضوا فيها، وشعبة جمعية العلماء التي كان رئيسا لها، والجميع واجمون مطرقون كأن على رؤوسهم الطير، تأدبا بآداب السنة المطهرة.

فبهذه المناسبة نعلن البشرى لإخواننا المصلحين بأن إقامة الجنائز على منهاج السنّة الشريفة توطدت بتلمسان، وغلبت على بدع الطرقية، وإنتصرت إنتصارا، حاسما بعد صراع عنيف وثبات من المصلحين مجيد.

ولما وصلت تلك الجموع إلى مصلّى المقبرة إصطفت وتقدم للصلاة عليه محمد البشير الإبراهيمي، وبعد الصلاة تحلقت أفواج الخلائق وهو قائم على الجثمان لم يبرح مكانه، فتقدم الأستاذ عبد السلام طالب النائب المالي والعمالي وتلا خطبة مختصرة بالعربية، وتقدم بعده نائب شيخ المدينة فارتجل خطابا مؤثرا بالفرنسية باسم مدينة تلمسان.

ولم يسبق للإبراهيمي أن خطب على جنازة منذ دخل تلمسان لعدم تأتي المناسبة، وكان في هذا المشهد بادي التأثر، دامع العين، خاشع الطرف، حزين الملامح، فدفعه ذلك التأثر بالمشهد المحزن، بعد أن رمقته العيون من كل جانب، إلى ارتجال خطبة أسالت المدامع وأثارت كوامن الأسى، وحرّكت في أنفس الشيوخ عروق الخشية والخوف من اللّه، وحفزت نفوس الكهول إلى التسابق في الصالحات وحسن التأسّي بالعاملين، وعرّفهم معنى كرامة النفس وشرفها في سيرة الراحل الكريم، وجلّت لنفوس الشبان عبر الحياة وطرائقها في سير من سبقهم.

ولقد -والله- وجلت نفوس وخفقت أفئدة وإهتزت من ذلك الخطاب حتى من الذين كان تعوقهم عوائق وتصدّهم رؤوس الضلال عن سماع كلام الإبراهيمي في دروسه ومحاضراته.

رحم الله الراحل المودّع وعزّى فيه جميع إخوانه المصلحين الأحرار.

تعزية الإبراهيمي في فقدان السيد الرشيد بطحوش(*)

جاءنا من الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي هذا الكتاب:

لم يبلغني إلا اليوم خبر وفاة الأخ العامل الخير السيد رشيد بطحوش، ولا تسأل عما غمرني من الهم والأسى والأسف لموت هذا الأخ، وعما إستعرضته من شمائله ولطفه وأعماله الخيرية التي فاتت بفواته وماتت بموته، رحمه اللّه وألهمنا جميعا فيه الصبر وإغتنام الأجر.

أعزّيكم –أيها الأخ– فيه وأرجو أن تبلّغوا تعزيتي الى إخوانه وجميع المرزوئين فيه، ولجميعكم طول البقاء.

دمتم أيها الأخ سالمين لأخيكم

محمد البشير الإبراهيمي

(*) جريدة «الإصلاح»، العدد 17، 28 جانفي 1940.

السيد محمد خطّاب الفرقاني(*)

هذا الرجل من أبناء الجزائر الذين رفعوا رأس الجزائر، ومن أبناء هذا الشمال الذين أوسعوه برّا وتكرمة وجعلوا من مالهم ومواهبهم وسائل لغرس الأخوة بين أبنائه، ولم يعيشوا لأنفسهم بل عاشوا لإخوانهم وأوطانهم وما أقل هذا الصنف من الرجال فينا ويا للأسف!

ولد السيد محمد خطاب في جبال (الميلية) الشماء، ونشأ بين صخورها الصماء، وفتح عينيه على آثار من الشمم والهمم والعزة والكرم، وعلى عصامية في الحياة آمتاز بها أبناء الجبال، فكان لذلك كله في حياته وتكوينه أثر غير قليل، وفتح عينيه، كذلك على آثار الإستعمار في أرض أجداده وفي نفوس قومه، فكان لذلك في عقله وفكره أثر غير قليل ، ثم هاجر إلى المغرب سنة أربع وعشرين ميلادية بعد هجرة أخيه الأديب الكاتب الأستاذ رابح الفرقاني المترجم الحر بفاس، واتخذ الأخوان من المغرب وطنا لهما وكونا يكرم أخلاقهما ولطف شمائلهما مكانة ممتازة بين أهله.

والسيد محمد خطاب عصامي النفس عربي النزعة لا يسير في الحياة إلا على وحي الفطرة وهداية الأستعداد ومسايرة القومية، لذلك اختار الفلاحة حرفة فنجح فيها وبارك اللّه في أعماله، فتأثل منها ثروة عريضة رأى من شكر اللّه عليها أن يفئ بجزء منها على المشاريع العلمية النافعة لوطنه الكبير، وللسيد محمد خطاب في مبراته العلمية ومكارمه رأي هو فيه نسيج وحده،

(*) «البصائر» العدد 4، السنة الأولى من السلسلة الثانية، 29 أوت 1947م (بدون امضاء).

فهو يرى تمام المكرمة وكمالها أن تكون على يد جمعية العلماء، وله في جمعية العلماء إعتقاد مصمم وله بها صلة وثيقة الأسباب تمتد أوائلها إلى أوائل الحركة التعليمية بقسنطينة، وله ولأخيه الأديب علائق متينة مرعية بإمام النهضة المرحوم عبد الحميد ابن باديس

وكان لهما في حياته إشتراك مالي سنوي مقرر في كل مشاريع جمعية العلماء من جرائدها إلى صندوق الطلبة الى مدرسة التربية والتعليم.

وفي السنة الماضية قرر السيد محمد خطاب مبرتين ماليتين يدفعهما مسانهة على يد جمعية العلماء: أولاهما تصرف في ترقية التعليم بمدارس الجمعية وقدرها نصف مليون فرنك، وقد أدخلت الجمعية هذا المبلغ في العام الماضي في شراء المركز بإذن من صاحب المبرة، والثانية تصرفها الجمعية باجتهادها في مصلحة الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة وقدرها مائة ألف فرنك وقد اكترت بها جمعية العلماء في العام الماضي مركزا لجمعية الطلبة.

وللسيد محمد خطاب مبرة ثالثة خاصة بمسقط رأسه (الميلية) وهي مدرسة خطاب إحدى المدارس التي تديرها جمعية العلماء، بناها بماله منذ سنوات ورأى الآن أنها لا تكفي أبناء القرية، ففوض إلى جمعية العلماء أن تتولى توسيعها أو تجديدها من ماله الخاص بالعة ما بلغت النفقات.

زار السيد محمد خطاب الجزائر في أوائل رمضان الماضي لتفقد إخوانه وأصدقائه ومشاريعه المالية الكثيرة لأنه في السنوات الأخيرة جاوز أفق الفلاحة إلى الصناعة والتجارة، فشارك في عدة شركات وطنية بماله وبإرشاده وبرأيه، وزار مركز جمعية العلماء وإدارة البصائر. وذاكر رئيس الجمعية في عدة مشارع علمية وفي حال الطلبة الجزائريين الذين يطلبون

العلم بالقرويين وما يجب لهم من عناية ورعاية، ووصل على يده جماعة من فقراء أهل العلم بإعانات وصدقات مستورة، وتبرع على جريدة « البصائر» بمبلغ خمسين ألف فرنك.

إننا كما نعدّ أخانا السيد محمد خطاب عصاميا مجددا في أعماله آخذا، بالنظام الدقيق في مشاريعه، محافظا في إيمانه ووطنيته، نعده أيضا حجة قائمة على أمثاله من إبناء الوطن الذين تأثلوا الثروات فيه أو في خارجه، فلم ينفعوا وطنهم بشيء يرفع الذكر ويجلب الفخر ويعظم الأجر، ولو أنهم كانوا مثل هذا الرجل أو قريبا منه لم يبق في الوطن ولد بلا تعليم ولا فقير بلا قوت،، ولا مريض بلا دواء، فإذا قلنا لهذا الرجل: كثر اللّه من أمثالك، فلسنا ندعو له وإنما ندعو للوطن.

إن جريدة «البصائر» لا تمدح أحدا إلا حيث يكون المدح دعاية إلى حسن التأسي والاقتداء ولا تثني إلا على عمل يتصل بمبدئها الديني التعليمي أو يؤيده، ولا تطري إلا المناقب المذكرة بأمجاد الأوائل، المحيية لمكارمهم وآثارهم في سبيل العلم والخير العام، وأخونا السيد محمد خطاب يجمع ذلك كله.

ذكرى الأمير شكيب أرسلان(*)

الأستاذ محمد علي الطاهر، أخ نعتزّ بأخوّته ومجاهد نعترف بجهاده وصدق بلائه، لا في سبيل فلسطين المظلومة فقط- التي عرف بها وعرفت به ووقف قلمه ولسانه ومواهبه على نصرها في محنتها من يوم طرقها البلاء إلى الآن، بل في قضية العروبة أينما وجد أبناؤها، وجريدته الشورى كانت آية الجهاد، وميدان فوارس الطراد، وقد كان من عجيب صنع اللّه في تجلية إخلاص المخلصين، أن ينال الجريدة المجاهدة في فلسطين، ما نال فلسطين من القلم والحيف، وإن كان ظلم القريب أنكى علي الحر من ظلم الغريب.

وصلتنا من ذلك الأخ المجاهد رسالة تطفح سرورا بالبصائر وعودتها إلى الظهور، وبما سنى اللّه لرجال جمعية العلماء من السلامة من الأيدي الظالمة وللجمعية من السير والتقدم في الظروف المظلمة، وتفيض أسى لما يعانيه مغربنا العربي من ويلات الاستعمار، وكل ما في الرسالة يدلّ على أن قلب الأخ الأستاذ معلّق بهذا الشمال. وما زال الشمال مستقرّ القلوب.

وأرسل لنا الأستاذ الطاهر مع الرسالة نسختين من كتابه (ذكرى الأمير شكيب أرسلان) هدية، خصّص إحدى النسختين بنا والأخرى أمانة أبلغناها إلى مأمنها، والكتاب جزء حافل جمع فيه الأستاذ دموع الباكين على صديقه وأستاذه في الجهاد الأمير شكيب أرسلان، وحسرات المتفجعين على مصاب العروبة والإسلام لفقده، وما أكثر الباكين على الأمير شكيب وما أكثر

(*) «البصائر»، العدد 13. السنة الأولى من السلسلة الثانية، 10 نوفمبر 1947م. (بدون إمضاء).

المتحسرين. وإننا نعتقد أن ماجمعه الأستاذ الطاهر من المراثي والتحليلات هو ما وصلت إليه يده مما نشر في الصحف، وإن مالم يصل إليه من ذلك شيء كثير.

قرأنا الكتاب فلم نعجب لوفاء الرجل لصديقه ورفيقه أكثر مما عجبنا لصبره على جمع هذه الأشتات، في وقت تقطعت فيه الصلات وتباعدت الأقطار. وهمته في إخراجه في هذه الظروف العابسة الشحيحة، لم نعجب لوفاء الرجل لصديقه لأن العلاقة بينهما في الحياة كانت وثيقة العرى لم يتخلّلها فتور، وكانت مساندة في الجهاد تسمو عن الأغراض والأهواء. وعلاقة هذا شأنها في الحياة لايزيدها الموت إلا متانة واستمساكا، خصوصا إذا كان لها من صفاء الجوهر النفسي ظهير، وإن حظ الأستاذ الطاهر من ذلك الصفاء لكبير.

نشكر للأستاذ هديته ونرجو أن تسامحه الأيام في كتابة تاريخ الأمير بقلمه، وتحقّق وعده لأبناء العروبة بقضاء ديْن في أعناقهم لأميرهم، ومثله من يضطلع بذلك.

مبارك الميلي (*)

حياة كلها جدّ وعمل، وحي كله فكر وعلم، وعمر كله درس وتحصيل، وشباب كله تلقّ واستفادة، وكهولة كلها إنتاج وإفادة،ونفس كلها ضمير وواجب،وروح كلها ذكاء وعقل، وعقل كله رأي وبصيرة، وبصيرة كلها نور وإشراف، ومجموعة خلال سديدة، وأعمال مفيدة. قلّ أن اجتمعت في رجل من رجال النهضات، فإذا اجتمعت هيّأت لصاحبها مكانه من قيادة الجيل، ومهّدت له مقعده من زعامة النهضة.

ذلكم مبارك الميلي الذي فقدته الجزائر من ثلاث سنين ففقدت بفقده مؤرخها الحريص على تجلية تاريخها المغمور، وإنارة جوانبه المظلمة، ووصل عراه المنفصمة،وفقدته المحافل الإصلاحية ففقدت منه عالما بالسلفية الحقة عاملا بها، صحيح الإدراك لفقه الكتاب والسنّة واسع الاطلاع على النصوص والفهوم، دقيق الفهم لها والتمييز بينها والتطبيق لكلياتها، وفقدته دواوين الكتابة ففقدت كتابا فحل الأسلوب جزل العبارة لبقا بتوزيع الألفاظ على المعاني، طبقة ممتازة في دقة التصوير الإحاطة بالأطراف وضبط الموضوع والملك لعنانه، وفقدته مجالس النظر والرأي ففقدت مدرهًا لا يبارى في سوق الحجة وحضور البديهة وسداد الرمية والصلابة في الحق والوقوف عند حدوده، وفقدته جمعيةالعلماء ففقدت ركنا باذخا من أركانها لا كلاً ولا وكلاً، بل

(*) «البصائر» العدد26، السنة الأولى من السلسلةالثانية، 8 مارس 1948م.

نهاضا بالعبء مضطلعا بما حمل من واجب، لا تؤتى الجمعية من الثغر الذي تكل إليه سده ولا تخشى الخصم الذي تسند إليه مراسه، وفقدت بفقده علما كانت تستضيء برأيه في المشكلات فلا يرى الرأي في معضلة إلا جاء مثل فلق الصبح.

تشوب هذه الذكريات التي نقيمها لرجالنا في هذا العهد شائبة نقص، إلا تحسب علينا في باب فساد الذوق تعد من سوء الصنيع، وهي أن المتكلمين فيها والكاتبين يقيمون منها مناحة مأتم، فينفجعون للمصيبة، ويبكون على الفقيد ولو غبرت عليه السنون، ويثيرون أشجان السامعين بتهويل المصيبة فيه، وتجد الشعريات سبيلا إلى ألسنتهم وأقلامهم ومنفذا إلى نفوسهم وعواطفهم فتفسد على الحكمة أمرها، وكل فجيعة لم يمسحها السلو، تحكم فيها الغلو، لأن السلو يفرغ المجال للاتعاظ والتأمل، والغلو يفتح الباب للانتحال والتعمل.

ولا أكذّب الواقع فأنا أجد في نفسي هذا الميل، كلما قمت متكلما في حفل من هذه الذكريات، وأجدني في حالة من التأثر أتمثل فيها الفجيعة حاضرة فأقول في البكاء والاستبكاء أكثر مما أقول في التأسي والإعتبار، وإني أتخيّل أن منشأ ذلك في نفسي حالة واقعية وهي الفراغ الذي يتركه في الصفوف كل راحل من رجالنا وأن كل من خلا موضعه في الميدان منهم عزّ عنه العوض، ولو كنا من قوم القائل: «إذا مات منا سيد قام سيد» لكانت حالتنا النفسية غير ماهي.

والجانب المفيد في هذه الذكريات أن تكون درسا لخصائص الرجال، وتجلية لمناشئ ذلك فيهم، ووضعا للأيدي على الذخائر الخلقية المودعة في نفوسهم الكبيرة وإعلانا للميزات العالية التي كانوا بها

رجالا، وإذاعة لما يجهله الناس أو يغلطون فيه من موازين الرجولة أو يبخسونه من قيمها، كل ذلك بتصوير يبيّن موقع التأسي ويسوق إليه ويحمل عليه.

وجوانب العظمة في حياة أخينا مبارك كثيرة، ومآخذ العظات والأسى من تلك الحياة أكثر، ولعلّ الكاتبين لسيرته والدارسين لحياته اليوم أو غدا يستوفون البحث في نواحي تلك العظمة ويستخرجون تلك العظات يدلون بها قوافل شبابنا المغذة في صحراء الحياة على خضرائها، وينصبون منها أعلاما هادية للضُلاّل، ومنارات مرشدة للآتي من الأجيال، وأنا سائق لناشئتنا العلمية من حياة هذا الرجل عظة واحدة وقائل فيها ما تحتمله كلمة قصيرة في صحيفة صغيرة، تلك العظة هي طريقته في تحصيل العلم ووسيلته إلى تلك الدرجة التي وصل إليها في إتقان التحصيل وسعة الاطلاع وانفساح الذرع وإحسان الاستثمار.

فالرجل تلقّى التعليم البدائي في «ميلة» والمتوسط في قسنطينة والنهائي في الزيتونة، وليس في هذه المراحل ما يفوق به القرين أقرانه، فكثير من المحصلين بيننا سلكوا هذا السبيل: البداية في الوطن، والنهاية في الزيتونة، وقليل من يبعد النجعة إلى الأزهر، هذا هوالشأن، إن أبعدنا فمنذ خراب أمصار العلم كتلمسان وبجاية، وإن قربنا فمن رحلة أسرة الشيخ المختار الشوثري العياضي إلى هجرة قريبنا الشيخ سعد قطوش السطيفي في العقد الثالث من هذا القرن الهجري.

شارك مبارك أقرانه وشاركه السابقون له في الطلب واللاحقون في كل شيء، شاركهم في البداية والنهاية وفيما بينهما، وشاركهم في الأساتذة والكتب والمدّة والشروط، ولم ينفرد دونهم بذكاء مفرط خارق للمعتاد

المألوف، وإن كان حظه من الذكاء موفورا ولا بقريحة شفافه تنكشف لها المحجبات ويعد فيها واحد الآحاد، وإن كان نصيبه من إستنارة القريحة نصيبا مذكورا، ولا بحافظة واعية تصطاد كل ما تسمع، كما يؤثر عن حفاظ اللغة والحديث والشعر والأنساب، وإن كانت حافظته فوق المستوى العادي، فما الذي بلغ به ما بلغ من الشفوف على أقرانه في كثير مما لا يسمّى العالم عالماً إلا به؟

إن الذي بلغ به تلك المكانة من العلم أربعة أشياء ما إجتمعت في طالب علم إلا رفعته بالعلم إلى تلك المنزلة: إستعداد قوي، وهمّة بعيدة، ونفس كبيرة، وانقطاع عن الشواغل الفكرية والجسمية يصل إلى حدّ التبتل. وهذه الأخيرة- لعمري- هي بيت القصيد.

يشهد كل من عرف مباركا وذاكره أو ناظره أو سأله في شيء مما يتذاكر فيه الناس أو يتناظرون أو يسأل فيه جاهله عالمه، أو جاذبه الحديث في أحوال الأمم ووقائع التاريخ وعوارض الاجتماع أنه يخاطب منه عالما أي عالم، وأنه يناظر منه فحل عراك وجدل حكاك، وأنه يساجل منه بحرا لاتخاض لجّته وحبرا لا تدحض حجّته، وأنه يرجع منه إلى عقل متين ورأي رصين ودليل لا يضلّ ومنطق لا يختل، وقريحة خصبة وذهن صيود وطبع مشبوب وألمعية كشافة، هكذا عرفنا مباركا وبهذا شهدنا، وهكذا عرفه من يوثق بمعرفتهم ويرتاح إلى إنصافهم ويطمأن إلى شهادتهم ، لا نختلف في هذا وإنما نختلف في مردّ ذلك إلى أسبابه وأبوابه،فيقول الخليون الفارغون: «إنها مواهب وحظوظ» ويقول المسدّدون المقاربون: «إنه إستعداد أعانه الدرس وقوته القراءة» ويقول المعللون الباحثون – ونحن منهم-:« إن كل ما شهدناه في أخينا مبارك وشهدنا به هو نتيجة لأسباب مترتبة في نفسها وفي نفسه وهي

إستعداده للعلم وإيمانه به وإعتقاده لشرفه ومنزلته واجتهاده في تلقّيه وإنقطاعه لتحصيله وإخلاصه في طلبه وحبس الدقائق والأنفاس عليه وحده حتى ما يضاره بشاغل ولا يزاحمه بعائق ثم صرف الهمة كلها إلى الإستزادة منه بالمطالعة والقراءة.

هذه هي الأسباب التي كوّنت لنا من مبارك الميلي عالما مستكمل الأدوات يملأ معناه لفظه، وهي أسباب- كما نرى- كسبية يستطيع كل طالب للعلم أن يقلّل منها فيقل أو يكثر منها فيعظم ويجل. وإنما يتفاوتون بالطبيعة في شيئين: الاستعداد وبُعد الهمّة، وإن الثاني منهما أصل لجميع ما ذكرنا. وكأين من طالب قوي الإستعداد ميّسر الأسباب ولكنه بارد الهمّة ضعيف الإرادة فلا يعود عليه إستعداده بغناء.

ليس في هذه الأجيال التي أظلّها زمننا إلا عصابة معدودة اتفق لها ما اتفق لأخينا مبارك من أسباب النبوغ في العلم والتمكن من التحصيل، وإن لم يتفق لجميعهم ما أتفق له من الشهرة وذيوع الإسم لأن للشهرة أسبابا أخرى منها العمل والإفادة والإنتاج والتضحية والصدوف عن قيود الوظائف والانغماس في المجتمع لخدمته ونفعه. ونحن نعرف هذه العصابة العصامية ونعرف مبلغها من العلم وحظها من العمل ومنهم المقصر فيه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق وبها تقيم الحجّة على شبابنا الذي نعدّه للميراث والإستخلاف، والذي فتنته الفتن وألهته الملهيات عن التحصيل للعلم، وبهم نضرب الأمثال ليذكر الغافل وينشط الخامل وإن في سير الكاملين لذكرى للمقصّرين والخاملين.

الأستاذ محمد بن العربي العلوي(*)

تاريخ الرجال علم برع فيه مؤرخو الإسلام، وتفننوا في تقسيمه وتفريعه، ولا نظن أن أمّة من أمم العلم والحضارة كتبت جزءا يسيرا مما كتب علماء الإسلام في تاريخ رجاله وطبقاتهم ، وقد خمدت تلك الشعلة من عهد السخاوي والسيوطي وأضرابهما في الشرق ومن عهد أقرب منه وهو عهد إبن القاضي في المغرب، ومرّت هذه القرون ورجالها أغفالا لم توسم بتعريف، ولعل هذه النهضة تحيي، فيما أحيت من الرسوم الدائرة، هذا النوع الجليل من تاريخ الرجال.

والأستاذ الأكبر الشيخ محمد العربي العلوي، إمام سلفي وعالم مستقل وإجتماعي جامع وهو في نظرنا، أحق برتبة الإمامة من كثير ممن خلع عليهم المؤرخون هذا اللقب، ونحن في أخص الصفات التي تربطنا به،وهي السلفية والإصلاح تجاوز درجة الإعجاب به إلى الفخر والتعاظم.

وهذه مقالة للأستاذ علال تكشف عن بعض نواحي عظمة هذا الإمام، ولعل الأقدار تقيض من يكتب له ترجمة تكشف عن مواقع الأسوة بذلك

(*) مقدمة مقال نشر بالجريدة للأستاذ علال الفاسي عنوانه «علم من أعلام النهضة الإسلامية»، «البصائر»، العدد 30، السنة الأولى من السلسلة الثانية، 5 أفريل 1948م.(بدون إمضاء).

الرجل خصوصا في سلفيته وجراءته في تلك السلفية، وهي نقطة التلاقي الحقيقية بينه وبين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ولو أن هذه النهضة وصلت في أطوارها إلى كتابة معلمة لرجالها لكان من تمامها أن لا يكتب ترجمة إبن العربي إلا علال.

وهذه مقالته نقلا عن جريدة «الإخوان المسلمون».

شكوى العاصمي (*)

إلاَهِي يا مستجيب الدعا — ويا جالب اليسر للمعسر
تفضل على عبدك العاصمي — وعرضه للعارض المتمطر
بمال لو كان أجر الخنا — وربح المطفف والمخسر
فما العسر إلا ريب الحلال — وما اليسر إلا من الميسر
فإنك يا خالقي عالم — بأني على مذهب الأشعري
أرى الرزق ما ينفع المقترين — وإن سرقوا المال في المشعر

• • •

ولي حاجة من بنات الفؤاد — سقتها الأماني ولم تثمر
ركبت إلى نيلها عزمتي — ولي عزمة كاللظى المسعر
وجمجمت عنها ولم أبدها — وما السرّ إلا سلاح السري
تقحمتُ فيها الصعاب التي — يضيق بها الواغل المجتري
رقيت لأسبابها سلما — وجئت برذل ومستنكر
وحالفت فيها الدّنايا التي — إذا ذكر الخير لم تذكر
وأرغمت يوما لحمل القفاف — فما كنت عنها بمستكبر
وما زلت في نيلها دائبا — إذا أقصر الناس لم أقصر
لزمت الصيام وواصلته — وصليت وحدي وفي معشري
رضيت الإمامة في جامع — أراه من الضيق كالمحجر
لأبلغ منه إلى جامع — من الرحب كالجامع الأكبر

(*) مسودة وُجدت في أوراق الإمام.

وعدت إلى الحظ أبغي رضاه ومن يركب الحظ لم يعثـــر

بذلـت لتحصيلهـا كل شـيء سوى المال - إني منه عـري

وما أنا (في الجمع) كالمصطفى[1] وما أنا في(في الطرح) كالأزهري[2]

ألا هل يراني الرفاق الكـرام أقـوم وأقعـى على المنبـر

وأحمل تلك العصا صولجانا وحمّل العصا شيمة المنبري

أصـول على متنـه داعيـا وأزأر في القـوم كالقسـور

وأهجـم عنهـم بوعظي ولا أميـز به جانيًـا من بـري

لئـلا يقـال أمـرؤ جاهـل بوضع الحـوادث والأعصـر

وتُخـرج حنجـرتي نغمـة كمجري الخفيف على البنصر

أباهـي الأئمـة في زيّهـم بشد النطـاق على المئـزر

وأنضـو لثامًـا على لحيتـي من الصبغ: زورا على منكـر

فإن المشيـب بريـد الوقـار لمن كان يعتـد بالمظهـر

وأسمو عليهم بفـرط الذكـا وطيب الأرومـة والعنصـر

وأعبـر دونهـم بالدهـا حدودا من الجـاه لم تعبـر

وعندي أسالب من ذا الدهـا إذا نـزر الحـظ لم تنـزر

وأسبر من مدهشات الأمـور شؤونا على الدهـر لم تسبـر

وأخبـر عنهـم بأسرارهـم وما حالف السعد كالمخبـر

هنالك أغـدو رئيسـا لهـم بغير انتخـاب ولا محضـر

ويصبح أمري على جمعهـم كأمر العريف على العسكـر

فيـا منية نبتت في الحشـا بربّـك طولي ولا تقصـري

---

(1) هو الشيخ مصطفى القاسمي.

(2) هو الشيخ المولود الحافظي الأزهري.

فإن الزمـان بنيـل المنى | على رغـم شانئنـا الأبتـر
تكفـل إلا هي بتحقيقهـا | فإنك إن تعطهـا أشكـر

• • •

وقل لابن باديس كـن آمنـا | بعشّـك في الجامع الأخضـر
قنعت بما حُزْتَـه من علـوم | وطيب الأحاديـث كالعنبـر
وأضنيـت نفسـك في أمّـة | وعن وطـن كالفـلا مقفـر
ولـم تدر أن الهنا والوظيـف | مع الجهـل أحلى من السكـر
وأن الخضـوع لمُسْتَعْمِـرٍ | به الدار إنْ تنهـدم تعمـر
ذوو الحقّ في الدين حكامنـا | فما لك عن حقّهـم تجتـري
أطعت البشيـر[1] وأعوانـه | فخلّوك أعـرى من الخنصـر
ذوو الحق في الدين حكامنـا | فما لك عن حقهـم تجتـري
ولم أنس لي ليلـة بالقصيـر | وطالـع سعدي في المشتـري
أكلـت بها حـزّة من جزور، | نمـت على جانبي الأيسـر
إذا هاتف في غضون الدّجـى | كسرّ بطيّ الحشـا مضمـر
يقطل: أيا عاص[2] كن أسودا | وكن أصفـراً شيب بالأحمـر
فأولـت ترخيمـه في النّـدا | بصوتي رخيما على المعشـر
وأوّلتهـا رفعـة في المقـام | أسود بها الحاسـد المفتـري
وأوّلتهـا خطّـة أرتقـي | بهـا من كبيـر إلى أكبـر
تراقـص حولي طيوف المنى | فهن لي بصبـح بها مسفـر؟
أمالك رقّي تلطّـف بهـا | فعبدك -إن لم ينلهـا- خـري

---

(1) هو الإمام الإبراهيمي نفسه.

(2) ترخيم لاسم «العاصمي».

وهذي المجالس ما شأنها   تعضّ بـواع ومستظهـر
ألـم تـر من حيلتـي أنّنـي   بهذي المجالـس لـم أحضُـر
مخافة أن يغضب المستشـار   فيمحـو وعـدي من الدّفتـر
ويمنـاي ما نشطـت مـرّة   لتنميـق سطـر ولا أسطـر
يسيـل لعابـي إذا نشـروا   أسامـي تلمـع كالجوهـر
ولقّـب ذا بأميـر البيـان   وهـذاك بالكاتـب العبقري
وما كنت دون أمرئٍ منهمـا   ولكـن أدور على محـور
وأخشى الرُّقيب وتضريبـه   على أسمي بالمرقـم الأحمـر
فما عاش من لم يكن مدهنـا   ومن لم يصانـع ولم يحـذر
وأهوى الشهـاب وتزعجنـي   شهـاب بإحراقـه ينبـري
وإنّ العـدا نحلوني الغـداة   سطـورا ببالي لـم تخطـر
فوافت مع الصّبح مهتاجـة   جـلاوذة كالدّبـى ينبـري
فهـذا يصـبّ وهـذا يشـب   وهـذا يشـاوس عن أخـزر
وهـذا يساقي وهـذا يـلاقي   بوجـه على الملتقـي أمعـر
فما زلـت معتـذرا حالفـا   لمن لم يقـدر ولـم يعـذر
حلفت لئـن رأيـت عنوانـه   سجّرت به النّـار في المجمـر
جزاء لمـا سـاق لي من أذى   وما جـرّ من تهمـة للبـري

عبد الحي الكتاني
ماهو؟ وما شأنه؟(*)

في لغة العرب لطائف عميقة الأثر، وإن كانت قريبة في النظر، ومنها التسمية بالمصدر والوصف به، يذهبون بذلك الى فجّ من المبالغة سحيق، تقف فيه الأذهان حسرى، ويغالط به الحسّ فيتخيل ذوبان الموصوف وبقاءالصفة قائمة بذاتها، كأن الموصوف لكثرة ما ألحّت عليه الصفة وغلبت أصبح هو هي أو هو إياها، وعند الخنساء الخبر اليقين حين تقول: «فإنما هي إقبال وإدبار».

وعلى هذا يقال في جواب ماهو عبد الحي؟ هو مكيدة مدبّرة، وفتنة محضرة، ولو قال قائل في وصفه:

شعوذة تخطر في حجلين وفتنة تمشي على رجلين

لأراح البيان والتحليل، كما يقول شوقي، ولعفّى على أصحاب التراجم، من أعاريب وأعاجم، ولأتى بالإعجاز، في باب الإيجاز، إذ أتى بترجمة تحمل ببرقيّة، إلى الأقطار الغربية والشرقية، فيعمّ العلم، وتنتشر الإفادة، وتذيع الشهرة... ولو أن الرجل وصف نفسه وأنصف الحقيقة في وصفها لما زاد على هذا البيت، ولو شاء «تخريج الدلالات السمعية»[1] على ذلك لما أعجزه ولا أعوزه، ولكن أين من عبد الحي ذلك الإنصاف الذي لم يخل منه إلا شيخ الجماعة الذي حادّ اللّه وقال: (**ولآمرنّهم فليغيّرن خلق اللّه**).

(*) نشرت في العدد 33 من جريدة «البصائر»، 26 أفريل سنة 1948.

(1) تخريج الدلالات السمعية: كتاب في أصول الوظائف الشرعية للخزاعي، اختلس الكتاني نسخة خطية منه من مكتبة عمومية بتونس، ولما ألحّوا عليه في إرجاعها وهدّدوه بتدخل الحكومة، سلخ الكتاب ونسخه في كتاب نسبه إلى نفسه وسمّاه التراتيب الإدارية.

وإذا أنصفنا الرجل قلنا: إنه مجموعة من العناصر منها العلم ومنها الظلم، ومنها الحق ومنها الباطل، وأكثرها الشرّ والفساد في الأرض- أطلق عليها لكثرتها وإجتماعها في ظرف هذا الإسم المركّب الذي لا يلتقي مع الكثير منها في إشتقاق ولا دلالة وضعية، كما تطلق أسماء الأجناس المرتجلة، وكما يطلق علماء الكيمياء على مركّباتهم أسماء لا يلمحون فيها أصلاً من أصولها، ومن الأسماء ما يوضع على الفال والتخيّل، فيطيش الفال، وتكذب المخيلة، ومنها ما يوضع على التوسع والتحيّل، فيضيق المجال، وتضيع الحيلة، وإن اسم صاحبنا لم يصدق فيه إلا جزءه الأول، فهو عبد لعدة أشياء جاءت بها الآثار وجرت على ألسنة الناس، ولكن أملكها به الاستعمار، أما جزءه الثاني فليس هو من أسماء اللّه الحسنى، ولا يخطر هذا ببال مؤمن يعرف الرجل، ويعرف صفات عباد الرحمان، المذكورة في خواتيم سورة الفرقان، وإنما هو بمعنى القبيلة، كما يقال كاهن الحي وعرّاف الحي وعير الحي، وقبّح اللّه الاشتراك اللفظي، فلو علم العرب أنه يأتي بمثل هذا الالتباس لطهروا منه لغتهم، وتحاموه فيما تحاموا من المستهجنات، ولو أدرك نفاة الاشتراك في الاستعمالات الشرعية زمن عبد الحي، أو أدرك هو زمنهم وعرفوه كما عرفناه لكان من أقوى أدلّتهم على نفيه، ولا رتفع الخلاف في المسألة وسجّل التاريخ منقبة واحدة لعبد الحيّ، وهي أن اسمه كان سببا في رفع خلاف...

وإذا كانت أعمال الشخص أو آثار الشخص، هي التي توضع في ميزان الاعتبار وهي التي تناط بها الأحكام فهذا من ذاك ولا عتب علينا ولا ملام.

وكأن صاحبنا شعر ببعض هذا - ومثله من يشعر فموّه اسمه ببضع كنى، ولكنه لم يجر فيها على طريقة العرب في تكنية أنفسهم، بل كنى نفسه بأبي

الإقبال، وأبي الإسعاد، وما أشبه ذلك مما هو غالب في كنى العبيد، تفاؤلا وتروّحًا، وقد رأينا بعض من كتب لبعد الحي، أو كتب عليه يكنيه بأبي السعادات، وهو لا يعني سعادات إبن الشجري، ولا سعادات إبن الجزري، وإنما يعني سعادات ثلاثا لكل واحدة منهم أثرٌ في تكوينه أو في شهرته: جريدة « السعادة » لأنها تطريه، وقرية بو «سعادة» لأنها تؤويه، ونسخة أو جزءا من البخاري بخط ابن «سعادة» لأن الخزانة الجليلة تحويه، والرجل مفتون بهذا النوع من الكنى، لنفسه ولغيره، يغرب فيها ويبدع حتى كنى الشيخ النبهاني بأبي الحجاز.

هذا وإن لصاحبنا أولادا صالحين يشرّفه أن يكتنى بأحدهم، فلماذا لم يفعل؟

من سنن العرب أنهم يجعلون الاسم سمة للطفولة، والكنية عنوانا على الرجولة، لذلك كانوا لايكتنون الا بنتاج الأصلاب وثمرات الأرحام من بنين وبنات، لأنها الإمتداد الطبيعي لتاريخ الحياة بهم، ولا يرضون بهذه الكنى، والألقاب الرخوة إلا لعبيدهم وما راجت هذه الكنى والألقاب المهلهلة بين المسلمين إلا يوم تراخت العرى الشادّة لمجتمعهم، فراج فيهم التخنّث في الشمائل، والتأنّث في الطباع، والارتخاء في العزائم، والنفاق في الدين، ويوم نسي المسلمون أنفهسم فأضاعوا الأعمال التي يتمجّد بها الرجال، وأخذوا بالسفاسف التي يتلهى بها الأطفال، وفاتتهم العظمة الحقيقية فالتمسوها في الأسماء والكنى والألقاب، ولقد كان العرب صخورا وجنادل يوم كان من أسمائهم صخر وجندلة، وكانوا غصصا وسموما يوم كان فيهم مرّة وحنظلة، وكانوا أشواكا وأحساكا يمو كان فيهم قتادة وعوسجة، فانظر ما هم اليوم، وأنظر أيّ أثر تتركه الأسماء في المسمّيات، وأعتبر ذلك في كلمة (سيدي) وأنها ما راجت بيننا وشاعت فينا إلا يوم أضعنا السيادة، وأفلتت من أيدينا

القيادة، ولماذا لم تشع في المسلمين يوم كانوا سادة الدنيا على الحقيقة، ولو قالها قائل لعمر لهاجت شرّته وليادرت بالجواب درّته.

كني المعرّي وهو صغير بأبي العلاء، ولو تروّج كالناس وولد له لسمى أكبر أولاده العلاء، وهو اسم عربي فخم تعرف منه كتب السير أمثال العلاء بن الحضرمي، ولكن المعرّي لمّا عقل وأدرك سخافة القصد من كنيته قال هازئًا: «كُنّيت وأنا وليد بالعلاء فكأن علاءً مات، وبقيت العلامات»، وأين إسعاد عبد الحي من علاء المعري؟

• • •

عرف الناس وعرفنا عرفان اليقين وعلمنا حتى ما نسائل عالما، أن هذا الرجل مازال منذ كان الإستعمار في المغرب، لاكانا- آلة صمّاء في يده، يديره كما شاء، ويريده على ماشاء، يُحرّكه للفتنة فيتحرّك، ويدعوه إلى تفريق الصفوف فيستجيب، ويندبُه إلى التضريب، والتخريب، فيجده أطوع من بنانه، ويريد منه أن يكون حمّى تنهك، فيكون طاعونا يهلك، وأن يكون له لسانا، فيكون لسانا وأذنا وعينا ويدا، ورجلا ومقراضا للقطع، وفأسا للقلع، ومعولاً للصدع، وما يشاء الإستعمار إخماد حركة، إلا كانت على يديه البركة، ومايشاء التشغيب على العاملين للصلاح، والمطالبين بالإصلاح، إلا رماهم منه بالداهية النكراء والصيلم الصلعاء، وما يعجزه الاضطلاع بعبء، أو الاطلاع على خبء، إلا وجد فيه البغية والضالة، وما يشاء التشكيك في رأي جميع، أو التشتيت لشمل مجموع، إلا وجد فيه المشكّك المحكّك، والخادم الهادم، وقد تهيّأت فيه أدوات الفتنة كلها حتى كأنه أعدّ لذلك إعدادا خاصًا، وكأنه «مصنوع بالتوصية»، وكأنما هو رزق مهيّأ مهنأ للاستعمار، ومازال الاستعمار مرزوقا بهذا النوع، فالرجل شريف أولا، وعريق

في الشهرة ثانيا، وطرقي ثالثا، وعالم رابعا، وكل واحد من هذه فتنة لصاحبها بنفسه وللنّاس به ، فكيف بهن إذا إجتمعن؟ وكيف بهن إذا كان إجتماعهن في غير موفّق؟ والرّجل بارع يستخدم كل واحدة من هذه في ميدانها الخاص، ويستخدمها جميعا في الميدان العام: يستخدم العلم في الشهرة، والطرقية في الفتنة، فإذا حزب الأمر إتخذ من أحدهما طليعة، ومن الآخر جيشا، ومن الشهرة أو الشرف ردءا، ولكن أغلب النزعات عليه، النزعة الطرقية لأنها أكثر فائدة، وأجدى عائدة، وأقرب سبيل، في باب التضليل، ناهيك بدعوى لا يحتاج صاحبها إلى إقامة دليل.

• • •

كان بلاء هذا الرجل محصورا في محيط، ومقصورا على قطر، وكان إخواننا في المغرب يعالجون منه الداء العضال، وكنا نعدّ أنفسنا آثمين في السكوت عنه، وفي القعود عن نصرة إخواننا في دفع هذا البلاء الأزرق، فلما تنّبهت عقولهم لكيده، وتفتّحت عيونهم لمكره، وتهاوت عليه كواكب الرجم من كل جانب، فبطل سحره، وقصّرت رقاه عن الاستنزال، وضلّ سعيه، وقلّ رعيه، انقلب استعمارا محضا قائما بذاته، وهاج حقده على الأحرار والسلفيين فترصّد أذاهم في الأنفس والأموال والمصالح، وأصبح كالعقرب، لا تلدغ إلا من يتحرك..

ولكن السوأة التي لا توارى، والزلّة التي تضيق عنها المغفرة، والعظيمة التي يستحي الشيطان أن يوسوس بها، والشنعاء التي لا يقدم عليها إلا من بلغ ربتة الاجتهاد المطلق في علم الشر، هي إجتراؤه في فورة الإستعمار الأخيرة على أعلى رمز تتمثّل فيه أماني الوطن وأمنع كنف يلوذ به السلفيّون الأبرار، والوطنيون الأحرار.

إن الخطايا قد تحيط بصاحبها فيقتل نفسه مثلا، ولكن ما صدّقنا أن الحال ينتهي به الى قتل أمة إلا هذه المرّة، وإن الزلل ليرسخ إلى أن يصير خلقا وعادة، ولكن ما عهدنا يفضي بصاحبه الى هذه الدركة التي لا تبلغ إلا بخذلان من اللّه، وماكنا نتصور أن شرّ شرير يتّضع قدره الى هذا الحدّ، أو يتّسع صدره لحمل هذا الوسام، وسبحان من يزيد في الخلق ما يشاء.

وكأن الرجل أخذ فيما أخذ عن الإستعمار طريقة التوسّع، وكأنه أصغر المغرب على سعته، أن يكون مجالا لألاعبيه وكايده، فجاوز في هذه المرّة الحدود، وتخطى الأخدود، واندفع إلى الجزائر وتونس ليبث فيهما سمومه، ويتخذ منهما ملعبا جديدا لرواياته التي منها مؤتمر الزوايا بالجزائر، وليقوم للحكومة بما عجزت عنه من استئلاف النافر، واستنزال العاق، وليوحد بين الأقطار الثلاثة ولكن بالتفريق ولينقذها من البحر ولكن بالتغريق.

كان عبد الحي فيما مضى يزور هذا الوطن داعيًا لنفسه أو مدعواً من أصدقائه، وهم طائفة مخصوصة، فكنّا نولّيه، ولا نأبه له، وكانت تبلغنا عنه هنات كاختصاصه بالجهّال وهو عالم، وانتصاره للطرقية وهو محدّث، إلى هنّات كلها تمسّ شرف العلم، وكرامة العالم، فكنّا نحمّله ما تحمّل ولا نبالي به، وكان يزور لماما، ويقيم أياما، ولكنه في هذ المرّة، جاء ليتمم خطّة، ودخل الباب ولم يقل حطّة، وصاغ في الجزائر حلقات من تلك السلسلة التي بدأ صنعها في المغرب، دلّتنا على ذلك شواهد الأفعال والأقوال والملابسات والظروف، ثم زار تنوس ليؤلّف فيها« تكميل التقييد »[1] وكأنه يتحدّى بهذه

(1) اسم كتاب في الفقه لابن غازي جاء اسمه مطابقا بسعة أعمال عبد الحي للمحنان، ونحن نريد المعنى الوفي في الكلمتين، فقد جاء الرجل ليكمل تقييد الجزائر وتونس بما ينقصهما من قيود مكره.

الرحلة الطويلة رحلة أبي الحسن المريني[1] وشتّان مابين الرحلتين تلك كانت لتوسيع الممالك، وهذه كانت لتوزيع المهالك، وياويح الجزائر المسكينة،كأن لم تكفها الفتن المتماحلة حتى تزاد عليها فتنة أسمها «مؤتمر الزوايا» ولم تكفها النكبات المتوالية حتى تضاف إليها نكبة اسمها«عبد الحي».

إن في رحلة عبد الحي هذ لآيات، منها أن الحكومة أحسّت بإعراض من رجال الزوايا، وانصراف عما تريده منهم بطرقها القديمة، فأرادت أن تؤّيد قوّة القهر بقوّة الحسر، فكان عبد الحيّ الساحر العليم، وآية ذلك أنه زار كل واحد من مشايخ الطرق في داره ، وأقام عنده الليالي والأيام، ونعتقد أنه تعب في إقناع الجماعة ولمّ شملهم، وقد سمعنا من عقلائهم عبارات التشاؤم بمقدمه في هذه الظروف، والتبرّم بتكاليفه في هذه السنوات العجاف، وإن ضيافة هذا الرجل وحدها لأزمة مالية مستقلّة، ولو كان للجماعة شيء من الشجاعة لولّوه الظهر، وصارحوه بالنهر، ولكن الشجاعة حظوظ، والصراحة أرزاق.

• • •

ويقال في جواب ما شأنه، إنه الشأن كله، ونقسم باللّه الذي خلق الحيّ وعبد الحيّ، أنه لولاه لما خطر مؤتمر الزوايا على بال واحد منهم، حاشا حواري عبد الحي بتلمسان، وهو رجل ليس فيه من صفات الحواريين إلا الصيد، وليس هو من الزوايا في قبيل ولا دبير، ونحن أعرف بالجماعة من عبد الحي، وقد إنصرفوا في السنوات الأخيرة الى أعمالهم الخاصة وساروا في هوى الأمّة، وشاركوا في مشاريعها العامة بقدر الاستطاعة، ولو سمعوا نصائحنا لتولّوا قيادتها من جديد

---

(1) أبو الحسن أنبه ملك في الدولة المرينية، بلغت فتوحاته إلى حدود ليبيا، وانتظم المغارب الثلاثة، وفي غزاته لتونس بنفسه كان المؤرّخ إبن خلدون قد حتم بها حياته العلمية وكان بدء اتصاله بالملوك الدول.

ولكن بالعلم وإلى العلم، وعلى ماهم عليه فإن القسوة لم تبلغ بهم إلى حدّ معاكسة شعور الأمّة، حتى يعرسوا في مأتمها، لولا هذا المخلوق.

ثم نسأل عبد الحي: لماذا لم يفعل في المغرب ما فعله في الجزائر فيجمع الزوايا على الدعوة إلى التعليم؟ إنه لم يفعل لأنه لا يرى زاوية قائمة إلا زوايته، وكلّ ما عداها فمنفرجة أو حادّة كما يقول علماء الهندسة، ونسأل رجال الزوايا: لماذا لم يجتمعوا لمؤتمرهم قبل مجيء عبد الحي؟ وهل هم في حاجة إلى التذكير بلزوم العلم والتعليم حتى يأتيهم عبد الحي بشيء جديد في الوضوع؟

ياقوم، إن الأمر لمدبّر، إن الأمر لمدبّر علمه من علمه منكم وجهلة من جهله، وما نحن بمتزيّدين ولا متخرّصين.

ولو أن عبد الحي كان غير من كان، ونزل باسم العلم ضيفا على الأمّة الجزائرية غير متحيز إلى فئة، وغير مسيّر بيد، وغير متأبّط لشرّ، للقي كل إكبار وتبجيل ولو أضافته على الأسودين التمر والماء، وإن ذلك لأعظم إعلاء لقدره، وإغلاء لقيمته.

• • •

ولقد كان من مقتضى كون الرجل محدّثا أن يكون سلفيّ العقيدة وقّافا عند حدود الكتاب والسنّة، يرى ما سواهما من وسواس الشياطين، وأن يكون مستقلاّ في الإستدلال لما يؤخذ ولما يترك من مسائل الدين، وقد تعالت همم المحدّثين عن تقليد الأئمة المجتهدين، فكيف بالمبتدعة الدجّالين، وعرفوا بالوقوف عند الآثار والعمل بها، لا يعدونها إلى قول غير المعصوم إلا في الاجتهاديات المحضة التي لا نصّ فيها، ولكن المعروف عن هذا المحدّث أنه قضى عمره في نصر الطرقية وضلالات الطرقيين ومحدثاتهم بالقول والفعل

والسكوت، وأنه خصم لدود للسلفيين، وحرب عوان على السلفية، وهل يرجى ممن نشأ في أحضان الطرقية، وفتح عينيه على ما فيها من مال وجاه وشهوات ميّسرة ومخايل من الملك، أن يكون سلفيًا ولو سلسل الدنيا كلها بمسلسلاته؟

إن السلفية نشأة وارتياض ودراسة، فالنشأة أن ينشأ في بيئة أو بيت كل ما فيها يجري على السنة عملا لا قولا، والدراسة أن يدرس من القرآن والحديث الأصول الاعتقادية، ومن السيرة النبوية الجوانب الأخلاقية والنفسية، ثم يروّض نفسه بعد ذلك على الهدي المعتصر من تلك السيرة ومن جرى على صراطها من السلف، وعبد الحي محدّث بمعنى آخر. فهو« راية » بكل ما لهذه الكلمة من معنى، تتصل أسانيده بالجن والحن ورتن الهندي[1]، وبكل من هبّ ودبّ وفيه من صفات المحدّثين أنه جاب الآفاق، ولقي الرجال، واستوعب ما عدنهم من الإجازات بالروايات، ثم غلبت عليه نزعة التجديد فأتى من صفات المحدّثين (بالتخفيف) بكل عجيبة، فهو محدّث محدث في آن واحد، وهمّه وهم أمثاله، من مجانين الرواية حفظ الأسانيد، وتحصيل الإجازات، ومكاتبة علماء الهند والسند للاستجازة، وأن يرحل أحدهم فيلقى رجلا من أهل الرواية في مثل فواق الحالب، فيقول له: أجزتك بكل مروياتي ومؤلفاتي إلى آخر(الكليشي)[2]، فإذا عجز عن الرحلة كتب مستجيزا فيأتيه علم الحديث بل علوم الدين والدنيا كلها في بطاقة.... أهذا هو العلم؟ لا واللّه وإنما هو شيء اسمه جنون الرواية.

(1) رتن الهندي شيخ دجال ظهر على رأس المائة السادسة للهجرة وادّعى أنه صحابي وأنه يروي عن النبي مباشرة وأنه حضر زفاف فاطمة الزهراء، وقد روى عنه جماعة من المحدثين المصغين له وأنكر أمره ودعواه جمهور أعلام المحدثين كالحافظ الذهبي، والحافظ إبن حجر، وأثبت الذهبي أنه دجّال كذّاب.

(2) الكليشي: كلمة فرنسية معناه الشريط.

ولقد أصاب كاتب هذه السطور مسّ من هذا الجنون في أيام الحداثة، ولم أتبّين منشأه في نفسي إلا بعد أن عافاني اللّه منه وناب عليّ، ومنشأ ه هو الإدلال بقوّة الحافظة، وكان من آثار ذلك المرض أنني فتنت بحفظ أنساب العرب، فكان لا يرضيني عن نفسي إلا أن أحفظ أنساب مضر وربيعة بجماهرها ومجامعها، وأن أنسب جماهر حمير وأخواتها، وأن أعرف كل مأثر عن دغفل في أنساب قريش، وما أختلف فيه الواقدي، ومحمد بن السائب الكلبي، ثم فتنت بحفظ الأسانيد، وكدت ألتقي بعبد الحي في مستشفى هذا الصنف من المجانين بالرواية، لولا أن اللّه سلّم، ولولا أن الفطرة ألهمتني: أن العلم ما فهم وهضم لا ماروي وطوي.

زرت يوما الشيخ أحمد البرزنجي– رحمه اللّه، في داره بالمدينة المنوّرة وهو ضرير، وقد نُمي إليه شيء من حفظي ولزومي لدور الكتب، فقال لي بعد خوض في الحديث: أجزتك بكل مروياتي من مقروء ومسموع بشرطه.... إلخ. فألقي في روعي ما جرى على لساني وقلت له: إنك لم تعطني علما بهذه الجمل، وأحر أن لا يكورن لي ولا لك أجر، لأنك لم تتعب في التلقين وأنا لم أتعب في التلقيّ، فتبسّم ضاحكا من قولي ولم ينكر، وكان ذلك بدء شفائي من هذا المرض، وإن بقيت في النفس منه عقابيل، تهيج كلما طاف بي طائف العجب والتعاظم الفارغ الى أن تناسيته متعمدا ثم كان الفضل لمصائب الزمن في فسسيان البقية الباقية منه، وإذا أسفت على شيء من ذلك الآن فعلى تناسي لأيام العرب، لأنها تاريخ، وعلى نسياني أشعار العرب، لأنها أدب.

وحضرت بعد ذلك طائفة من دروس هذا الشيخ في صحيح البخاري على قلّتها وتقطّعها، وأشهد أني كنت أسمع منه علما وتحقيقا، فقلت له يوما: الآن أعطيتني أشياء وأحر بنا أن نوجر معا، أنت وأنا، فتبّسم مبتهجا وقال لي:

يابنيّ، هذه الدراية وتلك الرواية، فقلت له: إن بين الدراية والعلم نسبا قريبا في الدلالة، ترادفه أو تقف دونه، فما نسبة الرواية إلى العلم؟ وقطع الحديث صوت المؤذن وقال لي: بعد الصلاة حدّثني بحديثك عن نسبة الرواية الى العلم، فقلت له ما معناه: إن ثمرة الرواية كانت في تصحيح الأصول وضبط المتون وتصحيح الأسماء، فلما ضبطت الأصول وأمن التصحيف في الأسماء خفّ وزن الرواية وسقطت قيمتها، وقلت له: إن قيمة الحفظ، بعد ذلك الضبط، نزلت إلى قريب من قيمة الرواية، وقد كانت صنعة الحافظ شاقة يوم كان الاختلاف في المتون، فكيف بها بعد أن تشعْب الخلاف في الفاظ البخاري في السن الواحد بين أبي ذرّ الهروي، والأصيلي، وكريمة، والمستملي، والكشميهي، وتلك الطائفة، وهل قال حدثني أو حدّثنا أو كتاب أو باب، إن هذا لتطويل مافيه من طائل، ولا أراه علما بل هو عائق عن العلم، وقلت له: إن عمل الحافظ اليونيني على جلالة قدره في الجمع بين هذه الروايات ضرب في حديد بارد، ولا أستثني منه إلا عمل إبن مالك، وإن ترجيح إبن مالك لإعراب لفظة لأدلّ على الصحة في اللفظ النبوي من تصحيح الرواية، وقد يكون الراوي أعجميًا لا يقيم للإعراب وزنًا، فلماذا لا نعمد إلى تقوية الملكة العربية في نفوسنا، وتقويم المنطق العربي في ألسنتنا، ثم نجعل من ذلك موازين لتصحيح الرواية؟ على أن التوسّع في الرواية أفضى بنا إلى الزهد في الدراية، وقلت له: إنك لو وقفت على حلق المحدّثين بهذا الحرم، محمد بن جعفر الكتاني ومحمد الخضر الشنقيطي وغيرهما لمسعت رواية وسردا، لا دراية ودرسا، وإن أحدهم ليقرأ العشرين والثلاثين ورقة من الكتاب في الدولة الواحدة[1]، فأين العلم؟ وقلت له: إن من قبلنا تنبّهوا إلى أن دولة الرواية

(1) في الدولة الواحدة: في المرّة الواحدة.

دالت بضبط الأصول وشهرتها فاقتصروا على الأوائل، يعنون الأحاديث الأولى من الأمهات وصاروا يكتفون بسماعها أو قراءتها في الإجازات، وما أكتفاء القدماء بالمناولة والوجادة إلا من هذا الباب.

قلت له هذا وأكثر من هذا، وكانت معارف وجهه تدلّ على الموافقة ولكنه لم ينطق بشيء، وأنا أعلم أن سبب سكوته هو مخالفة ما سمع لما ألف– رحمه اللّه.

ولقيت يوما الشيخ يوسف النبهاني –رحمه اللّه– بباب من أبواب الحرم فسلّمت عليه فقال لي: سمعت آنفا درسك في الشمائل، وأعجبني إنحازك باللوم على مؤلّفي السير في أعتنائهم بالشمائل النبوية البدنية، وتقصيرهم في الفضائل الروحية، وقد أجزتك بكل مؤلّفاتي.

ومروياتي وكل مالي من مقروء ومسموع من كل ما تضمّنه ثبتي... إلخ فقلت له : أنا شاب هاجرت لأستزيد علما وأستفيد من أمثالكم ما يكملني منه، وما أرى عملكم هذا إلاّ تزهيدا لنا في العلم، وماذا يفيدني أن أروي مؤلفاتك وأنا لم أستفد منك مسألة من العلم، ولماذا لم تنصب نفسك لإفادة الطلاب، فسكت، ولم يكن له– رحمه اللّه– درس في الحرم، وإنما سمعت من خادم له جَبَرْتي أنه يتلقّى عنه في حجرته درسا في فقه الشافعية.

وكان بعد ذلك يؤثر محلي على ما بيننا من تفاوت كبير في السن، وتباين عظيم في الفكرة، رحم اللّه جميع من ذكرنا وألحقنا بهم لا فاتنين ولا مفتونين.

أما أولئك السلف الأبرار فعنايتهم بالرواية والرجال راجعة كلها إلى الجرح والتعْديل اللذين هما أساس الإطمئنان إلى الرواية، وقد تعبوا في ذلك واسترحنا.

وما قولكم –دام فضلكم– لو فرضنا أنّ محدث القرن الرابع عشر ومسنده عبد الحي عرض بعجره وبُجره على أحمد بن حنبل، أوْ على يحي بن ميعن، أو على عليّ

بن المديني، أو على من بعدهم من نقّاد الرجال الذين كانوا يجرّحون بلحظة، ويسقطون العدالة بغمزة في عقيدة، أنو نبزة في سيرة، أو بغير ذلك مما يعدّ في جنب عبد الحيّ حسنات وقربان ، فماذا نراهم يقولون فيه؟ وبماذا يحكمون عليه؟ خصوصا، إذا عاملوه بقاعدة (الجرح لا يقيل إلا مفسّرا).

وبعد، «فقد أطال ثنائي طول لابسه»[1] فليعذرنا عبد الحيّ، ووالله ما بيننا وبينه ترة ولا حسيفة، ووالله ما في أنفسنا عليه حقد ولا ضغينة، ووالله لوددنا لو كان غير من كان ، فكان لقومه لا عليهم، وإذا لأفاد هذا الشمال بالكنوز النبوية التي يحفظ متونها، ونفع هذا الجيل الباحث الناهض المتطلّع بخزانته العامرة، وكان روّاد داره تلامذة يتخرّجون، لا سياحا يتفرّجون، وعلماء يتباحثون، لا عوام يتعابثون، ولكنه خرج عن طوره في نصر الضلال فخرجنا عن عادتنا من الصبر والأناة في نصر الحق، وجاء يؤلب طائفة من الأمة على مصالح الأمّة، فهاج الأمّة كلها، وهاج معها هذا القلم الذي يمّج السمام المنقطع، فنفث هذه الجمل، وفي كل جملة حملة ، وفي كل فقرة نقرة، فإن عاد بالتوبة، عدنا بالصفح، وإن زاد في الحوبة، عدنا على هذا المتن بالشرح، ولعلّ هذا الأسبوع هو أبرك الأسابيع على الشيخ، فقد أملينا فيه مجالس في مناقبه جاءت في كتّيب، سميناه -بعد الوضع- «نشر الطيّ من أعمال عبد الحي» ، فإن تاب وأدناه، ووفينا له بما وعدناه، وإلا عممناه بالرواية، وأذنّا لعبد الحي في روايته عنا للتبّرك واتصال السند، وهو أعلم الناس بجواز رواية الأكبار عن الأصاغر.

---

(1) شطر من بيت للمتنبي تمامه: إن الثناء على التنبال تنبال.

الرجال أعمال

محمد الطاهر بن عاشور وعبد الحميد بن باديس

إماما النهضة العلمية في الشمال الإفريقي (*)

البصائر ميزان حق، ولسان صدق، فهي تزن الرجال بأعمالهم الجليلة، ومواقفهم الشريفة، وتقوّمهم بالقيم الإيجابية، لا بالقيم السلبية، وهي تمدح المستحقين للمدح فلا تشين المدح بالغلوّ، وتذمّ المستأهلين للذم فلا تزين الذمّ، بالكذب والاختلاق.

و«البصائر» لا تأبه للصنيت الطائر في المجامع، والإسم الدائر على الألسنة، والشهرة السائرة في الآفاق،مالم يكن من ورائها أعمال تشهد، وآثار صالحة تعهد، وثمرات طيبة تجنى.

وقد صدّرت هذا العدد بصورة اثنين من رجال العلم والعمل بهذا الشمال الإفريقي، توافت شهرتهما وأعمالهما إلى غاية، وتسابقتا إلى أمد، فكان السبق للأعمال، وإذا كانت الشهرة قد تكذب، فإن الأعمال لا تكذب، وهي قائلة في كل واحد منهما كلمة، حظّ الأعمل فيها من التنويه أوفر من حظ العامل.

ونحن حينما نذكر العمل لا نريد به المعنى القاصر في عرف الفقهاء، وإنما نريد منه هذه الأعمال العامّة النافعة التي فيها ما في النور والدماء من غذاء وقوّة وحياة، وفيها ما في الدهر من استمرار وامتداد.

رحم اللّه الميت، وبارك في عمر الحيّ، إلى أن تتكامل أعماله، وتتحقّق في إصلاح «الزيتونة» آمالنا وآماله.

(*) نشرت في العدد 44 من جريدة« البصائر»، 26 جويلية سنة 1948

-1-

الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدّهم التاريخ الحاضر من ذخائره، فهو إمام متبحّر في العلوم الإسلامية، مستقل في الإستدلال لها، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذرع بتحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطلاع على المنقول منها، أقرأ وأفاد، وتخرّجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي،وتفرّد بالتوسّع والتجديد لفروع من العلم ضيّقها المنهاج الزيتوني، وأبلاها الركود الذهني، وأنزلتها الاعتبارات التقليدية دون منزلتها بمراحل: فأفاض عليها هذا الإمام من روحه وأسلوبه حياة وجدّة، وأشاع فيها مائية ورونقا، حتى استرجعت بعض قيمتها في النفوس، ومنزلتها في الاعتبار.

وبعيد جدا أن يبلغ الإصلاح في الكلية الزيتونية مبلغه قبل أن تقوم الدراسات العليا فيه على ساق، وقبل أن تنفق لها في عرصاته سوق، سوق، وقبل أن تشمل تلك الدراسات التفسير والحديث والأخلاق والأدب والتاريخ.

هذه لمحات دالة– في الجملة، على منزلته العلمية، وخلاصتها أنه إمام في العلميات لا ينازع في إمامته أحد.

وأما العمليات فلا نعدّ منهاالتدريس في جامع الزيتونة، وإنما نعدّ منها إصلاح التعليم في جامع الزيتونة، وقد اجتمعت في الأستاذ وسائله، وتكاملت أدواته، من عقل راجح لايخيس وزنه، وبصيرة نافذة الى ماوراء المظاهر الغرّارة، وفكر غوّاص، على حقائق الأشياء، وذكاء تشف له الحجب، واطلاع على تاريخنا العلمي في جميع أطواره، واستعداد قوي متمكن للتجديد والإصلاح، ومن شأن هذه المواهب المتجمعة في أمثال الأستاذ أنها تكمن حتى تظهرها الحاجة والضرورة، والحاجة إذا ألحّت كشفت عن رجل الساعة

وأخرجت القائم المنتظر وقد وُجِدَت الحاجة إلى الإصلاح في كليتنا، فوجد الرجل المدّخر ، فكان الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور، وإن تدبير الأحوال الاجتماعية لأقوى وأبقى من تدبير الجماعات، وإن تدبير الجماعات لأثر من روح الاجتماع، وإن غفل الناس عن ذلك.

تقلّد الأستاذ مشيخة الجامع للمرّة الأولي فدلّت المصائر على أن التدبير الإجتماعي لم يكمل ، وكان من الظواهر المحسوسة أنها وظيفة جديدة لم يطمئن موطنها، ولم يدمّث مواطئها، ولم تهشّ لها النفوس المبتلاة بالتقليد، والمريضة بالمنافسة، خصوصا وهي - في حقيقتها نزع للسلطة من جماعة وحصرها في واحد، والخروج عن المألوفات العادية يراه المجدّدون وضعا للإصر، وإنطلاقا من الأسر، ويراه الجامدون فسادا في الأرض وشرطا من اشراط الساعة.

ثم قُلّد الأستاذ مشيخة الجامع للمرّة الثانية، وكان الأمر قد إستتب، والنفوس النافرة من التجديد قد إطمأنت، والضرورة الداعية إلى الإصلاح قد رجحت، ومعنى ذلك كله أن التدبير الإجتماعي قد كمل، فخبّ الجواد في مضماره، وشعّ نور ذلك الإستعداد من ناره، وكان ما سرّ نفوس المصلحين من إصلاح وإن لم يبلغ مداه بعد.

لم ير جامع الزيتونة في عهوده الأخيرة عهدا أزهر من هذا العهد، ولم يرَ في الرجال المسيرين له رجلاً أقدر على الإصلاح، وأمدّ باعاً من شيخه الحالي، وإذا كان الإصلاح يسير ببطء فما الذنب ذنبه، وإنما الذنب لطبيعة الزمان والمكان،وضعف المقتضيات، وقوّة الموانع، وحسبه أنه حرّك الخامد، وزعزع الجامد، وأجال اليد المصلحة في الإدارة وفي كتب الدراسة وفي أشياء أخر، وتلك هي مبادئ الإصلاح التي ينبني عليها أساسه، وحسبه أيضاً أنه نبّه

الأذهان إلى أنّ إصلاحات خير الدين كعهد الأمان،كلاهما لا يصلح لهذا الزمان، وشتّان ما زمنٌ كله ممهّد للإحتلال، وزمن كل ما فيه ينادي بالاستقلال.

والحق أن في الجهاز التعليمي بجامع الزيتونة خللاً يحتاج إلى الإصلاح، وعللاً يجب أن تزاح، ونقائص يجب أن تعالج، وتوافه من النظم يجب أن تلغى، وكلها بقايا من إصلاحات خير الدين، لم تعد تصلح لخير العلم ولا لخير الدين.

فإذا إطمأنّ بعض أصدقائنا وإخواننا من علماء الزيتونة إلى بقاء ماكان على ماكان، فليعلموا أن وراءنا من الزمن سائقا عنيفا حُطَمَة، يستحث البِطاء ولا يغضّ من أعنّة العجال، وأنّ بين أيدينا ودائع من شباب متطلع إلى الكمال، توّاق إلى السبق، حريص على دقائق عمره أن تنفق إلا فيما ينفق ، وهو يريد أن يكون كزمنه وأبناء زمنه، وزمنه ثلاثة: جدّ وإتقان ونظام، وأبناء زمنه أحالهم العلم عقبان جوّ، وغيلان دوّ، وفرضت عليهم الحياة أن يأخذوا الكثير من العلم، في القليل من الوقت، وأرتهم مصداق ذلك حتى لا يرتاب مرتاب.

وليعلموا أن خصوم الإسلام في ازدياد، وأن سير الإلحاد في أطراد، وأن العلوم الغربية زاحمت العلوم الإسلامية على نفوس شبابنا فافتتنوا، وأن ضرائر العربية من اللغات الأوروبية يتبرّجن تبرّج الجاهلية الثانية، وقد زاحمنها على ألسنة شبابنا فافتتنوا، وأن التعليم في كلياتنا المشهورة بوضعه الحالي لا يكفل لنا سدّ أبواب هذه الفتن.

• • •

ولا أكذب اللّه، ولا أحاجي عباده، فقد أخرجت الزيتونة طرازا من الرجال لو لم تفتنهم الوظائف المحدودة لأتوا في الإصلاح الديني والدنيوي بالعجب، وما زالت هذه الوظائف المقيّدة قيدا للنبوغ، بل مدفناً للعبقرية، تنزل المواهب منها

بدار مضيعة، وكم من عبقرية أطفأ شعلتها التشوّق إلى الوظيفة قبل الوصول إليها، لأن ذلك التشوّق يدور بصاحبه في الدائرة الضيّقة التي توصّل إليها ، لا في الدائرة الواسعة التي يشرف منها على آفاق العلم وعوالمه، فما أشام الوظيفة على العلم، وما أضرّ ذلك العرف السائد في تونس بالنبوغ، وهو توارث الوظائف الدينية والشرعية في بيوت مخصوصة، حتى أصبح أبناء تلك البيوت يتطلّعون من أول العهد بالطلب إلى الوظائف التي يشغلها ذووهم، كأنها وقف عليهم، أو حق مفروض لهم، وإن ذلك وحده لمشغلة عن طلب الغايات في العلم.

• • •

إن الإصلاح المرجوّ لجامع الزيتونة لا يبلغ مداه إلا إذا توفّرت فيه ثلاثة شروط: الإستقلال والمال والرجال.

أما الاستقلال- وهو أهم الشروط ، فهو أن تصبح الكلية الزيتونة بمنجاة من التسلّط الحكومي كيفما كان لونه، بعيدة عن المؤثرات السياسية والتيارات الحزبية، مثبتة وجودها الذاتي بأنها تؤثر ولا تتأثر،فمن حاول إخضاعها لنزعة حكومية، أو جرّها لمذهب سياسي، أو توجيهها لوجهة حزبية، فهو مفسد خبيث الدخلة.

وأما المال فإن الإصلاحات تتطلب أموالا طائلة، ونفقات سخية، ومهما تبذل الحكومة من الخزينة العامة فإن ذلك لايكفي ولا يغني، على ما فيه من آفات، فإن الحكومات لا تعطي بدون أخذ ، بدون أن تتخذ من العطاء وليجة للتدخل ومقادة للمسيرين، ودرٌ درٌ الأوقاف الإسلامية لوم لم يفسدها سوء الإدارة وتسلّط الاستعمار، إن الكليات حتى في أغنى أمم العالم لا تقوم على مال الحكومة المحدودة وحده، وإنما تقوم على عطاء الكرماء وبذل المحسنين، فهل آن لأمّتنا أن تعلم هذا فنعمل به؟

وأما الرجال فإن في الزيتونة رجالاً لو تعاونوا وسلموا من داء المنافسة على الرياسة لحقّقوا الآمال في الإصلاح، ولعجّلوا به، وقد كانوا ينتظرون القائد الحازم فقد وجدوه.

• • •

إن الإصلاح المنشود للزيتونة لا يتّم إلا في جوّ بعيد عن القصر ووساوسه، وعن الهيكل الوزاري، ودسائسه، وعن الإستعمار ومكائده ومصائده.

وإن الزيتونة لا تتبوأ مكانها الرفيع إلا بواسطة جهاز داخلي متماسك الأجزاء من علمائها ، يؤمّهم إمام مدرّب محنّك فقيه في المذاهب الإدارية، مجتهد في أصولها.

وإن ذلك الإمام المدرّب الفقيه المجتهد الجامع لشروط الإمامة في هذا الباب لهو الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

إن الذين يثيرون في وجهه الغبار، أن يضعون في وجهته العواثير لمجرمون وإنا –إن شاء اللّه– للأستاذ الأكبر في طريقه الإصلاحي لمؤيدون وناصرون.

-2-

باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشيء مجلة« الشهاب» مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربّي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح، ومحيي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسّر كلام اللّه على الطريقة السلفية في مجالس إنتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقّن مباديها، علم البيان، وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن

باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأوّل مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم، رحمه اللّه ورضي عنه.

وحسب إبن باديس من المجد التاريخي هذه الأعمال التي أجملناها في ترجمته، وإنّ كل واحد منها لأصل لفروع، وفصل من كتاب ، وإذا كان الرجال أعمالا فإن رجولة أخينا عبد الحميد تقوم بهذه الأعمال.

وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمّةً تعاقبت عليها الأحداث والغير، وديناً لابسته المحدّيات والبدع، ولسانا أكلته الرطانات الأجنبية، وتاريخا غطىّ عليه النسيان، ومجداً أضاعه ورثة السوء، وفضائل قتلتها رذائل الغرب.

وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية، وهم ألسنتها الخاطبة، وأقلامها الكاتبة، وهم حاملو ألويتها، وأن آراءه في الإصلاح الديني والإجتماعي والسياسي هي الدستور القائم بين العلماء والمفكّرين والسياسيين، وهي المنارة التي يهتدي بها العاملون وأن بناءه في الوطنية الإسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار.

وحسبه من المجد التاريخي أنّ إخوانه الذين حملوا معه معظم الأمانة في حياته، أضطلعوا بحملها كاملة بعد وفاته، في أيام أشدّ تجهّماً من أيامه، وفي هزاهز ماكان يتخيلها حتى في أحلامها، فما وهنوا ولا هانوا، ولا ضعفوا ولا استكانوا.

وأنهم إستخلفوا على النهضة فكانوا نعم الخلف، تمّموا وعمّموا، وأجمعوا وصمّموا. وأنهم وفوا له ميتا كما وفوا له حياً، وأعترووا باسمه بعد مماته، كما كان يعتزّ بهم في حياته فقد كان رحمه اللّه، على جرأته وبديهته وبيانه وشجاعته، رمبا تدركه الفترة في الرأي في المواقف الحرجة فيلتفت فيرى إخوانه إل يجنبه فيندفع كأنما مسّته كهرباء، وكأنه الأتّي، المنهمر، فلا يبقي ولا يذر.

• • •

ومن غرائب هذه العصابة التي كان إبن باديس شارة شرفها، وطغرى عزّها، أن الشيطان لم يجد منفذا يدخل منه إلى أخوّتهم فيفسدها، أو إلى علائقهم فيفصمها، أو إلى محبتهم بعضهم لبعض فينفث فيها الدخل ، فعاشوا ما عاشوا متآخين كأمتن مايكون التآخي، متحابين كأقوى ماتكون المحبة، ولقد كانوا مشتركين في أعمال عظيمة، معرّضين لعواقب وخيمة،ومن شأن مايكون كذلك أن تختلف فيه وجوه الرأي وتتشعّب مسالكه، فيكثر فيها اللجاج المفضي إلى الضغينة، والانتصار للرأي المفضي إلى الخلاف، خصوصا إذا إشتجرت الآراء في مزلقة الإستعمار التي يرصدها لنا، فوالذي روحي بيده ماكنا نجتمع في المواقف الخطيرة إلا كنفس واحدة، وماكنا نفترق، وإن إختلف الرأي- إلا كنفس واحدة، وإني لا أجد لفظا يؤدي هذه الحالة فينا، إلا لفظة «إخوان الصفاء» فلقد، واللّه كنا إخوان صفاء، وما زلنا إخوان صفاء، وسنبقى إخوان صفاء، حتى نجتمع عند اللّه راضين مرضيين إن شاء اللّه.

إن لهذه الحالة فينا علّة وثمرة: أما العلّة فهي أن إجتماعنا كان اللّه ولنصر دين اللّه دين اللّه ولتأدية حق اللّه في عباده، دأبنا في ذلك التعاون على الخير، والإستباق إل الخير، فلا مجال للمنافسة وحظ النفس، وأما الثمرة فهي هذا النجاح الباهر الذي نلقاه في كل أعمالنا للأمّة، في تطهير العقول، وفي تصحيح العقائد، وفي إستجابة داعي القرآن، وفي تمكين سلطان السنّة،وفي صدق التوجه إلى العلم، وفي تشييد المدارس، وفي كثرة الإقبال عليها والبذل لها، وفي كل معالجة بيننا وبين الأمّة.

إن هذا من صنع اللّه لا مما تصوغه الأهواء الخبيثة، وما جمعته يد اللّه لا تفرّقه يد الشيطان.

• • •

مازلت آسي على شيء كلما ذكرته وأجد له في نفسي حرارة ومضضا، وهو أن تستأثر الجزائر وحدها بتلك المجموعة الباديسية من فكر ثاقب، ورأي أصيل، وعلم غزير، ولسان مبين، وأن لاصيكون لبقية الأقطار الإسلامية منها حظ، وكم كنت أمتنّى لو يقوم برحلة في أطراف العالم الإسلامي داعياً إلى اللّه، وإلى الإجتماع على كتاب اللّه، وكنت نازعته الحديث في هذا مرّات، وقلت له: إن من النقص أن تقضي طول عمرك مدرسًا لهذه الكتب وهذه القواعد، في طائفة من الطلاّب، فإن زدت فمحاضرا في الجموع، وأن يبقى هذا العلم محصورا في الجزائر،وكان من حبه- رحمه اللّه- لتلامذته وشغفه بتربيتهم أنه يتولّى بنفسه دراسة الكتب العالية طوال السنة، إلا في الجولات المحدودة للوعظ والإرشاد، أو لإجتماعات الجمعيات، فكان يحيل الأمر إليّ تنصلا ويقول لي: أنت أعرف بالشرق، وألين عريكة مني (وهذه عبارته بحروفها) صوكنا نتفق على الأصل ونسوّق ونسوّق إلى أن فرّق الموت بيننا.

هذه بعض أعمال الرجل العظيم الذي مات فورثت أسرته جثمانه فأقامت له مشهدا، وورثنا نحن أعماله فأقمنا له معهدا، وعسى اللّه أن يوفّق أسرته إلى وقف مكتبته على معهده ليعمّ النفع بها كما عمّ النفع بعلمه، وليحيا ذكره بهما معا، وليس بالكثير في حقّ من وقف حياته الغالية على الأمّة، أن نوقف مكتبته الرخيصة على الأمّة.

من نفحات الشرق

الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار(*)

علم من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة السلفية الحقّة، دقيق الفهم لأسرار الكتاب والسنّة، واسع الاطلاع على آراء المفسّرين والمحدثين، سديد البحث في تلك الآراء، أصوليّ النزعة في الموازنة والترجيح بينها، ثم له – بعد– رأيه الخاص، يوافق ما يوافق عن دليل، ويخالف ما يخالف إلى صواب، لأنه مستكمل للأدوات المؤهلة لذلك، ولأنه يفهم القرآن على أنّه أصل ترجع إليه الآراء والمذاهب والفهوم، وأنه كتاب الكون، ودستور الإنسانية، لا كما يفهمه كثير ممن كتبوا في التفسير فجرّدوا أقلامهم لتسطير أفهام غيرهم، وجرّدوا القرآن من خصائصه العليا، وقيّدوا هدايته العامة بمذاهبهم الخاصّة.

والأستاذ البيطار مجموعة فضائل، ماشئت أن تراه في عالم مسلم من خُلُق فاضل إلا رأيته فيه، مجاوز للحدود المذهبية والإقليمية، يزن هذه المذاهب الشائعة بآثارها في الأمة، لا بأقدار الأئمة، ويعطي كلاّ ما يستحق، جريء على قولة الحق في العلميات، ولكن الجرأة منه يلطفها الوقار، والوقار فيه تزيّنه الجرأة، فيأتي من ذلك مزاج خلقي لطيف، متساوي الأجزاء، ملتحم الخلايا، قلّ أن تجده في أحد من علمائنا المعدودين.

(*) نشرت في العدد 64 من جريدة« البصائر»، 24 جانفي سنة 1949.

والأستاذ البيطار مفكّر عميق التفكير، وخصوصا في أحوال المسلمين، بصير بعللهم وأدوائهم، طبّ بعلاجهم ودوائهم، يرى أن ذهاب ريحهم من ذهاب أخلاقهم، وأن معظم بلائهم آت من كبرائهم وأمرائهم وعلمائهم، وهو يعني كبراء الدعوى، و أمراء السوء، وعلماء التقليد، يرجع في ذلك كله إلى استقلال في الفهم والاستدلال، ومقارنات في التاريخ والاجتماع، وتطبيقات مصيبة للحقائق الدينية على السنن الكونية، وله في الإصلاح الديني سلف صدق، حقّقوه علما، وطبّقوه عملا، يعتمد في تحصيله وتربيته على طودين شامخين من أطواد العلم والعمل: أحدهما الإمام عبد الرازق البيطار، والثاني الإمام المحدّث جمال الدين القاسمي، عنهما أخذ، وفي كنفهما نشأ، وعلى يدهما تخرّج، فجاء عالما من ذلك الطراز الذي تقرأه في التراجم، ولا نجده فيمن تقع عليه العين من هؤلاء العلماء الذين يقرأون ويحفظون وينقلون، ولكنهم لا يفقهون... هذا العديد المتشابه الذي كأنه نسخ من طبعة واحدة من كتاب لا يقع التحريف في واحد منها إلا وقع في جميعها، ولا يزيد واحد مهم في العدد إلا كما يزيد كتاب في مكتبة، لا كما يزيد فارس في كتيبة، بآية أنهم ماكثروا في الأمة إلا قلّت بهم الأمة، ولا ثقلوا في أنفسهم إلا خف وزنها في الأمم، ولا تغالوا في التعاظم إلا كان ذلك نقصا من معاني العظمة فيها، وبآية أن علمهم لم يؤهّلهم لقيادة الأمة، فتركوا القيادة لغيرهم، وأصبحوا كأدوات التصدير التي يسبقها حرف الجر، فيدخل عليها ولا يعمل فيها، وبآية أنّ العالم في أوربا لا يعدّ عالما إلا إذا زاد في العلم شيئا، أو كشف من خفيّه شيئا، أو جلا من غامضه شيئا، ونفض مع ذلك على العلم من روح زمنه شيئا، ولا عجب، فالعلم عندهم ياقوتة في منجم، وعندنا لفظة في معجم، والأولى تستخرج بالبحث والإلحاح، والثانية تستخرج بمعرفة الإصلاح، والأولى حظ المجتهد العامل، والثانية حظ المقلّد الخامل.

بدء معرفتي به:

خرجت من المدينة- فيمن خرج إلى دمشق في أخريات سنة ست عشرة ميلادية وكنت أتمنى لو أن دواعي ذلك الخروج كانت تقدمت ببضع سنوات لأدرك الإمامين اللذين كانت لهما في نفسي مكانة، وهما عبد الرزّاق البيطار وجمال الدين القاسمي، وكنت وأنا بالمدينة- قرأت للقاسمي عدة كتب عرفت منها قيمته ومنزلته ، وقرأت عن البيطار وسمعت ما دلني عليه وأدناني منه.

وفي أول إندلاع الثورة الشريفية قدم المدينة من دمشق جندي شاب من آل المارديني، وتعرّف إليّ في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، وتردّد على دروسي مرات في الحرم النبوي، فانعقدت بيننا ألفة روحية لا تأتي بمثلها الأسباب، وذلك الشاب شقيق الأستاذ جودت المارديني، ولأسرة الماردينى بدمشق صلة متينة بأسرتي القاسمي والبيطار فكنت أسأله عما يهمّني من دمشق وأحوالها وعلمائها، وعن القاسمي والبيطار كأن هاتفا من وراء الغيب القى إليّ أنني سأرحل إلى دمشق فأخبرني ذلك الشاب أن اللّه تعالى أبقى من بيت البيطار وارثا لعلم الإمامين ومشربهما في الإصلاح، هو الأستاذ محمد بهجة البيطار، وأن له من الشباب المحصل صحبًا قليلا عددهم يوافونه على الفكرة، ويلتقون معه على المبدإ، وأنه هو إمامهم ومرجعهم، فشوّقني حديث الشاب إلى الأستاذ، وعلمت أن الروحين تعرفتا، فائتلفتا، ولم يبق إلا تعارف الأجساد.

ثم رجع الشاب إلى دمشق فأخبر الأستاذ عني بمثل ما أخبرني عنه، فتم التجاوب الروحاني بيننا، وتنادت الروابط الفكرية إلى الإجتماع فكان.

ولما دخلت دمشق بعد ذلك بقليل، كان أول من زارني، بعد كرام الجالية الجزائرية من أصدقائي السوريين الذين عرفوني بالمدينة المنّورة: الأستاذ عبد القادر الخطيب، المظفر، وذلك الشاب الماردينى الذي أنساني الزمان أسمه

وإن لم ينسني ذكراه، فكاد يطير فرحا بمقدمي، وطار إلى أبناء المشرب، كما كان يسميّهم ، يؤذن فيهم بزيارتي فزاروني لأول مرة في رهط أذكر منهم شيخ الجماعة الأستاذ البيطار، والأستاذ عبد الحكيم الطرابلسي، والأستاذ جودت الماديني، والأستاذان قاسم ورضا القاسمين والأستاذ سعيد الغزي، والأستاذ عبد القادر المبارك، وكان بيننا في لحظة ما يكون بين إخوان الصفا وإخوان الصبا من تأكد المحبة وارتفاع الكلفة وسقوط التحفّظ، ثم تعاقبت الإجتماعات وانتظمت، واتسقت أسباب اللقاء، واتّسعت آفاق البحث في الأسمار، وكثر الصحب، وما منهم إلا السابق المغير، والكاتب المحبر، والليسن المعبّر، فكنّا لا نفترق من اجتماع إلا على موعد لاجتماع، وكان واسطة العقد في تلك المجالس الأستاذ الجليل والأخ الوفي الشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين مدّ اللّه في حياته ،ولقد أقمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلا قليلا، فأشهد صادقا أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنها هي الجزء العامر، في عمري الغامر، وأنني كنت فيها أقرّ عينا وأسعد حالا من ذلك الذي نزل على آل المهلب شاتيا، فوجد الإدبار رائحا والإقبال آتيا، ولا أكذب اللّه، فأنا قرير العين بأعمالي العلمية بهذا الوطن(الجزائر)، ولكن ... من لي فيه بصدر رحب، وصحب كأولئك الصحب؟

إن نسيت فلن أنسى ساعات كنت قضيتها في مكتبة آل القاسمي ممتعا عيني وذهني في مخطوطات جمال الدين، ومسودات مباحثه في التفسير والحديث، وفي ذلك المخطوط الحافل الذي ما رأت عيني مثله في موضوعه، هو كتاب «بدائع الغرف» في الصنائع والحرف، لجدّه الشيخ محمد سعيد الحلاّق، أرّخ فيه لصناعات دمشق الجليلة التي أخنى الزمان على أكثرها، وجلا فيه صفحات من مجدها الصناعي البائد.

ويا رعى اللّه عهد دمشق الفيحاء، وجادتها الهوامع وسقت، وأفرغت فيها ما وسقت وخصّت بالمثقلات الدوالح مجامع الأحباب، وأندية الأصحاب، من الصالحية والجسر والنير بين المزة والربوة، فكم كانت لنا فيها من مجالس، نتناقل فيها الأدب، ونتجاذب أطراف الأحاديث العلمية، على ود أصفى من بردى تصفق بالرحيق السلسل، ووفاء أثبت من أواسي قاسيون، وأرسى من ثهلان ذي الهضبات، لا توبَن في مجالسنا حرمة، ولا يكلم عرض، ولا يقارف مأثم، وإنما هو الأدب، بلا جدب، نهصر أفنانه، والعلم، بلا ظلم. نطلق عنانه، والفن، بلا ضن، نروّق دنانه، والنادرة، بلا بادرة نتلقفها، والنكتة بلا سكتة، نتخطفها، ويا تربة الدحداح، بوركت من تربة، لا يذوق الغريب فيها مرارة الغربة، ولا زلت مسبقطا لرحمات اللّه إنني أودعت ثراك أعزّ الناس عليّ: أبي وإبني وجدّي أولادي. فاحفظي الودائع إلى يوم تجزى الصنائع.

وياجنات الغوطة، وقراها المغبوطة، لا زلت مجلى الفطر، والحد الفاصل بين البدو والحضر، أشهد ما عشوت من الغرب إلى نار، ولا عشيت منه بنور ولأنت التي تمسكين دمشق أن تميد، ومن فيها أن يميل، تبارك من رواك بسبعة أودية، وكساك من وشي آذار بخضر الأردية، كم فتنت بمناظرك الشعرية، وأخذت بمجاليك السحرية، وكم تزّودت عيناي فيك بروضة وغدير، وكمن تمتّعت أذناي من جداولك وأشجارك بخفيف وهدير.

ويا يوم الوداع ماأقساك، وإن كنت لا أنساك لا أنسى بعد ثلاثين سنة ولن أنسى ما حييت موقف الوداع بمحطة البرامكة والأستاذ الخضر يكفكف العبرات، وتلامذتي الأوفياء: جميل صليبا، وبديع المؤيد، ونسيت السكري، والأيوبي، يقدّمون إلى بخطوطهم كلمات في ورقات، مازلت محتفظا بها احتفاظ الشحيح بماله.

عهود لم يبق إلا ذكراها في النفس، وصداها في الجوانح، والحنين إليها في مجامع الأهواء من الفؤاد ولولا أن السلو كالزمن يتقادم، وأن الهوى مع العقل يتصادم، لقلت مع المتنبي: أبوكم آدم[1]، ولقد راجعت «مذكراتي» المنقوشة في ذاكرتي فوجدتها حافظة لتلك العهود بأيامها ولياليها وأحاديثها، فليت شعري أيذكر الأحياء من إخوان الصفا، مثل ما أذكر؟ ذلك ما تكشف عنه رسالة الأخ الأستاذ محمد بهجة البيطار التي ننشر بعضها بعد هذه الكلمات، وهي التي أثارت هذه الذكريات في نفسي فكتبتها ، ليعلم هذا الجيل الذي نقوم على تربيته أن في الدنيا بقايا من الوفاء والمحبة، تتماسك بها أجزاء هذا الكون الإنسانيّ، وأنه لولا هذه البقايا لانحدر الإنسان إلى حيوانية عارمة كالتي بدت آثارها في الجماعات التي جفّت نفوسها من الوفاء والمحبة، فخلت من الإحسان والرحمة، فهوت بها المُطامع، إلى مايراه الرائي ويسمعه السامع، وإن منبت الوفاء الشرق، وإن زراعه وساقيه والقيِّم عليه هو الإسلام، وعسى أن تحمل «البصائر» هذه الذكريات إلى الإخوان الأصفياء، في دمشق فنتنادم على البعد، ونلتقي على الذكريات، ونتناشد:

وعهدا لأولئك الإخوان أني ما جفوت ولا غفوت، وأني لم أزل– منذ افترقنا– أتسقّط أخبارهم من الصحف ومن السفار، ولولا الهزاهز والفتن ما انقطع بيننا للصلة حبل.

---

(1) يقول المتنبي في قصيدة شعب بوّان:

يقول بشعب بوان حصاني	أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصي	وعلمكم مفارقة الجنان
إنا على البعاد والتفرّق	لنلتقي بالذكر إن لم نلتق

الشيخ أبو القاسم بن حلوش(*)

بلغني في أثناء الأسبوع الماضي- وأنا على فراش المرض- خبر بموت العالم العامل المصلح الشيخ أبي القاسم بن حلوش، العضو الإداري السابق بجمعية العلماء ووالد ولدنا الروحي الأديب الكاتب الشيخ مصطفى بن حلوش، بداره من ربض «تاجديت» بمستغانم.

أسفت لموت الشيخ أبي القاسم أعظم مما آسف لفقد قريب، لأن هذه الطائفة الإصلاحية التي كان الشيخ أبو القاسم أحد أفرادها إنما تتقارب على المشارب، لا على المناسب، وتتصاحب بالأرواح لا بالأبدان.

والشيخ أبو القاسم- رحمه اللّه- مصلح بطبعه وتربيته، خلق في منبع من منابع البدع، وفتح عينيه عليها فأنكرتها فطرته السليمة، وتربيته القويمة من أول أمره، ونشأ على نفور منها وازدراء لأهلها، ولقي منهم تجريحا وأذى، ولقوا منه تسفيها وإنكارا، وكان كل ذلك مزيدا في رفعة شأنه.

طلب العلم على فئة من الفقهاء المدارين المجارين للعامة في أهوائها، فأخذ ما صلح من علمهم، وهجر ما قبح من أعمالهم، ووحّد اللّه وعبده بما شرع على الوجه الذي شرع، وابتنى لنفسه مسجدا من ماله بسوق «تاجديت» يصلّي فيه بأتباعه في السيرة، ويلقي عليهم دروسا في الوعظ والإرشاد، وفيه بدأ ينشر الإصلاح العملي فنبذ البدع اللاصقة بالعبادات ولم يزل متطلعا إلى

(*) «البصائر» العدد 65، السنة الثانية من السلسلة الثانية، 31 جانفي 1949.

العلم الصحيح يطلع بدره، متشوفا إلى الحق الصريح بتبلج فجره، إلى أن ظهرت بواكير الحركة الإصلاحية العلمية في دروس الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد إبن باديس، فجهّز ولده الشيخ مصطفى حلوش لتلك الدروس ليستدرك بأحد اولاده ما فاته.

في نفسه، وأقرّ اللّه عينه ببلوغ مرامه، فكان من ذلك الولد للإصلاح ما يكون من جندي من جنوده المخلصين، فشارك بقلمه ولسانه في جميع الميادين.

عاش الشيخ أبو القاسم بعد ذلك على سمت الصالحين، يتنعم بما يرى من انتصار الحق وأتباعه، واندحار الباطل وأشياعه، إلى أن وافته منيّته راضيا مرضيّا، فرحمه اللّه وأثابه جزاء إيمانه واستقامته.

وأنا عن نفسي وعن جمعية العلماء ومؤسساتها أتقدّم بالتعزية إلى ولدنا الشيخ مصطفى حلوش وإخوانه وأهل بيته، وإلى جميع أفراد الأسرة بمستغانم وسبدو مشاركا لهم في الحزن، حاثاً لهم على الصبر، راجياً لفقيدهم الرحمة.

محمد خطاب(*)

إذا خلا الاسم من نعوت السيادة، وتجرّد أصله من حروف الزيادة، فصاحبه هوالسيد، والصرح أملأ للعيون ممرداً،والسيف أرهب للنفوس مجرّدا.

• • •

وأخونا محمد خطاب رجل من رجال الأعمال الذين لا يردّ نجاحهم فيها إلى الإرث أو المصادفات والمغامرات،وإنما يردّ إلى العصامية، والبناء المتأنّي طبقا عن طبق، ومماشاة العصر الجديد، في الأخذ بوسائل التجديد.

منقطع النظير من بين رجالنا في عدة خلال، لو تفرّقت عليهم ووجدت فيهم لنفعوا أنفسهم، وشرّفوا أوطانهم، فما شئت من حنكة وتدريب، وما شئت من خطًى واسعة في الاختيار والتجريب، وماشئت من نهزة وتشمير، لا تفوت معهما فرصة، وماشئت من ضبط للوقت لا تتجرّع معه من التفريط غصّة، إلا وجدت كل ذلك فيه، شهد الزائرون لمزارعه الواسعة بالمغرب، التي يديرها بنفسه، ويفيض عليها من عزيمته وذوقه الفنّي، أنها نموذج عال من الفن الراقي في الفلاحة، ومدرسة منظّمة يمارس فيها العملة المخلصون لأنفسهم من أساليب الزراعة والغراسة وآلات الفلح المتنوعة، كل مفيد نافع،وإنهم لكثرة ما يتعدهم بالإحسان والنصح والتدريب يعتبرون أنفسهم شركاء وزملاء لا عملة ومأجورين، وهذه هي نهاية ما تصل إليه النفوس من السموّ، والهمم من الكمال، وهذه أيضا هي نهاية ما يصل إليه الإحسان، من الرضا والإطمئنان وسدّ منافذ الحسد والحقد، ولو أن أصحاب الأعمال الكبرى

(*) نشرت في العدد86 من جريدة« البصائر» 11 جويلية سنة 1949.

ساسوا العمال بمثل هذه السياسة، لما نشأت المشكلة الإجتماعية التي قسمت العالم إلى معسكرين متناحرين.

• • •

ومحمد خطاب من الأغنياء الذين يظهرون آثار نعمة اللّه عليهم، ويحصّنونها بالإحسان فهو برّ بعماله، برّ بأمّته وبوطنه، وهو نابغة من نوابغ الإحسان، ما يتمنّى المتمنّي أن له به أمّة كاملة من هؤلاء الأغنياء الذين عنا الشاعر واحدا، منهم فعناهم جميعا، إذ يقول:

يمارس نفسا بين جنبيــه كـزةً   إذا همّ بالمعروف قالت له مهلا

ففي ماله حقوق للّه، يقسّمها على عيال اللّه، وفي ماله حقوق لأمّته، يقسّمها على مصالحها العامة، وفي ماله حقوق لوطنه الثاني كفاء لما أفاء عليه من خير، واعترافا بما لبنيه عليه من فضل الأخوّة، وحقوق لوطنه الأول، بدأت بذوي القربى والأرحام، ورفقاء الصبا والملاعب، وإنتهت عند المصالح العامة والمشاريع النافعة، والكرماء المحسنون في الأمم من نفحات اللّه، ففيهم من آثار رحمته سمة، وعليهم من شمولها سمحة، وعندهم أن غاية المال محامده وفضائله، وأن ثمرته رفع الذكر، وإعلاء القدر، وأن إدخار صنائع المعروف خير من ادخار المال.

ومن اللطائف النفسية في المحسنين أن كل واحد منهم مولع بناحية من نواحي الإحسان، تغلب على طبعه فتكون مجلى لكرمه، ومنتهى لإحسانه، حتى تغطي على النواحي الأخرى، فقد عرفنا من حاضر التاريخ وغابره أن للمحسنين أذواقا في الإحسان وفي نفوسهم اتجاهات، معلّلة في الغالب بآثار تتركها المشاهدات والتأملات في أذهانهم وعقولهم، فبعضهم يقف إحسانه على نوع من البؤساء كاليتامى أو المرضى أو الفقراء، وبعضهم يقف إحسانه

على المبادئ الفكرية أو الإجتماعية النافعة، وينتهي الشذوذ ببعضهم في الرحمة إلى أن يقف إحسانه على الحيوان الأعجم،يخفف من شقائه، أو يحافظ على بقائه.

وأخونا خطاب مولع – بعد الإحسان العام الذي فطر عليه– بالإحسان إلى العلم وتعليمه وقد ملكت عليه هذه الجهة هواه، وهام بها هيام المغرم المفتون، يفيض ذلك على لسانه وفي أحاديثه الخاصة والعامة، وإن هذا الاتجاه منه لأصدق دليل على قوّة التمييز، وحسن الاختيار لجوانب الخير التي يخصّها المحسنون بإحسانهم، وجوانب الخير تتعدّد وتتشابه، فيقع إختيار المقلّدين السطحيين على أسهلها في المراس، وأخفها في الحمل، وأقربها لمدح المادحين ، ويختار المحسنون الصادقون أثقلها محملا، وأعمّها إفادة، ولا يشك وطني صادق أن أنفع الأعمال لأمّتنا الجاهلة هو التعليم والإنقاذ من شرّ الأميّة، وأن ألف جائع تطعمهم، وألف عار تكسوهم، لا يغنون عن الأمّة غناء عشرة تلاميذ تعلّمهم تعليما نافعا، وتربيّهم تربية صالحة.

ولأخينا خطاب في إحسانه إلى التعليم فلسفة دقيقة تزيد في قيمته، وهي أنه لا يضع إحسانه إلا حيث يعتقد أنه يفيد وينفع، ولايضعه إلا في الأيدي التي تحسن تصريفه احتياطا للإحسان أن يضيع في غير مفيد للأمّة، لأن لكل عمل ظواهر تغرّ، ودجلة يستغلون ، ولكل صاف من الحق مكدرات من الباطل، وهو يرى مصيبا أن حركة جمعية العلماء هي أصدق الحركات القائمة بهذا الوطن، وأن رجالها هم أخلص الرجال العاملين لخير الوطن، وأن مبدأها هو أثبت المبادئ النابتة بهذا الوطن، لذلك آثر، من سنوات أن تكون مبرّاته المالية للعلم والتعليم على يدها، فنذر مبلغا من المال يدفعه مسانهة لرئيس جمعيةالعلماء، وهو يوزّعه، بالإتفاق مع المحسن الكريم، على أقرب وجوه

التعليم إلى النفع، وقد كانت المبرّة في هذه السنة مضاعفة، وكان النفع بها مضاعفا، نال منها معهد إبن باديس مائتا ألف فرنك، ومدرستي تونس لسكن الطلبة مائة وتسعون ألف فرنك،ومدرسة خطاب بالميلية (مسقط رأس المحسن) مائتا ألف فرنك، ونال جمعية بعثات جمعية العلماء إلى تونس مائفة ألف فرنك وصلتها على أقساط، ومدرسة الفلاح بوهران خمسون ألف فرنك، ومدرسة الأمير عبد القادر بمعسكر خمسون ألف فرنك، وجريدة« البصائر» مائف ألف فرنك.

أما مدرستا تونس لسكن الطلبة فهما داران أكترتهما جمعية العلماء لتشارك بهما في تخفيف أزمة إسكان الطلبة وأوكلت التصرّف فيهما لوكيلها الأستاذ الشيخ الشاذلي بن القاضي، وقد كانت الجمعية تدفع ثمن كرائهما في كل سنة، ولكنها في هذه السنة وقعت في ضائقة سببها استنفاد المعهد الباديسي لجهودها المالية، فتأخّر دفع قيمة الكراء عن أجله أشهرا، ولما علم بذلك هذا المحسن الكريم إلتزم أن يضاف إلى المبّرة ثمن كراء الدارين وقدره مائتا ألف وأربعون ألف فرنك للسنة ، ليخفّف بذلك حملا ناء به صندوق الجمعية وليمهّد لها سبيل التفرّغ لمشاريعها الكثيرة.

وقد طلب هذا المحسن الكبير من رئيس جمعية العلماء أن يضع له قائمة جديدة بالمشاريع التي تدخل في المبرّة للسنة المقبلة، فوقع الإتفاق بينهما على المشاريع الآتية، مدرسة الفلاح بوهران، مدرسة الأمير عبد القادر الناشئة بمعكسر، مدرسة قنزات، مدرسة وجامع حيّ «سانت أوجين» بالجزائر،مدرسة وجامع حي «بيلكور» بالجزائر، وسينال كل مشروع حظه من المبرّة في شهر سبتمبر الآتي إن شاء اللّه.

مدّ اللّه في عمر الأخ الكريم، وزاده من فضله وخيره، وأسبغ عليه أردية الصحة والعافية، وجعله قدوة في الصالحات، وكفاه كيد الكائدين، وحسد الحاسدين.

ولا يفوتنا تسجيل منقبة جديدة للأخ خطاب ، فقد جرى – أيام زيارته لنا بالجزائر في الشهر الماضي، ذكر مدرسة ندرومة العظيمة التي شيّدت في هذه السنة بمساعي رئيس جمعية العلماء، وجهّزت منها خمسة أقسام، والعزائم معقدوة على تشييد عشرة أقسام أخرى في السنتين الآتيتين، فذكر رئيس الجمعية دارا ملاصقة للمدرسة، يملكها رجل ندرومي مقيم في المغرب، تصلح أن تضاف إلى المدرسة وتخصّص للبنات فهزّت الأريحية هذا المحسن الأصيل، وتعهّد أن يشتريها من صاحبها، وهو صديقه، ويدفع ثمنها من ماله، ويهبها للمدرسة، مشاركة لأهل ندرومة الكرام فيما بنوا للعلم وشادوا.

• • •

إن الكاتب لتراجم الرجال، والمسجل لأعمالهم ، معرّض للمبالغجة وشهادة الزور فيما لهم وما عليهم، فقد يضفي عليهم أوصاف الكمال وهم عراة منها، وقد يجرّدهم منها إسترسالا مع الهوى، إلا الكاتب في تراجم المحسنين للعلم، والباذلين، للصالح، العام ، فإنه مجبر على الإتصاف بالإنصاف جبرا لا اختيار معه، وكلما هم بزيغ أو جرى مع الهوى لفّه الإحسان بعجاجته، ورجع به إلى الإنصاف مكرها، ولإحساس العرب بتأثير الإحسان وسلطانه نحلوه صفات الملك والاستعباد.

وأخونا محمد خطاب من طراز يقل وجوده في الأمم، لاسيما في مثل أمّتنا التي أفسد الجهل تربتيها ، وأنساها حقوق الأخوّة، وحقوق الوطن، وحقوق المجتمع، فوجود رجل مثله فيها يكون حجة لها، وحجة عليها، وقد وجد في

زمن تأكدت فيه حقوق المجتمع على علمائه وأغنيائه، وأشقى الأمم أمة يجبن علماؤها، ويبخل أغنياؤها ، وأشقى منها أمّة تغلط في موازين الرجال، وتضلّ عنها مواقعهم، وما يضلّها عنهم، وما يضلّهم عنها إلا المجرمون الغشاشون المشتبّهون بما ليس فيهم. وما أكثرهم في أمّتنا!...

• • •

ونحن ممن لا يجازف بكلمة الوطنية، ولا يعبث بها، فيضعها في غير مواضعها، وينحلها حتى للخائنين بقصد، والخائنين بجهل، ولكننا نشرّفها ونضعها في المكان اللائق بها.

وعندنا للوطنية موازين، فالوطني كل الوطني هوالذي ينفع وطنه بعمل، وأبناء وطنه بعلم: فالعامل المبرّز في الاقتصاد، المزاحم للغريب عن خيراته، الذائد له عن موارده وطني كامل الوطنية، وهذه الجيوش المرابطة في ثغور المدارس من المعلمين الذي ينزعون العصي من أيدي أبناء الأمّة، ويضعون فيها الأقلام، هم الوطنيون الصادقون، وهذا الفلاح المتقن لفلاحته، المجاري فيها للأوربي الدخيل، وطنيّ من الصميم، وهذا المتموّل الذي يضع ماله في قطعة أرض يحفظها ويحسن استغلالها، فينتفع وينفع أبناء جنسه، لا في مقهى يجمع الشبان على البطالة والمجانة وفساد الأخلاق وقتل الوقت بالهذر الفارغ، وطنّي من الطراز الأول.

أما الأقوال بلا أعمال، والدعاوي بلا بيّنات ، فاسم الإجرام بها أولى .

هذه سيرة رجل، ولكنها سجل عظات، ما أردنا بها مدحه، فما ذلك من عادتنا، وإنما سقناها ذكرى لمن يعد نفسه في الرجال، وليس له مثل هذه الأعمال.

محمد خطاب الفرقاني(*)

كتبنا عن هذا المحسن الفذ كلمة في العدد 86 وفصلنا القول في مبراته للعلم، شكرا لها بالإظهار وتقديرا، وحملا لغيره على الإقتداء به والتأسّي، لا مدحا لشخصه، فهو عندنا في منزلة فوق ذلك، ولا استدرارا للمزيد من برّه، فالرجل في البر على طبع أصيل، وأضيع شيء قولك للأسد أشجع، وللنجم أطلع، وإنما نحن قوّامون على العلم، مؤتمنون على حركاته القائمة، فمن البرّ به، البر بمن يحسن إليه، ويعيننا عليه.

وإن هذا العدد الخاص بالمعهد الباديسي لأدنى إلى هذا المحسن الكبير، وأليق بتخليد اسمه، ورفع ذكره، فلم يزل – حفظه اللّه يشيد بالمعهد من يوم تأسيسه، ويعدّه، كما هو في الواقع. غرة أعمال جمعية العلماء، ويتعهّده بالدعاية الحسنة، والرعاية النافعة، ويخصّه بالقسط الوافر من مبرّته السنوية، وله بعد ذلك كله، رأي صحيح في حياته وإستمرار سيره يوافق رأينا، وأمل واسع في وسائل ترقيته يطابق أملنا، وستحقّق الأيام ذلك الأمل، فإن وعود المحسنين أمثاله كالقبض باليد.

ولهذا المحسن البر صلة روحية متينة بإمام النهضة المبرور الأستاذ الرئيس عبد الحميد إبن باديس، كانت تحمله على زيارته إلى قسنطينة علي بعد الدار ، مع صلات من البر للمشاريع كصندوق الطلبة إذ ذاك.

وله كذلك صلة ود وإعجاب بمدير المعهد الأستاذ الشيخ العربي التبسي، انضاف إليها حب للمعهد وإعجاب به، فتجشّم زيارة الأستاذ المدير في المعهد في أواخر شهر جوان الماضي، وطاف بأقسام المعهد ورأى بعينه بعض

(*) البصائر، العدد 90، السنة الثانية من السلسلة الثانية، 5 سبتمبر 1949م.(بدون إمضاء).

مواقع إحسانه، وتفاوض مع الأستاذ المدير في شؤون المعهد وحاضره ومستقبله، واجتمع المحسن بماله والمحسن بعلمه على القربى في الخلال، والاستعداد للكمال، والامتداد في الآمال. وخرج الزائر الكريم مزهوا فخوراً بأن يكون لوطنه ولقومه من حصون العلم مثل هذا الحصن، وأن تكون له يد في وضع أحجاره، وتعمير حجراته، محدثا عن مشاهدة وعيان، مؤمنا بأنه أصاب موقع الصنيعة.

ومما فاتنا ذكره في المقال السابق عن هذا المحسن نكتة تتباهى بها الأمم التي بلغت في الإحسان إلى العلم شأوا مغربا، وهي أنها لا تقف به عند الحدود الإقليمية الضيّقة، بل تتسع فيه اتساع العلم وتجعله كالمطر، لا يبالي أين وقع، مادام ينفع حيثما وقع، وأخونا خطاب من ذلك الطراز الذي لم يقف بإحسانه عند حد، فله على الطلبة الجزائريين المهاجرين إلى القرويين آثار من الإحسان على يد الجمعية الجزائرية المكونة من إخواننا الذين شرفوا وطنهم الجامع أينما حلّوا، وله على إخوانهم الزيتونيين مثل ذلك، وله على المؤسسات العلمية في الجزائر ما بينّا بعضه للقرّاء في المقال السابق.

إن هذا الصنيع، لعمر الحق، من هذا المحسن لخطوة في التقريب بين الإخوان، والتقارب بين الأوطان، وهي الأمنية التي عمل الصالحون منّا لتحقيقها، فمنهم من قضى نحبه متحسّرا على فوتها، ومنهم من ينتظر تحققها.

ألا إن الثناء على محمد خطاب ثناء على جميع المحسنين إلى المعهد، لأنه رمزهم الأعلى، فلكل محسن حظه من هذا الثناء وإن لم يذكر اسمه، لأن الإحسان كالحرفة، ومن مدح حرفتك فقد مدحك، وإن لم يعرفك، فلا يظنن إخواننا في الحق وأعواننا على الخير، أننا نسيناهم أو بخسناهم حقّهم.

وسلام على أخينا خطاب في المحسنين، وسلام على إخوان لنا في المغرب وتونس يعملون لنشر العلم متعاونين، ويسعون لتوحيد وسائله وآثاره جاهدين.

دمعة على المنصف (*)

يعزّ على هذا القلم الذي لايكاد يجف مداده، ولا تنقطع من القريحة أمداده، أن تصاب تونس العزيزة في مناط أملها ، بل في نياط قلبها، فلا يسمع له جرس، ولا يصرّ بكلمة على طرس.

يعزّ على هذا القلم الذي براه الباري لينضح العسل المصفّى للمقسطين، وينطف الصاب والحنظل للقاسطين، ويرسل الحمم مدرارا على المستعمرين، أن تنتهي مظلمة المنصف إلى غايتها الشنعاء من موت الغربة، ومهانة الأسر، وتعنّت الاستعمار، فلا يشنّها شعواء على التعنّت والمتعنتين.

يعزّ على هذا القلم الذي شدّ الحق أزره، وسدّد المنطق رمايته، أن يموت المنصف غريبا، مظلوما، مسلوب التاج، فلا ينفث كلمة تبعْث الشجى وتثير الشجن وتحلّ عقدة الرواية.

يعزّ على هذا القلم أن يصرخ الناعي لموت المنصف فلا يجري، وأن يثوّب الداعي بمري الشؤون فلا يمري، وأن تَطيرَ نفس تونس الولهانة شعاعا فلا يتقسّم شظايا، وأن يجب حق الجار فلا يكون أول الناهضين بفرضه.

يعزّ على هذا القلم أن تقف به الأقدار موقف السيف من يد الجبان، وأن يقعد من ورائه كلال الذهن، وجمود القريحة، وفتور الأعصاب حائلات بينه وبين القيام بالواجب.

(*) نشرت في العدد 49 من جريدة« البصائر»، 13 سبتمبر سنة 1948.

لو مات المنصف بالأغواط[1]، لطافت بجثمانه عدة أشواط، ولذهبت فيه مذهب العرب في «ذات أنواط» ولغسلته بالعبرات المسفوحة، وكَفَّنَتْهُ بألفاف القلوب، ودفنته في مستقرّ العقيدة والواجب من نفوسها.

ولو مات «بتنس» لَتاهَتْ فخرا على الثغور، وباهت بيوم موته أيامها في غابرات العصور، ومحت بهذه المنقبة جميع ما وسمها به الشعراء من شين، ووصموها به من نقص.

ولو مات بأية بقعة من أرض الجزائر لكانت هي تونس نضرة واخضرارا، ولاكتسبت الجزائر بجميع أقطارها شرفا ممن مات ميتة الشرف فيها، ولقبست معاني عالية من الفداء والتضحية بَعُدَ عهدها بمثلها، ولفغمتها نفحة ساطعة من عزّ الإمارة حرمتها الأنوف الشمّ من أبنائها منذ أيام عبد القادر، ولتسمّعت نغمة ساحرة عطلت آذانها منها من عهد عهيد.

إي واللّه، ولو مات المنصف في الجزائر لمات في وطنه، وبين أهله، وفي أمة وفية متعطشة للعزّ والسيادة، مستشرفة الى حيث تنقطع علائق الطموح، لا يقل تقديرها للعظماء أمثال الفقيد عن تقدير أختها تونس لهم، ولا يقصر فهمها لمعاني العظمة في الرجال عن فهم أختها تونس لها، ولكنه مات بـ«بو» في دار غير داره ووطن غير وطنه وناس غير ناسه، لم يستنشق مع حشرجة الموت نفسا من أنفاس وطنه العزيز، الذي لقي الأذى في سبيله، إلى أن مات في سبيله، ولم يكتحل عند إغماضة الموت بمنظر من تلك المناظر التي كانت هوى قلبه، وشغل خواطره، وصبابة نفسه، ولم يتجرّع مع غصة الموت نطفة من ذلك الماء الذي كان يحمي حوضه، ويحرّم على المكدرين خوضه.

---

(1) الأغواط واحة جميلة في الجنوب الجزائري، اختارتها فرنسا منفى للمنصف، ثم نقلته منها إلى مدينة «تنس» الواقعة على شاطىء البحر غربي مدينة الجزائر، ثم نقلته إلى قرية«بو» بالجنوب الغربي لفرنسا.

ومازالت الموارد للحتوف موارد ، ومازالت الدنايا تحلى المنايا! ومازالت الأوطان محتاجة الى هذا النوع السامي من الهمم والعزائم، وإلى هذا الطراز العالي من الرجال، وإلى هذا النوع اللطيف من أنواع الموت! وإلى هذه الدماء الزكية التي تثعب حمراء كالحرية، نقيّة كعقيدة الحق، تجري فتكتسح ما في نفوس الأمم من خور وفسولة.

إن موت العظماء حياة لأممهم، فإن كانت في الغربة زادت جَلاَلاً وجَمالاً، فإن كانت نتيجة للظلم زادت جمالا، فإن كانت في سبيل الوطن كانت جلالا، فإن صحبها سلب العز والملك كانت حلية وكمالا، وكل ذلك اجتمع في موت المنصف.

مات نابليون غريبا في جزيرة القديسة «هيلانة»، ونابليون ممن زادوا في تاريخ فرنسا صحائف بيضاء، وفي مجدها الحربي أساطين رفيعة، فما كانت موتته الغريبة ثلمة في فرنسا لأنه مات وفرنسا بيد الفرنسيين.

ومات عبد الحميد أسيرا في سِجْنِه –وعبد الحميد أكثر أسماء الخلفاء سيرورة على الأفواه– فما بكت عليه السماء والأرض، لأنه مات وتركيا بيد الأتراك.

ومات غيرهما من الملوك والعظماء في غربة وظلم، فكان من ورائهم ما يخفّف الفجيعة فيهم، ويلأم ببعض العزاء ما تصدع بموتهم.

ولكن... ولكن موت المنصف في قرية نائية من قرى فرنسا– غريبا عن وطنه وأمّته، مظلوما في عرشه وملكه، مسلوب التاج، مخفور الذمام– مصيبة يزيد في معناها الشنيع معنى، وهو: أنه مات وتونس ليست للتونسيين!! وأنه مات وتونس ليست طليقة، وهي بالانطلاق خليقة!

• • •

عزاء للوطن المفجوع فيك يامنصف، وسلوى للقلوب المكلومة بموتك —وما أكثرها— يامنصف! وجزاء تلقاه في هذه الدنيا طيب ذكر، وعند ربّك ثمين ذخر، وهيهات أن تجزيك الجوازي من هذه الأمة التي نهجت لها نَهْجَ الكرامة، وشرعت لها سَنَنَ التضحية ولقّنتها هذا الدرس السامي من الثبات والإباء والشمم، وعلّمتها كيف تموت الأسود جوعا وظمأ، ولا تَطْعَمَ الأذى، ولا ترد القذى.

• • •

جهد المقلّ يامنصف! ونظار حتى يعاود النشاط هذا القلم، وينحسر الركود عن هذه القريحة، وتنجلي غمرة الأسى، وَيَتَوافَى القلم والقريحة على تجلية العبر، من سيرة ليست كالسير.

الفضيل الورتيلاني (*)

-1-

الأستاذ الفضيل الورتيلاني ممّن أنبتتهم هذه النهضة الجزائرية المباركة نباتا حسنا، فعمل بإخلاص في ميادين الجهاد في الجزائر ثم نبت به الديار، فنزل مصر، وجال في ربوع الشرق كلها جولات، رفعت صوت الجزائر عاليا في تلك الربوع، وكونت منه زعيما جزائريا بحق، وشخصية بارزة لها مقامها المعلوم بين رجالات الشرق كلهم، ولقد حزّ في نفوس شرذمة من المغرضين في الجزائر ما أحرزه الورتلاني من النجاح في الأوساط السياسية بالشرق، فراحوا يتقوّلون عليه الأقاويل ويتهمونه في إخلاصه وجهاده للنيل منه ومن جمعية العلماء المسلمين التي يحاولون ثلبها في مفخرة من مفاخرها، والتنقيص من مقامها في شخص أحد أبنائها البررة.

وقد فضح الله هذه الطائفة المغرضة وأضلّ سعيها بهذا المقال القيّم البليغ الذي بعث به إلينا مدير اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، الأستاذ محيِ الدين القليبي، الزعيم التونسي المعروف.

-2-

الفضيل الورتيلاني نشأ نشأة الصبا والحداثة في أحضان الفطرة الطاهرة وفي أحضان الجبال الشماء، فاكتسب من الأولى قوّة الروح، وصفاء العقيدة والصلابة في الدين، ومن الثانية قوّة الجسم، ووثاقة التركيب، وسلامة

(*) البصائر، العدد 97، السنة الثالثة، 5 ديسمبر 1949.

الحواس، ثم نشأ نشأة الشباب في أحضان جمعية العلماء، ففتح عينيه على الميادين العامرة بأبطالها، وفتح أذنيه على الأصوات المجلجلة بالعلم والإصلاح، من دروس عامرة بحقائق التنزيل والحكم النبوية، ومحاضرات بليغة في التاريخ الإسلامي والأدب العربي، تفيض بالبيان الساحر وتتدفق بالبلاغة الرائعة، فنشأ مؤمنا متين العقيدة، حرا عميق الفكر، صريحا لاذع الصراحة، جريء اللسان على كلمة الحق، شجاع الرأي إذا جمجمت الآراء وتخافتت، غيورا على وطنه غيرته على دينه، إذن فهو معدود من بواكير هذه النهضة المباركة في الجزائر، رافقها في جميع مراحلها وشارك- على فتوته- الشيوخ المحنكين في بنائها.

لازم إمام النهضة عبد الحميد بن باديس سنوات، فتأثر بمنازعه في الخطابة ومواقفه في حرب الضلال، وسقيت ملكته بغيث ذلك البيان الهامي فأصبح فارس منابر، وحضر اجتماعات جمعية العلماء العامة والخاصة، فاكتسب منها الصراحة في الرأي، والجراءة في النقد، والإحترام للمبادئ لا للأشخاص ثم لابس السياسيين ، وغشى مجتمعاتهم فرأى من زيغ العقيدة وزيف الوطنية وانحلال الأخلاق- نقيض مارأى من رجال جمعية العلماء، فثار عليهم ودهوا منه بباقعة، وكان الأستاذ الرئيس يقدر له- وهو في الحداثة- عواقب الرجال، ويتخيل فيه مخايل الأبطال، ويقول له كلما رأى منه مخيلة صدق: (لمثل هذا كنت أحسيك الحسا)(*).

ثم جاوز البحر سنة 36 ميلادية، بموافقة من الأستاذ الرئيس ومني ليرد على الضالين من أبناء قومه هداية الإسلام، وليرد على الناشئين هناك من أبنائهم ما أضاعه الوسط من دين ولغة، وليزرع في قلوب الآباء والأبناء معا حب الدين

(*) البصائر، العدد 110، السنة الثالثة من السلسلة الثانية، 6 مارس 1950.

والجنس واللغة والوطن، وليعيد إلى الجزائر- بذلك كله- قلوبا تنكرت لها، وأفئدة هوت إلى غيرها، وغراسا أظمأه الإستعمار في مغارسه فالتمس الريّ والنماء في غيرها، فتتبعهم الفضيل في مطارح اغترابهم وجمع شملهم على الدين، وقلوبهم على التعارف والأخوة، وجمع أبناءهم على تعلم العربية وأسس في باريز وضواحيها بضعة عشر ناديا، عمرها هو ورفاقه الذين أمدته بهم جمعية العلماء بدروس التذكير للآباء والتعليم للأبناء والمحاضرات الجامعة في الأخلاق والحياة، ونجح الفضيل في أعماله كلها نجاحا عاد على المسلمين في فرنسا بالخير والبركة وعاد على جمعية العلماء بالسمعة العطرة والدعاية الطيبة، وكان في تلك المدة كلها متصل الأسباب بجمعية العلماء مراسلة وإستمدادا وإشارة وإستشارة، وقد رجع في أثنائها إلى الجزائر، كلما إنعقد اجتماع أو حزب أمر، ومازلت أذكر حضوره في اجتماع الجمعية صيف سنة 37 وحضوره على إثر ذلك افتتاح مدرسة« دار الحديث» بمدينة بتلمسان، وخطبته، في ذلك الحشد الذي ضم عشرين ألفا بعد سماعه لقصيدة الشاعر محمد العيد، وحملته الجارفة على التجنس والمتجنسين.

وفي سنة 38 فيما أذكر هاجر إلى مصر مستزيدا من العلم والتجارب، مستجمعا قوته للعمل في ميدان أوسع وجو أصفى: وكانت له المواقف المشهودة والرحلات الموفقة الى الأقطار العربية، وكان في تلك المدة كلها متصلا بنا على قدر ما تسمح به ظروف الحرب، إلى أن وقعت حادثة اليمن، وشاءت الأقدار أن يكون ضيفا عليها ، وأن تكون في أول إتصالاته بها، وشاءت ألسنة الشر وطبائع السوء أن تحشره في زمرة المتهمين بتدبيرها، وشاءت فئات من مرضى الجسد وصرعى الغل والحقد أن يتخذوا من تلك التهمة المتهافتة الشواعد ذريعة للنيل من سمعته والقدح في كرامته وشرفه،

ثلة من المشارقة، وقليل من المغاربة، وكنا سمعنا أخبار الحادثة في حينها وخبر الإتهام، فلم نستطع مع جزمنا بكذبه، دفعه بالقول ولا بالفعل وسمعنا، بعد ذلك ما لاكه أولئك الحسدة وردّدوه، فلم نشأ أن نوسع فريتهم نقضاً ودحضا لعلمنا اليقين بأسباب الحادثة، وعلل الاتهام، وبالمحرك لهؤلاء الناعقين، ولمعرفتنا بالفضيل وظواهره وخوافيه، وادخرنا رأينا وقّوتنا ودفاعنا إلى الفرص المناسبة.

ولكن الوفاء توأم الصدق، والحق يفجأ أنصاره بالعجائب، فقد اراد اللّه أن يلجم المتخرصين وأن يجر ألسنتهم بوفيين من اخوان الصدق وأخذان الحق، وأن تكون «البصائر» هي مجلى هذه الحقيقة، فرماهم بالأمس بكلمة الأستاذ محيي الدين القيلبي التي كشف فيها عن بعض الحقيقة كشف الخبير المطلع، ورماهم اليوم بهذه المقالة التي نقدمها بهذه الكلمات، وهي من رجل عبقري لا يفري أحد فريه في هذا الموضوع، وهو الأستاذ رشيد أمين سنو، صاحب جريدة «بريد اليوم» البيروتية، وقد كان موظفًا مؤتمنًا في حكومة اليمن، ووقعت الحادثة وهو بها، فشاهد من حقا ئقها وآثارها، وعلم من أسبابها وملابساتها وأسرارها مالم يشهده ولم يعلمه واحد ممن كتب عن الحادث رجماً بالغيب، أو رواية عن ضنين، أو صُدُوراً عن هوى.

و«البصائر»تقدم تعريفًا موجزاً بهذا الرجل قبل كلمته ليعلم قراؤها في المغارب من هو هذا الرجل، فيزدادوا ثقة بآرائه، وتأكداً من صدق روايته، وإيمانًا بمكانته وكفاءته، زيادة عما يجب علينا من عرفان أقدار رجالنا، ومن تعميم التعارف بين أبناء الضاد أينما كانوا.

الأستاذ الكاتب العالم رشيد أمين سنو من عائلة سنو الشهيرة في لبنان، هو اليوم المدير العام للشركة العربية للنشر والتوزيع، كاتب وأديب وشاعر

يحمل شهادة الليسانس في الآداب، وتقلب في وظائف كبيرة عديدة، كان أستاذاً للفلسفة في الكلية العلمانية في «طرطوس»، ثم مديراً لكلية المقاصد الإسلامية في «صيدا» ثم مفتشا عامًا في أيام الحرب للتموين في سوريا ولبنان، ثم رئيسًا لتحرير جريدة «بريد اليوم» اليومية، ثم تولى بناء على طلب حكومةاليمن وظيفة المدير العام للإذاعة والنشر في اليمن، حيث قضى سنة كاملة ثم أوفدته الحكومة اليمنية في مهمة خاصة في بعض الأقطار العربية في صيف سنة 1947، وبعد إنجاز مهمته عاد للمرة الثانية إلى اليمن، وظل هنالك حتى وقعت الثورة ولم يتركها الاّ بعد الثورة بنحو شهرين، وكانت صلته بالأستاذ الفضيل الورتلاني طول هذه المدة وثيقة مستمرة [1].

(1) نشرت كلمة الأستاذ رشيد سنو بنفس العدد من «البصائر» عقب كلمة الشيخ.

إلى الزاهري(*)

كتبت أيها الشيخ - كثيرا من الباطل، وسنكتب قليلا من الحق، ولكنّ قليلنا لا يقال له قليل، ولو كنت وحدك، تكتب بقلمك، وتقول بلسانك، وتعبّر عن فكرك، لأوليناك جانب الإهمال، وسكتنا عنك طول العمر كما سكتنا عنك في ماضيك القريب، وفي ماضيك البعيد، احتقارا لشأنك، واستهانة بما أهان اللّه منك، وربّما عذرناك في مجانبتك للصدق بأنك لا تعرفه، وإنما يؤاخذ الإنسان بترك ما عرف،وربّما أثنينا عليك بالوفاء، للصاحب الذي صاحبك منذ عقفت التمائم، وهو الكذب، وباستقامتك على الجبلة التي جبلت عليها، وهي الشر، وبالموهبة التي خصصت بها، وهي البراعة في قلب الحقائق، وربّما رحمناك من هذه النار التي تصلاها، وهي نار الحقد، ومعذرة.. فإن من الميسور أن نطفى النار ذات الوقود، وليس من الممكن أن نطفي الحقد من صدر الحقود، وهنيئا لك هذا الذوق اللطيف في أخذك بأحد بيتي إبن الرومي في الحقد، وهي قوله:

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى　　　وبعض السجايا ينتمين إلى بعض

وتركك للبيت الثاني وهو قوله:

فحيث ترى حقدا على ذي إساءة　　　فثم ترى شكرا على أحسن القرض

فلم تقصر حقدك على من أساء إليك، ولم تشكر من أقرضك القرض الحسن، وإسترحت من حيث تعب الكرام.

(*) نشرت في العدد 61 من جريدة «البصائر» 27 ديسمبر سنة 1949.

وإذا فهمنا مذهب إبن الرومي كما فهمته، فكل هذه الخصال البارزة فيك فضائل، وآمنا وسلّمنا وقلنا: سبحان المنعم الوهّاب.

ولكن شأننا اليوم مع هذا الشبح الذي تختفي وراءه حينا، ويختفي وراءك حينا آخر، فقد تشابهتما وتشاكل الأمر، وقد إنعقد بينكما نوع غريب من الحلول، لم يعرف في جاهلية ولا إسلام، فأنت تتكلم باسمه، ولست إياه، وهو يتكلم باسمك،وليس إياك. ليجد كل واحد منكما في صاحبه ملتحدا يدفع عنه المسؤولية، ويحمل عنه التبعة احتيالا ومكرا السيء ثم تبوءان بالسلامة معا.

إننا إن أخذنا بمذهب الفقهاء عاملناك بما قالوه في المتسبب في الجريمة والمباشر لها، وإن أخذنا بمذهب الأدباء، عاملتاك بما تسلمه معنا، وهو أن قائل الشر هو الشاعر الإنسي، لا رئيه، الجنّي، ولا واللّه لا نبرح هذه المرة حتى نهدم الصومعة على رأس الراهب، فإن بيت اللّه- في جلاله، لا يجير عاصيّا ولا فاراً بخرية وما كانت صومعتكم بيت اللّه، ولا كان راهبكم أبا عزّة في قومه.

أفتظن – ياشيخ- أنك إستعذت من هذا الشبح بمعاذ؟ أم يظن هذا الشبح أنه تقلّد من قلمك سيفا من فولاذ؟ وماهو إلا سيف أبي حية، ولو سمّيته- كما سمّاه- لعاب المنية.

إنك وذلك الشبح تعيشان في بقية من التقية ، ولو كنتما صريحين لقلتما لنا ماهو الحق: أأنت مدير أم مدار؟ وأنت المكتري أم صاحب الدار؟ ولبيّن لنا ذلك الشبح منزلتك عنده: أأنت عبد مأمور، كما يقول بعض الناس؟ أم أنت عامل مأجور، كما يقول آخرون؟ . . . إن أرذل الرجال، من يتطرق إليه مثل هذا الإحتمال،أما الحقيقة فهي أنكما شريكان في جريمة السب والكذب وقلب الحقائق: منك الألفاظ لمكانك في الكتابة، ومنهم المعاني لمنزلتهم

في الأمية والتعجرف، أما تلك الأسماء، التي تنعل بها بعض كلماتك، فاغرر بها من لا يعرفك ولا يعرفها... إننا لم ننس يوم كنت تنسب مقالاتك في «الوفاق» إلى الأستاذ «بوشاقور» والأستاذ «بوشنتوف» والناس كلهم يعرفون من هما، وما هي دركتهما في الأمية ولو صحّ فألك واشتق من الكاتب الواحد كتّاب، كما اشتق من اللفظ ألفاظ، لامتلأت الجزائر بالأساتذة والكتّاب، ولكذبت الإحصاءات الرسمية في عدد الكاتبين والأميين بهذا القطر، ورحم اللّه أهل الحياء.

وأما قول أحد أسيادك في تصريح له بجريدة «الأسبوع»: «إن جريدة الزاهري تناصر حركتنا، فهو سبّة لك ولحركته معا، ولولا أن تقول - كعادتك، إن هذه وشاية بين متحابين، لشرحنا لك المنطوق من تلك الكلمة والمفهوم.

ونحن نتمنى لكما دوام الألفة والمحبة، وندعو لكما بذلك، وإن كانت أمنية لمحال ودعاء في ضلال، فما عهدناك تصبر على طعام واحد وما عهدنا أسيادك يسقون الشجرة بعد جنْي الثمرة.

إن أسيادك -ياشيخ- بارعون في استغلال المواهب والكفاءات والاختصاصات، ولو كنت من أصحاب المبادئ الثابتة لما صحبوك ساعة من نهار، ولكنهم يستغلّون -إلى حين- اختصاصك في السب والكذب والبهت، وتستغل أنت -إلى حين- جندَهم المسخّر لبيع « المغرب العربي» (وماأكثر باعة المغرب العربي فيهم) ولعلّك أعجبك منهم أنهم قوم محظوظون في الزعامة، فطعمت أن تصبح زعيما بالمجاورة أو التوهّم كما قالوا في «جحر ضب خرب» وفاتك أنّ شروط الزعامة عندهم أربعة، وأنت لا تملك منها إلا واحدة..

• • •

قد كان يسعنا أيها الشيخ أن نعمر سنتنا بالأعمال، وتعمرون سنتكم بالأقوال، فإذا جاء رأس السنة وحلّ وقت الحصاد، قلنا: هذه أعمالنا، وقلتم: هذه أقوالنا، وعرضنا البضاعتين على الأمة لتنظر وتحكم أيهما أزكى طعاما، وأعظم عائدة، ثم قلنا لكم: سلام عليكم، وكل عام وأنتم سبّابون عيّابون، كذابون، ورجع كل منا إلى مايسر له، وكان يسعنا أن نبدأ من هذه السنة فنعفيكم من السنوات الماضية من تاريخكم التي هي سنوات مغسولة، لا نقطة فيها ولا حرف، وإذا وضعت الأعمال في كفة والأقوال في كفة، وهبط الثقيل وإرتفع الخفيف، علّل الفارغون أنفسهم بأن ارتفاع الفارغ ارتفاع، وقد شهد الناس بأنه ارتفاع، وكفى، أهذا هو المنطق أيها القوم؟

كان يسعنا هذا، وكان مما ركب في طباعنا هذا، ولأجله سكتنا على تحرشكم المستمرّ سنوات، وفي إستطاعتنا أن نسكت سنوات أخرى لو أنكم أقتصرتم على السب والكذب الذين يهدمان صاحبهما قبل أن يهدم بهما الناس، ولكنكم أقمتم لنا الدلائل من أقوالكم وأعمالكم على أنكم تحاربون العلم والدين بسبّ العلماء، وتحاربون التعليم بإفساد المعلمين وأنكم تصدرون في ذلك عن عمد وإصرار، وأن لكم خطة مرسومة في الاستيلاء على جميع المشاريع بقصد إفسادها وتعطيلها لأنكم لا تحسنون تسييرها كل ذلك ليخلو لكم وجه الأمة، وتحلو لكم أموالهما، وإن هذه المقاصد منكم لم تبق خافية حتى على الصبيان.

إنكم أصبحتم كأصنام البابليين التي قال فيها إبراهيم: (**رب إنهن أضللن كثيرا من الناس**) ولو كان إضلالا في السياسة لهان الأمر ولكنكم جاوزتم إلى ميادين ليست من اختصاصكم، وتقحّمتم في مسالك لا تحسنون السير فيها، وافتضحت نيّاتكم المبيتة فاحوجتمونا إلى هذا، وإنكم لتعلمون أن-فتح هذا

الباب لا يعود بالخير علينا ولا عليكم، ولا على الوطن الذي أكثرتم في التدجيل على الأمة باسمه، ومن لنا بالدليل على أنكم مخيّرون لا مسيّرون؟

ويحك– ياشيخ– وويح أسيادك. أكّل هذا الجهد الذي تبذولونه في حرب جمعية العلماء، معدود عندكم من خدمة الوطن ؟ أكل هذا الاسم الواسع الذي انتحلتموه لجريدتكم لم يتّسع إلا للتحرّش بجمعية العلماء والتعريض بها و برجالها ؟

إن « المغرب العربي» محتاج إلى غير هذا، وإن كلَّ جزء من أجزائه في حاجة شديدة إلى جمعية كجمعية العلماء ورجال كرجالها، فإذا طوّعت لكم أنفسكم أن تكونوا سبةً على هذا الجزء من المغرب، فلا تكونوا سبةً على بقية الأجزاء، ونزِّلوا أنفسكم منزلة ذلك الذي كان يحلف بالقرآن وهو لا يحفظ إلا ربعه، فقال له قائل : «احلف بربعك»... أم تظنون أن سكّان المغربين، الأقصى و الأدنى، يصدقونكم إذا قلتم: إن جمعية العلماء تخدم الاستعمار؟ أتظنونهم يتركون يقينهم لا فترائكم ؟ وهم يكادون يطيرون إعجابًا بأعمالها وحملاتها الصادقة على الاستعمار

ويحك وويح أسيادك... فارقتم الحياء فراق الأبد، فتحالفتم مع الاستعمار على حرب جمعية العلماء، وركبتم كل عظيمة من المباهتة وقلب الحقائق وإلصاق كل نقيصة فيكم بنا، فهل أمنتم منا أن نجاريكم فنخلع الحياء شهراً من السنة أو يومًا من الشهر أو ساعة من اليوم فنرميكم بأحجاركم؟

لقد كنتم تسبوننا بألسنتكم في المقاهي ومجالس السوء، وتلقّنون صبيانكم سبّنا، حتى أصبحت أفواههم مستنقعات... فلم يُقنعكم ذلك لأنه سبُ بالمجان، فارتقيتم إلى سبّنا بالكتابة لتتّخذوا منها سلعةً للبيع، ووسيلة لجمع المال . وتضيفوا إلى الهلال الأحمر هلالاً اسود... ومنّ الغريب

المضحك أنكم تعتمدون في بيع السب على السّب، فقد شهد العقلاء أن تسعة أعشار جريدتكم لا تُباع إلا بالسب والتخويف والتهديد وما يُشبه الإكراه، وأن العشر العاشر فقط يباع بالتغليظ والتضليل (وعلى النيف)[1]. إن هذه لحقيقة لا تستطيعون إنكارها وتكذيبها إلا بالعمل. ولو فعلتم وتركتم بيعها للرغبة والاختيار- كما تباع الجرائد -لأفلست في أسبوع، فجربوا إن كنتم منصفين.

أيها القوم: إن الوطن الذي تتوقف خدمته على بيع السب والكذب لوطن مخذول سلفاً، وإن الحزب الذي يريد أن يكمل بتنقيص غيره لحزب ناقص أبداً، وإن السياسة التي تغذّى بمثل هذه المطاعم لسياسة ميتة ... بالجوع.

أتذكر -ياشيخ- ماضيك الصحافي، وصحائفك الماضية التي تهاوت في مثل عمر الزهر، من «الجزائر» إلى «البرق» إلى «الوفاق» وقد ماتت كلها بالهزال والتسمّم ولو كانت مما ينفع الناس لمكثت في الأرض، فاحتفظ بما بقي من أعدادها، فسيحتاج الناس إلى ما فيها يوم ينكس الله طباعهم، ويطمس على بصائرهم، فيصبح السب والكذب عندهم من الفنون الجميلة، فيشيدون المعاهد العالية لتعلّمها، ويقتبسون النماذج الرفيعة من تلك الجرائد.

أتذكر يوم ضاقت بك الحيل فعرضت همّتك وقلمك في المزاد العلني فكنّا أزهد المشترين فيك؟ كن شريفا ولو لحظة من عمرك وأعترف بهذه الحقيقة ألم ننصحكم نصيحة لو أحيا الله أبويك لما نصحاك بمثلها؟ ولكنها ضاعت كما تضيع المِنّة عند غير شاكر، ألم تفترص الفرصة حين خطبناك في صندوق الحروف، الذي تملكه لنطبع من «البصائر»، بالبيع أو بالكراء، فأخذت منّا عشرة آلاف فرنك لتفكّ بها رهن الصندوق من الطابع الإسباني،

---

(1) وعلى النَّيف: النَّيف هو الأنف، أي حَمِيّة.

وكنت عاجزا عن فكّه بستة آلاف فرنك؟ فلما حصلت عليه اشتططت وشرطت قرض مائتي ألف فرنك في مقابلة كراء الحروف، فلما يئست منا عرضت نفسك على دكتورين لهما ماضي عريق في خيانة الوطن لتخدم ركابهما وتزكيهما في الخيانة في مقابل قناطير من الورق منّياك بها، فلما لمناك على ذلك قلت لنا بالحرف: «ما نكذبش عليكم، أنا نتبع مصلحتي المادية حيثما كانت» والجملة الأولى هي لازمتك المعروفة عند جميع الناس، وهي لازمة كل كذّاب» إذا لا يكثر من نفي الشيء إلا المتّصف به ، ثم كنت متشوّفا إلى خدمة من تسمّيهم اليوم باللائكيين، ولو أعاروك التفاتة، أو أشاروا إليك بغمزة، لكنت اليوم من عبيدهم المطيعين ولكانت اللائيكية، في نظرك ملائكية، ثم عرجت على الشيوعيين، ولهم معك ماضي معروف، فوجدتهم أيقاظا، ذاكرين لذلك العهد، مثنين عليك بمثل ريح الجورب، ولو آنست في ذلك العهد من جانب الطرُقية نارا، لقلت في غير تردّد: إني أجد على هذه النار هدى، ثم وقع بك الحظ على هؤلاء القوم أو وقع بهم عليك، وهم لم ينسوا ماضيك معهم، وإنما يتناسونه لأمر ستنجلي عنه الغيابة، يوم ينكفئ القدر بما فيه من صبابه، فهل فكّرت بعد هذه الأطوار أن تستقلّ بجريدة لا تناصر بها حركة ولا سكونا، ولا تعتمد فيها على شخص ولا على حزب؟ وهيهات... إننا نقامرك – مع الأسف– بما شئت من المال الذي تتحلّب شفتاك شوقا إليه، وتحسدنا على جمعه وتفريقه، وتتساءل في حيرة المشتاق: أين يذهب هذا المال؟ نقامرك على أن تصدر جريدة ليس عليها إلا اسمك ووسمك، وليس لها إعتماد إلا على قيمتك الشخصية وسمعتك الإجتماعية، فإن راجت المائة الأولى من العدد الأول قمنا لك بالشرط وإن ثقل، وبؤت بفائدتين: المال ومعرفة أين ذهب بعض المال.

أيها الشيخ:

«إن البلاء موكل بالنطق» وإن من قال كل ما يحبّ، سمع بعض ما يكره، وإن من اشتغل بالنّاس، يوشك أن يشغله الناس عن نفسه، وإنك ستتجنى وتتّهم وتتعنّت وتذهب في التأويل كل مذهب، ولكنّك لا تأتي بشيء جديد، فكل ما تقوله غدا قد قلته أمس مكررا ومعادا، وأنت امرؤ بادي المقاتل لخصومك، بادي الهنات لأصدقائك، ومن كان مثلك لم يضر عدوّا، ولم يسرّ صديقا.

هذا بعض حقّك علينا أدّيناه معذورين، أما حقّ أصحابك فسنؤدّيه معذورين ومشكورين.

الأستاذ علي الحمامي(*)

-1-

كانت«البصائر» في الأسبوع الماضي تتأهب للصدور حين بلغها نبأ الفاجعة، فأسرع الأستاذ أبو محمد،وكتب كلمة حزينة صور فيها وقع المصاب الجلل في القلوب، وأثر الخطب الداهم في النفوس، وأودعها شعور هذا الشمال بالكارثة الفادحة التي كان من شهدائها الأبرار ثلاثة من أبطال المغرب العربي، وهم الأساتذة: علي الحمامي والدكتور ثامر، ومحمد بن عبود سقطوا ثلاثتهم بجنب ثلة من رجال الباكستان وممثلي الأقطار الإسلامية في ذلك المؤتمر الإقتصادي الكبير الذي جلا صورا صادقة لعظمة الباكستان وجوانب نهضتها الإقتصادية الواسعة، ورسم للعالم الإسلامي ما إن تمسك به نجا من خطر الغزو الإقتصادي الأجنبي، فلم يخش بخسا ولا رهقاً.

واليوم نعود وكلنا أسف وحسرة فننشر هنا كلمة ثانية للأستاذ محيي الدين القليبي بعث بها إلينا كتحليل واف لحياة أحد الشهداء الثلاثة، وهو الأستاذ علي الحمامي الجزائري.

وإن الحادثة على فداحتها وعظم هولها لعنوان في نظرنا على الفجر الجديد، لأنها إن حزت في نفوسنا وهزت هذا العالم الإسلامي هزة عنيفة في مثل هذا الظرف العصيب فقد دلت على أننا قد ابتدأنا نموت لنحيا، وودعنا

(*) مقدمة كتبها الشيخ لمقال عن الأستاذ الحمامي بقلم الزعيم التونسي محي الدين القليبي، البصائر العدد 100، السنة الثالثة من السلسلة الثانية، 26 ديسمبر 1949،(بدون إمضاء).

عهدا مظلما، لم نكن فيه أحياء ولا أمواتا لنستقبل عهدا جديدا تسير الأمجاد في ركابه وتشرق عبقرية الشرق في جوانبه.

وإني لأذكر بهذا الصدد كلمة لأستاذنا الأكبر عبد الحميد بن باديس باني النهضة الجزائرية قالها بمحضر جماعة من الشباب، وهو يعلق على قول من قال في المجلس:

«إن الغرب يخاطر كثيرا بحياة أبنائه» وتلك هي: «ما الحياة إلا في المخاطرة» ولن يحيا هذا الشرق حتى يركب الأهوال، ويخاطر كالغرب، وإذا ما جاء هذا اليوم فأيقنوا أن الغرب سيقف أمام الشرق وقفة إجلال وإكبار، ويومئذ يمكن للتاريخ أن يعيد نفسه.

وشاء اللّه أن تكون كارثة الطيران هذه خاتمة المؤتمر المحزنة لتزيد في توحيد آلام هذا الشرق وآماله، وتمكن له في جمع أوصاله وضم أجزائه وأطرافه.

إذ لا شيء يبني الأمم ويسوق الشعوب إلى غاياتها السامية في الحياة كالآلام المشتركة والنهضات المحفوفة بالأخطار.

وبعد فإن «البصائر» لتحيي للمرة الثانية أرواح هؤلاء الشهداء، وتتقدم بتعازيها الخالصة أولا وأخيرا إلى أمة الباكستان الشقيقة والعالم الإسلامي، الذي أثبت وحدته في هذا المؤتمر. وحقق فكرة الجامعة الإسلامية رغم المفترين الذين يقولون باستحالتها حسدا من عند انفسهم.

ورحم اللّه شهداءنا جميعا، وهدى شبابنا إلى الإستنارة بتضحياتهم والسير على ضوء بطولتهم وجهادهم حتى يتمّوا ما بدأوا ويشيدوا ما رفعوا من قواعد الجامعة الإسلامية.

-2-

في تشييع جثمان الفقيد علي الحمّامي(*)

أيها الأخوان... أيها الشبّان:

إن هذا التابوت الموضوع بين أيديكم لا يحمل جثمان شخص، وإنما يحمل قطعة من الوطن الجزائري فصلت عنه ثم ردّت إليه... قطعة من الوطن الجزائري فصلها عنه ظلم البشر، ثم ردّها إليه عدل اللّه.

إن الجواهر لتذكر بمعادنها، فإذا ذكر اللؤلؤ ذكرت عمان، وإذا ذكر الياقوت ذكرت سيلان، وإذا ذكرت الأمم ذخائرها من الرجال، وكرائمها من العقول والأذهان، وأبت الأوطان إلا أن نأخذ حظها من تشريف النسبة فقيل فلان الفلاني...وفلان الفلاني..

أيها الأخوان! إن الفرار من الظلم والتغرب. في سبيل الحريّة طبيعة قديمة في النفوس الكريمة، وما هو فرارولا هي غربة ، وإنما هو الحق يفرّ مغلوبا ليكر غالبا، ويصدر مطلوبا ليرد طالبا، سنة اللّه في الحرية- وهي الحق كله- ظهرت في إبراهيم حين هاجر من بابل الى كنعان ليغرس بذور النبوة في فلسطين والحجاز، وُظهرت في موسى ففرّ من مصر الى مدين ليعود الى فرعون بآيات ربّه، وظهرت في محمد صلى اللّه عليه وسلم فهاجر من مكّة إلى يثرب ليرجع إلى مكّة مجتمع القوّة مشدود الأسر.

(*) البصائر، العدد 102، السنة الثالثة، 9 جانفي 1950، ضمن مقال الأستاذ باعزيز بن عمر.

أيها الشبّان! إن في تاريخكم لصحائف وضاءة بحياة المغامرين في طلب الحريّة أو في طلب الملك والمجد والسيادة، فالتمسوها في الجاهلية من امرئ القيس وعروة الرحال، وخذوها في الإسلام من حياة صقر قريش وإدريس بن عبد اللّه وأبي عبد اللّه الشيعي، وأطلبوا معاني البطولة والتضحية والإيثار من سير أبطالكم تجدوا في كل مفخرة إماما.

الزميل المنستيري(*)

للزميل الكريم الأخ محمد المنصف المنستيري صاحب جريدة «الإرادة» مكانة ممتازة في نفوسنا، لعل من موجباتها تعارفا روحيًا أظهرتِ المواقف آثاره، وتقاربًا فكريًا غرست الأقلام أشجاره، ثم زكت ثماره، وفنا كتابيًا وخزه البيان وأشاع إخضراره، لذلك كله كانت مصيبته بفقد ولده مصيبة مشتركة بيننا، حملنا معه حزنها وألمها والامتعاض لها، كما يمتعض الصديق للمكروه يصيب صديقه، والأخ للسوء يمس أخاه.

ونحن نتقدم إلى الأخ الكريم، على هذا البساط، بالتعزية القلبية، داعين لأخوته بالصبر، معتقدين أن في إيمانه ومتانة عقيدته وازعا عن الجزع الذي يذهب بالأجر، وأن في تمرسه بالزمان وأهله ما يخفف وقع إحدى مصائب الدهر.

وعزاء للأخ الكريم ولنا جميعا عن المصيبة الخاصة، بهذه المصائب العامة التي نخوض لججها، وبهذه القضايا الوطنية التي نسوق بالحق حججها.

(*) «البصائر»، العدد 106، السنة الثالثة من السلسلة الثانية، 06 فيفري 1950م.

ذكرى مبارك الميلي(*)

لا يظلّنا يوم 9 فيبراير الغربي، حتى تتجدّد لنا من أخينا العزيز ذكريات، تمدّها حسرات، تتبعها زفرات، فنذكر مكانه في الميدان وقد خلا منه، ونفتقد نفوسنا فنجدها ما سلت عنه، ونعوذ بالتجلد فيخذل، وبالنسيان فلا ينجد، ونعود إلى خمس من السنين نسألها،أما فيك وفي أحداثك التي إبتدأت بعد موت مبارك بثلاثة أشهر ما يذهل فينسي، أو يشغل فيسلي؟ فتقول: لا ...

• • •

وسنو الخطوب، كسنّي الخصوب، متشابهة الأواخر بالأوائل، تنتهي كما تبتدئ، وقد طلعت علينا تلك السنة السوداء بالداهية الدهياء، وهي موت مبارك، فانتزعت منا فارساً من الميدان، أحوج ما كنا إلى رأيه وعلمه، وغنائه وكفاءته، ثم إنتصفت علينا بالصيلم الصلعاء وهي حادثة 8 ماي، ثم انتهت وإخوان العهد كلهم في غيابات السجون والمعتقلات، ثم توالت الخطوب، وتواترت الفتن، وامتحن هذا الوطن بأشنع ما تمتحن به الأوطان: نقص في الرجال، ونقض للعهود، وضلال في الرأي، وإختلاف فيه، وبقيت هذه الفئة القليلة مزوّدة بإيمانها بالله، متكثرة بأعمالها للعلم، تلقى الجفاء والتنكّر من القريب، فتعتصم بالصبر، وتلقى الكيد والتربّص من الغريب، فتتحصّن

(*) نُشرت في العدد 109 من جريدة «البصائر»، 27 فيفري سنة 1950.

بالثبات، وهي على ذلك إلى أن يفتح اللّه بينها وبين قومها بالحق، ويحكم بينها وبين خصمها بالعدل، وهو خير الفاتحين، وأحكم الحاكمين، والعاقبة للمتقّين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

ولكن هل أنصفنا أخانا مباركا، وأنصفنا العلم معه إذا كان حظه منا بعد موته ذكريات تقام في كل عام، لا ذكرا يتردّد في كل يوم ، وكلمات عنه تقال فتذهب مع الريح أو تكتب فتدفن مع الأوراق؟ ذلك هو السؤال الذي كان يعتلج معناه في الصدور، وتختلج ألفاظه على الألسنة قبل أسبوعين، فقد كنت قبيل يوم الذكرى في جماعة من إخوان العهد، وأبناء الوفاء نتذاكر في ذكرى هذه السنة، لأخينا مبارك، وما ينبغي أن نسلكه فيها من المسالك: آحتفال يقام وخطب تلقى كالمعتاد؟ إن هذا تقليد مملول، أساء الناس تصريفه، وأساءوا التصرّف فيه، حتى أصبح لا يحرّك إحساسا،ولا يثير عاطفة، ولا يهزّ شعورا، ولا يأتي بخير، أصبح نوبة تعتاد، لا باعثاً يقتاد.

وتشعّب القول، فتشعّب الرأي حتى قال قائل حصيف: إن خير البر وأبقاه، وأحسن الذكر وأوقاه، ذلك الصنيع الجليل الذي أحيينا به ذكر عبد الحميد بن باديس، وإن المعهد لأبلغ من ألف خطبة تقال، وأسير من ألف مقالة تنشر، وأنفع للأمّة من ألف احتفال يقام، وأدلّ على الوفاء والإعتراف بالجميل لعبد الحميد بن باديس من ألف شاهد، فهلا سلكنا في إحياء ذكر أخينا مبارك شعباً غير شعب الإحتفالات؟ وهل عدلنا بأعمالنا وعظمائنا عن هذه المبتذلات؟...

وكانت هذه الكلمات الحصيفة التي تنطوي على رأي، وتحتوي على حكمة، مغيرة للحديث من مجرى إلى مجرى، فبردت الحمية

للإحتفال والخطب والمقالات، ورحنا ندير القول في الذكر الدائم، لا في الذكرى العابرة...

• • •

إن لأخينا مبارك الميلي على «البصائر» حقّا، فقد تولّى إدارتها فأحسن الإدارة، إلى أن عطّلتها الحرب الأخيرة، وأجال قلمه البليغ في ميادينها، فما قصر عن شأو، ولا كبا دون غاية، وهي كانت ميدانا لنشر كتابه (الشرك ومظاهره) فصولا، وجمعه كتابا، ولكن ماذا عسى أن تقوم به «البصائر» في وفاء هذا الدين الذي عليها لمبارك الميلي؟... إن مقالة أو مقالات تنشرها عنه في السنة- وهي كل ما تستطيع- لا تخلص ذمة، ولا تفي بدين، وإنما تملك «البصائر» التوجيه والإعداد.

وإن لأخينا مبارك المليلي على جمعية العلماء حقوقا، فقد كان مرجعها يوم تحلو لك المشكلات، وتضلّ الآراء، فيشرق عليها بالرأي كأنه فلق الصبح، وقد كان معقلها يوم تشتبه المسالك، وتكاد الأقدام تزلّ، فيثبت على الحق كالجبل الراسي، وكان منها بحيث لا يجترى عنها مجترى، ولا يفتري عليها مفتري، إلا رمته منه بالسيف الذي لا تنبو مضاربه.

ويميناً لولا ملازمة المرض الذي أودى به، وتأثيره في قوّته البدنية، وفي قوّته العقلية لكان فلتةً في البطولة العلمية بهذا الوطن، كما كان آية في الذكاء ودقّة الفهم. والجلد على البحث والإطلاع، وإنّ واجب جمعية العلماء في هذا النوع الطريف من إحياء ذكره ينحصر في ترويج الباقي من مؤلفاته المطبوعة، وإعادة طبعها طبعا فنيًّا مصحّحًا، وإتمام تاريخه للجزائر.

وإنّ لأخينا مبارك الميلي على الأمّة الجزائرية حقوقا بما علّم وكتب، وبما نصح وأرشد، وبما ردّ على الدين من عوادي المبتدعين، وبما وقف من مواقف في الإصلاح الديني والدنيوي. فمن وفائها له، ومن أدائها لبعض حقه، أن تنشط جمعية العلماء على إقامة معهد ثان بعاصمة الجزائر تطلق عليه اسم مبارك الميلي، وتحي به ذكره، وتخدم به لغتها ودينها، وتخطو به في العلم خطوة للأمام.

هذه معان لما دار فلي ذلك المجلس، نعرض مقدّماته مسلمة مقبولة، ونلزم جمعية العلماء والأمّة بالتفكير في تحقيق النتائج.

ثناء كعرف الطيب...
«أثارة من أعمال رابح الفرقاني»(*)

في الشعراء مسلم، وفي المحدّثين مسلم، ولا أدري باعث من البواعث التي تعتلج في النفس، أذكرني الساعة ببيت من ديوان مسلم بن الوليد، ولم يذكرني بحديث من صحيح مسلم بن الحجّاج.

إن ألوان النفس لغريبة، وإن سلطان الخواطر عليها لنافذ، وإن تأثّر النفس الشاعرة بالشعر لأدنى إلى طبيعتها، وأسرع نفاذا إلى سرائرها، أو لا ... فما الذي طاف بنفس حزينة مطمئنة إلى الإيمان بالقدر، مرتقية من الإيمان به إلى الرضى به، فيطير بها من حديث: «لا يشكر اللّه من لا يشكر الناس»، مثلا، ويقع بها على قول الشاعر: ثناء كعرف الطيب يُهدى لأهله» ثم يقف بها عند هذا المصراع لا يتعداه، ولا يسمح لها أن تتعدّاه، مع حفظها له ولما قبله، وإيداعها إياه في الحافظة التي لا تضيع ولا تخون.

النفس نفسي... إن زكيتها فما أنا عليها بالمتهم، وإن دسيتها فما غيري عنها بالمسؤول، وإن ذكرتها بما فيها فما ضررت الناس ولا نفعتهم ، وأنا لا أتهم نفسي بقسوة، ولا أزنّ طبعي، بجفاء، ولا أدفعها عن رقّة وحنان ورحمة، وأشهد، لقد خلقت رقيق الإحساس، سليم دواعي الصدر، سريع الاستجابة إلى التسامح والإغضاء، رحيما بالبائسين، شفيقا عليهم، مسعدا لهم بما أملك من لسان ثرّ، وجاه نزر، ولا أذكر المال، ولا – واللّه– ما تأثرت نفسي

(*) نشرت في العدد 109 من جريدة « البصائر»،27 فيفري سنة 1950.

في حياتي الحافلة بالأحداث تأثرين متباينين، لمؤثرين متقابلين ، مثل ما تأثّرت في هذه الأيام، تأثر الحزن المكتوم لحادثة فاس[1] التي ذهبت بطائفة من شبابنا، وبرجل فذّ من رجال العمل المنظّم فينا، وتأثر الإرتياح والرضى المستعلن لمبرّة المحسنين من آل السبتي.

أهو خلل في المزاج يصوّر التافه خطيرا، ويصير الجهام مطيرا؟ أم هو طول العشرة للأيام يسوّل للنفس، ويهوّل على الحسّ؟ أم هو التطوّر ، يفسد التصوّر؟ أم هي روحة من هواء الجبال التي تبدّت في الصبا، وتندّت بالصّبا؟ أم هي لمحة من الأجداد الأشاوس، الذين إختطوا « المحمدية » و« نقاوس »[2]؟ لا أدري... ولو شئت لدريت أن هذا الأخير، غير جدير بالتأخير... من الكوارث ما يطلق الألسنة فتندفع في التصوير والتهويل، أو في التخفيف والتقليل، إلى غير حدّ في ذلك كله، تبعث الأسى والشجى في النفوس، أو تبعث العزاء والسلوى إليها... وإن منها لما يرمي الألسنة بالحصر، ويشرج الحنايا على الغمّ، ويطوي الوجوه على الوجوم.

وإن كارثة فاس لمن النوع الثاني، وكلما لاءم النسيان جرحها، نكأت الذكرى ترحها، وعني أحدّثكم، فقد بلغني خبرها بعد أيام من وقوعها، لبعدي عن مواقع الأخبار، وإنقطاعي في مطارح الأسفار، فكأنني صعقت لهول الحادث وفظاعته، ولم أحتمل سماع تفاصيل الحادثة ممن سمعها من المذياع، أو قرأها في الصحف، وبقيت على تلك الحالة من التأثر، لا أستسيغ

---

(1) حادث مريع: سقطت دار يسكن فيها طلبتنا الذين يدرسون العلم بمدينة فاس فماتوا ومات معهم فاضل جزائري نائب عنا في تفقد أحوالهم المعاشية.

(2) المحمدية: هي بلدة تعرف اليوم بالمسيلة (مؤنث المسيل) أسّست في القرن الثاني للهجرة وكانت فيما بعد ذلك عاصمة إقليم الزاب، وخرج منها جماعة من أئمة العلم، وأقام بها الشاعر إبن هانى قبل أن يلتحق بالأمراء الفاطميين بالقيروان، وبها ولد الشاعر إبن رشيق، أما نقاوس فهي مدينة أخرى تقع في مسلك من مسالك الأطلس بين سطيف « بلدنا » وبين طبنة.

إعادة أخبارها، ولا أنشط لكتابة كلمة عنها إذا حاولت ذلك، حتى أفضت بي تلك الحالة إلى نوع من سوء الأدب لست بأهله، ونمط من التقصير في الواجب ليس لي بعادة .

بقيت على تلك الحالة التي لم أعهدها من نفسي، ولم يعهدها الملابسون لي مني، حتى سمعت خبر إحسان الأخوين الكريمين: الحاج عمر السبتي، والحاج محمد السبتي، وتكرمهما بدار كاملة المرافق على الطلبة الجزائريين المهاجرين في طلب العلم بفاس، فكأنما نشطت من عقال وكأنما مسح ذلك الخبر كل ما ألمّ بنفسي من حزن، وإن هذا ليس بغريب من آثار الإحسان في النفوس، ونشطت بعد ذلك لكتابة هذه الكملة القديمة الجديدة، أوفّي بها أربعة حقوق لأربع جهات: حق أبنائنا الشهداء في ذكرهم، وإعلان التفجّع عليهم في كل مناسبة، وحق إخواننا أعضاء جمعية الطلبة الجزائريين بفاس، فقد وازنوا الأمّة، في علوّ الهمّة. فقاموا مقامها، وواسوا عنها، وبكوا بعيونها واستبكوا باسمها، واظطلعوا بالواجبات عن الأسر المفجوعة، وحق الأمّة المغربية الماجدة التي كفكفت دموع أختها، بعطف المليك، وتأبين الشاعر والخطيب، وتعزية العالم والمعلم، وعناية الأحزاب، وإغتمام الجمهور، حتى أنسوا الأبناء هناك ألم الغربة، وهوّنوا على الآباء هنا وقع المصيبة، وذكروهم أن التربة التي وارت أبناءهم إنما هي تربتهم ، وكم وارت قبلهم من رفات أجدادهم، وحق المحسنين الكريمين من آل السبتي في التقدير لعملهما والثناء عليهما.

وأنا لا أزن عمل هذين المحسنين بقيمته المادية، وإنما أزنه بقيمته المعنوية، ولا أعدّه إحسانا إلى الطلبة، وإنما أعده إحسانا إلى الجزائر كلها من المغرب كله، كان سرا مخبوءا في النفوس الكريمة من أبنائه، فأبرزته الفاجعة للوجود، وتولّى الأخوان الكريمان عن المغرب إسداء عارفة إلى الجزائر،

لاتنساها، مابلّ بحر صوفة كما تقول العرب، ولو أن هذين المحسنين تبرعا بالملايين ما وقعت في النفوس موقع دار للسكنى، ولو كانت خصّا، فكان القائمة كفارةِ عن الساقطة، وما ألطف الاختيار، وما ألطف موقعه، وقلْ ما شئت في الحوادث، قل إنها تفرّق الجمع، وقل إنها تشتّت الشمل، وقل إنها تريق الدموع والدماء، ولكن يجب أن تقول أيضا: إنها تجمع القلوب على التعاطف، وتمهّد للبعداء أسباب التعارف، وتعرّف ذوي الرحم كيف يصلون الأرحام.

أنا باسم جمعية العلماء وباسم الأمّة الجزائرية أتقدّم إلى المغرب وساكنيه، من مليكه الهمام، إلى علمائه الأعلام، إلى محسنيه الكرام، إلى أحزابه وهيئاته وجمعياته، بإحسان عن إحسانهم،وثناء على إهتمامهم، تحملهما هذه الكلمات التي معناها عرفان الجميل،وحقيقتها مكافأة الجزيل بالقليل، وإن عرفان الجميل لألذ وأشهى إلى النفوس الكريمة من كل مفروح به. .وعذرا أيها الإخوان، إذا جئنا بعدكم، فإننا رأينا غيوث إهتمامكم لم تزل متوالية، وكلمات شعرائكم وكتابكم لم تزل متواصلة، ومن عادة الشاكر المثني أن تكون كلمته هي الأخيرة.

وحيا اللّه المغرب ومليكه، ومعادن الخير من رجاله، الواصلين لرحم الأخوّة. وحيّا اللّه ذلك الأخ البرّ الذي تمثّلت فيه الجزائر بالمغرب، فكان لسانها الذاكر الشاكر، وكان في هذه الفاجعة وكأن فيه من كل أسرة مفجوعة فلذة، فكان هو المعزّي وهو المعزّى ، وكان وحده القائم بشروط الوفاء، من تأبين ورثاء، وتسلية وعزاء، ومكافأة للمحسنين وجزاء، ذلكم– فاعرفوه، هو الأستاذ رابح خطاب الفرقاني.

الأستاذ إبراهيم الكتّاني(*)

للأستاذ البحّاثة العلم السلفي الشيخ محمد إبراهيم الكتاني، أحد علماء المغرب الأفذاذ المستقلين، مكانة ممتازة في نفوس رجال جمعية العلماء، وصلة روحية قوية بهم من أيام المرحوم الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس.

والأستاذ الكتّاني من المعجبين بحركة جمعية العلماء الإصلاحية، والمتتبعين لأطوارها، ومن العاملين على ربط الحركات السلفية بعضها ببعض تاريخا وعملا.

زار هذا الأستاذ الكريم في الأيام الأخيرة إدارة« البصائر» بمركز جمعية العلماء،ودفعه الوفاء إلى زيارة المعهد الباديسي وقبر صاحبه بقسنطينة.

و« البصائر» ورجال جمعية العلماء على إختلاف ميادينهم، يرحّبون بالضيف العزيز من قلوب تحمل له الحبّ والاحترام، ويرجون له إقامة طيبة وأوبة حميدة.

(*) «البصائر»، العدد 133، السنة الثالثة، 23 أكتوبر 1950 م، (بدون إمضاء).

من ثمرات الإخوة الإسلامية
شخصية باكستانية تزور الجزائر(*)

ما زال الإسلام- وإن ضعفت آثاره في نفوس أهله وضعفت عقولهم عن فهم حقائقه-يشعّ بالروحانيات التي تقهر المادة وتغلبها على سلطانها، حتى في أيام صولتها وحولها، وما زال يجمع قلوب أبنائه على نوع غريب من الإخوة تُنسيهم إياه الأحداث، ثم يتنبّه في نفوسهم بأيسر منّبه.

أمعنت عوامل الشر في تشتيت المسلمين والتبعيد بين قلوبهم باختلاف المذاهب والمنازع في الدين والدنيا، وبين أبدانهم بالسدود المانعة، والحدود الفاصلة، وبين ألسنتهم بكثرة اللغات والرطانات، ولكن قوة الروحانية في الإسلام تغلّبت على تلك العوامل كلها وأبقت في نفوس المسلمين سمة ثابتة لا تنمحي، ولكنها تختفي حتى تظنّ بها الظنون، ثم تستعلن فتخيب الظنون.

ولو أن أمة ذات دين ظهر بها وظهرت به، ثم أصابها بعض ما أصاب المسلمين من انحلال وتفكك وبلايا ومحن لَنسيتْ دينها أو لكفرتْ به ولم يبق من آثاره فيها ولا من آثارها فيه شيء، ولكنّه الإسلام، ولكنه سلطان الإسلام على النفوس.

زار الجزائر في الأسبوع الماضي ضيف باكستاني مسلم يجمع بين ثقافة إسلامية عالية، مظهرها فهم عميق لحقائق الإسلام، واطلاع واسع على دقائق تاريخية، وتطبيق حكيم لنظريات الإسلام على تطورات الزمن، وبين ثقافة

(*) «البصائر»، العدد 136، السنة الرابعة، 8 جانفي 1951 (بدون إمضاء).

إنكليزية واسعة، مظهرها تمكن من لغة الإنكليز وآدابها، وتأثر بسعة صدور الانكليز وصراحتهم واعتدادهم بأنفسهم...، يجمع بين الثقافتين من غير أن تضار إحداهما الأخرى لتمكنه فيهما معًا، ممّا يدل على أن مضارة ثقافة لثقافة إنما تكون من القوية في نفس المثقّف للضعيفة فيها.

هذا الضيف الكريم هوإنعام اللّه خان، الكاتب العام للمؤتمر الإسلامي الذي سينعقد في شهر فيفري القادم في كراتشي عاصمة البكستان تحت إشراف الشعب الباكستاني.

والأستاذ إنعام اللّه خان يمثل ديموقراطية الإسلام الصحيحة، فهو يتمنى الخير لجميع الناس بشرط أن يكون حظ المسلمين من ذلك الخير موفوراً، ومكانتهم بين الناس محترمة، وهو مزهو باستقلال بلاده كما هو مزهو باستقلال اندونيسيا وليبيا، وهو لا يدين بالوطنيات الضيّقة المحدودة ويسفّه أصحابها، وهو يرى أن القوتين المتناحرتين في العالَم، المتعاونتين – بقصد أوبغير قصد– على إزعاجه وترويعه، سائرتان بالبشرية إلى الإبادة و الاستئصال، وأنه لا ينجي العالم من شرّ هما إلاّ واسطة قوية ذات خصائص روحية فعالة، هذه الواسطة هي الإسلام في مثله العليا لا غيره، يحقّق مطالب الروح والجسم معًا، ويؤلّف بين مانراه متنافراًمنها ويقمع الغرائز الحيوانية فيردّها إلى الاعتدال، والاعتدال هو الحلقة المفقودة في تينك القوتين .ويقول: لو أن عقلاء الأمم، المشفقين على العالم الإنساني، المتشائمين من حالته الحاضرة، أدركوا هذه الخصائص في الإسلام، لأتوا إليه مذعنين، ولحكّموه فيما شجر بين الفريقين، ولوفعلوا لَوجدوه الحكم الذي ترضى حكومته، لأنه يحقّق لكل فريق رغبته، بطريقة لم تخطر على بال مصلح.

والأستاذ إنعام اللّه خان يقوم برحلة طويلة في الأقطار الإسلامية داعيًا إلى المؤتمر الإسلامي فبعد أن أقام في «لايك ساكسس» من أمريكا، داعيًا

لمصلحة دولته في قضية كشمير، مرّ بلندن ثم بباريس، وهناك زار وفد جمعية العلماء، واجتمع بكثير من رجالات المغارب الثلاثة، ومن هناك بدأ برنامجه في زيارة الأقطار الإسلامية، فزارالمغرب الأقصى ومكث فيه ثلاثة أيام، ولقي من إخواننا هناك حفاوة شرحت صدره وأنطقته بالشكر، ثم زار الجزائر – على ما سنصف – ومنها إلى تونس فليبيا–فالقاهرة، فأنقرة، فدمشق، فبيروت، فبغداد، فكراتشي.

• • •

كان هذا الضيف المحترم على وعد مع رئيس جمعية العلماء باللقاء في الجزائر، عيّنا فيه اليوم والساعة منذ إجتماعهما في باريس، فلما كان مساء يوم الخميس 21 ديسمبر الماضي ذهب الرئيس لاستقباله في مطار الجزائر (ميزون بلانش)[1] وكان في إستقباله أيضا جماعة من رجال الحركتين الوطنيتين، فحيوه جميعا وهنأوه بسلامة القدوم، وتجلت الأخوة الإسلامية فكأنه لم يكن ضيفا حلّ ببلد غربة، وإنما هو جزائري غاب ثم آب، ثم سار به موكب الا ستقبال إلى نزل (ألّيتي) ليستريح قليلا ويغيّر بذلة السفر ، ثم ذهب إلى دار الرئيس فتناول فيها طعام العشاء وسمر إلى نصف الليل، وفي صباح الجمعة 22 زار ضريح المرحوم علي الحمّامي الذي عرفه وشهد نقل جثته من كراتشي، وتناول الافطار في ذلك اليوم في ضيافة حزب البيان ، وعلى الساعة السادسة من مساء الجمعة أقامت له جمعية العلماء بمركزها حفلة شاي حضرتها طائفة من معلّمي مدارس جمعية العلماء وطائفة من رؤساء شُعَب الجمعية، وطائفة من رجال الاصلاح، وطائفة من رجال الحزبين البارزين[2]، وخطب الرئيس

(1) «ميزون بلاش»: كلمة فرنسية معناها «الدار البيضاء» ويسمّى الآن مطار هواري بومدين».

(2) الحزبين البارزين: هما حزب البيان، وحزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية.

فرحّب بالضيف وافاض في تحليل أخوة الاسلام وآثارها واستخدامها في الخير العام والرحمة الشاملة، وترجمت خلاصتها للضيف بالانكليزية، فردّ عنها بخطبة كلها تأييد ونصح للحاضرين بالرجوع إلى هدايةللاسلام، وكان كلامه يترجم للحاضرين جملة جملة، فيؤثر فيهم أبلغ التأثير، وبعد الحفلة تناول العشاء في ضيافة حزب الشعب.

وفي صباح السبت ألقى محاضرة باللغة الانكليزية في قاعة سينما« دنيازاد» وكانت الدعوة باسم الأستاذ مراد كيوان صاحب مجلة «الاسلام الفتى»، وبعد أن قدّمه الاستاذ أحمد توفيق المدني بكلمة عربية و الأستاذ كيوان بكلمة فرنسية قام الضيف المحاضر فألقى محاضرته جملة جملة ، وكان نظام الترجمة بديعًا حقًا، فقد وقف الأستاذ كيوان عن يمين المحاضر والاستاذ المدني عن يساره، فيلقي المحاضر الجملة بالانكليزية، فيترجمها كيوان بالفرنسية، فيترجمها توفيق إلى العربية الفصحى، فيسمع السامع ثلاث لغات في نسق واحد كأنها من لسان واحد.

أما المحاضرة فكلها في تمجيد الاسلام وأخذ المثل العليا من سير رجاله، وخصّ المحاضر ثلاثة من الصحابة هم مجالي القدوة للمسلمين في خلال انفردوا بها: بلالا في الصبر والثبات، وابا بكر في السبق الي الحقّ مع منافاته لما شبّ عليه وشاب، وعلي في الايثار وبيع النفس والفداء حين بات على فراش النبي (صلى الله عليه وسلّم) ليلة الهجرة وهو يعلم أنه الموت. وما أحلى ذكره لغار حراء ووصفه بأنه منارة النور.

ثم استخرج من عبر التاريخ الاسلامي والتاريخ الانساني ما بلغ به الغاية من التاثير، ثم وصف شيئًا من حالة المسلمين اليوم وصف العالم الواسع

الاطلاع، وجش مواطن الالم فأدهش، ودلّ على مطالع الامل فأنْعَش، وكان في كل ذلك بارعًا.

وبعد انتهائه وهدوء عاصفة التصفيق قام رئيس جمعية العلماء فانتزع من المحاضر و محاضرته أمثلة ضربها للسامعين مؤكداً على تطبيقها ومقارنتها، ومنها آثار سبق التربية الاسلامية الى النفوس، وسبق دراسة التاريخ الاسلامي الصحيح الى الأذهان، ونعى على مثقّفينا جهلهم بتاريخ الإسلام وقعودهم عن دراسته، ونسب زهدهم فيه إلى تنفير المدارس الإبتدائية منه لأنها لا تذكر لهم من تاريخ نبي الإسلام (صلّى اللّه عليه وسلم) إلاّ ما ينّفرالنفوس البدائية منه مثل أنه كان يتيمًا وأنه كان يرعى الغنم، وأنه كان فقيرًا، وأنه تزوج إمرأة كبيرة غنية وهو شاب، وهذه الجمل إذا لم تُفسَر بمعانيها العليا فّسرتْ نفسها بمعانيها السفلى في النفوس الصغار، وهنا تنفير معتمّد.

.ثم خرج من ذلك إلى لزوم الأخذ بالتربية والتعاليم الدينية، والتاريخ الديني من أول مرحلة في العمر، وأن هذه التربية هي التي كوّنتْ ضيفنا وحمته وصيّرته بحيث يدخل البحر ولا يغرق .

وقام بعده السيد بودة، فرحّب بالضيف باسم حزب الشعب ونوّه بالمقاومة الجزائرية، وقام بعده المحامي أحمد بومنجل فحيّا الضيف باسم البيان، وختم رئيس جمعية العلماء الاحتفال بكلمة وجّهها إلى المسؤولين في لزوم التضامن والإتحاد، وإلى الحاضرين في لزوم التعاون على تحقيق هذا الاتحاد، فابتهج الحاضرون وصفقوا تصفيقًا أبلغ من التعبير عن تشوق الأمة للاتحاد وشعورها بضرر الخلاف وشرّه.

وفي صباح الأحد زار الضيف – ومعه جماعة من رجال حزب الشعب – مركز جمعية العلماء للمرة الثانية، وفي المساء شيّعه إلى المطار في طريقه إلى تونس الرئيس في جماعة من رجال المركز ورجال حزب الشعب وسافر مشيّعًا بالحفاوة، كما قدم مستقبلاً بالترحيب .

هذا وقد استقبل الضيفُ في محله من النزل ممثلين لهيآت الشبان والجمعيات الفنية والريّاضية، وتلقاهم سائلاً منّقبًا دارسًا.

رافقته السلامة.

سؤال وجوابه
لمحة من أخلاق الشاعر محمد العيد(*)

سألنا جماعة من الأدباء بيان ما أثنى به الأعرابيّ على بعلته، وذكروا أنهم قرأوها في افتتاحية« للبصائر» قريبة العهد، فما فهموا مرجع إشارتها، وسألوا عن البعلة- مؤنث بعل- هل هي فصيحة.

أما البعلة فهي فصيحة، ومن قرأ عرف، وأما ما أثنى به الأعرابي على بعلته، فهو إشارة إلى قوله يخاطب زوجته:

أثني عليّ بما علمت فإنني مثن عليك بمثل ريح الجوْرب

وريح الجورب من الرجل العرقة التي تمكث فيه أياما، ولا تزور الماء إلا لماما، هو(طيب عاطر الأنفاس) فالثناء بمثله ثناء بأخبث شيء في الدنيا، ولم يبق من إستيفائه لشرائط المكروه إلا أن يصدر عن ذي فم أبخر...

بهذه المناسبة- وإن كانت مستقذرة- أكرّر النصيحة لأدبائنا الكسالي، وأجعل هذه النصيحة غسولا للجورب ورجله، أن لايقنعوا من الأدب بما يلقاهم منه في أيام الطلب في الكتب المقرّرة، فإن ذلك القدر النزر لا يربي ملكة، ولا يصقل ذهنا، ولا يكوّن أديباً، إنما يربي الملكات الأدبية الصحيحة ويقوّمها- الإدمان، إدمان القراءة المتأنية المتدبرة لكتب الأدب الحرّة الأصيلة، والاستكثار من حفظ الشعر واللغات والأمثال، ومعرفة مواردها ومضاربها، والتنبه لمواقع استعمالها من كلام البلغاء، من شعراء وخطباء وكتّاب، ثم

(*) نشرت في العدد 143 من جريدة « البصائر» 19 فيفري سنة 1951.

ترويض القرائح والألسنة والأقلام على المحاذاة، ذلك أدنى أن تستحكم الملكة، ونتقاد القريحة فتجري الأقلام على سداد، ويمدّها الفكر من تلك المعاني بأمداد، وتوضع الكلمات في الجمل، في موضع اللآلئ من العقد، وما جاء حسن العقد منظوما، إلا من حسنه منثورا، ثم تكون الحكم والأمثال والنكت كفواصل الجمان في العقود الثّمان.

• • •

انتقاد. وردّه:

إنتقد بعض الأدباء تجريدنا للشاعر محمد العيد من الألقاب التي هو أحق بها وأهلها، وإقتصارنا في وصفه على لقب: « شاعر الحكم والمثل»، فيما صدرنا به قصيدته الحكيمة في احتفال بسكرة.

ونحن نقول لهذا المنتقد المخلص، إننا جرّدنا شاعرنا من تلك الألقاب مخلصين، عن عمد، لأمرين خطيرين، أما الأول فهو أن هذه الألقاب الأدبية أصبحت كالألقاب الحكومية، يتمجّد بها من لا يستحق التمجيد، ليكمل بها نقصه، ويوازن بإقاعها رقصه، حتى أصبح الناس مترددين في وجه الاستحقاق وعلّته، أهو كماله لينقص بها؟ أم نقصه ليكمل بها؟

وقد أصبحت هذه الألقاب موردا آجنا لكثرة طرّاقه، وأسرف الفارغون في خلعها على الفارغين، ونظرنا، فإذا هي لم تنفق كاسدا، ولم ينبه بها خامل، وإنما مكّنت للزور ومهّدت، وسوّت بين السابق وبين المتخلف، فتعسر التمييز، واعتبر أثرها في قائدين: (قائد) الجيوش في الميدان و(قائد) الجحوش في الدوار، ذاك يبلغ المجد صاعدا، وهذا يريده قاعدا، فهل يستويان مثلا؟ ولكن اللقب سوّى بينهما على رغمي ورغمك.

وكل شئ كثرت فيه الدعوى، وعمّت به البلوى، وجمع الإشتراك فيه أخلاطا وأنماطا، وعربا صرحاء وأنباطا، ترفّعت عنه الهمم العالية، وأذاله التبذّل فنزل به إلى قرارة البخس، وإن كان في نفسه جليلا، وما بعبث خلق اللّه الناس طبقات، وجعله الأقدار درجات، وتقديره الأرزاق قسما، وتوزيعه المواهب حظوظا وحصصا ، كذلك ... وما بعث تخصيص العرب كل نفيسة من الأشياء باسم يميّزها من جنسها : ففي الشعر عيون، وما كله بعيون وفي النساء عقائل، وما كلهن عقائل، وفي النجوم دراري، وما كلها دراري، وفي الجوهر فرائد، وما كله فرائد، وفي المال كرائم، وما كله كذلك.

فإذا فسد الذوق، فأطلقنا الأسماء الخاصة على الجنس العام، وقلنا في الأمّة الوكعاء: إنها عقيلة نساء، وفي العنز الجرباء إنها كريمة مال، ثم أوغلنا في التشبيه على هذه الطريقة، فقلنا في شموع (المولد): إنها كواكب درّية، وفي صواريخ الصبيان: إنها قنابل ذرّية. إذا فعلنا ذلك أفسدنا اللغة أولا، ثم أفسدنا الأخلاق ثانيا ،وملأنا العالم بالزور والغرور.

مما أفسد نظام الأمم كثرة الأمراء، ومما شوّه جمال الأدب في عصرنا كثرة الشعراء، ولم يكف ذلك حتى كثر فيهم أمراء الشعراء، ولقد كنّا نسمع بملوك الطوائف في الحكم ،لكننا لم نسمع إلا في هذا العصر بملوك الطوائف في النظم، ففي كل قطر شعرآء وأمير شعراء، ينازعه حبل الإمارة شاعر أو شاعران أو شاعرون (فقد مللنا جمع التكسير لكثرة ما تردد، كما سئمنا من مفهومه هنا لكثرة ما تعدّد) وإن نتيجة النتائج لهذه الكثرة أن تنتهي إلى شيوعية في الأدب تقضي على جيده بذنب رديئة.

لو كانت هذه الألقاب صاحبت ذويها كأسمائهم من يوم الولادة، لوسعنا العذر في السكوت على نقصها وشينها، وكما وسعنا العذر فيمن سمّوه

«منصورا» فشب مخذولا ، ودعوه «نفيسا» فجاء مرذولا، ولكنها تأتي مع الفتوّة أو مع الكبر، فواجب أن نحتاط لها، وأن لا نجعلها عناوين على الإحسان، وموازين للرجحان.

وأما الأمر الثاني فهو أن محمد العيد وأمثاله من المحسنين لفنونهم، قد شبوا عن طوق هذه الألقاب الجوفاء، فزهد فيها زهدا كأنه طبيعي فيه، شأن المتشبع بفنه، المتقن لصنعته، حسبه من الشهود الإتقان والإحسان، أما هذه الألقاب فإنهم لا يرونها بالعين التي يراها بها الناقصون: لا يرونها مكمّلة لهم، ولا زائدة فيهم، فهم كالسيوف، أروع ما تكون مجرّدة، وإذا كانت قيمة الحاوي بجرابه، فما كانت قيمة السيف، في عقل العقلاء، بقرابه، وإنما هي بالجوهر والفرند، ثم بالتصميم في الضريبة. -

إن الألقاب لا تزيد في قيمة محمد العيد إلا بمقدار ما زادت « الباشوية» في قيمة طه حسين.

على أننا نعتناه بالنعت المفصّل على ذاته، المفصّل لآياته، وهو: شاعر الحكمة والمثل، إذا هما قاعدة شعره، وخاصتا مقاطعه وقصائده، ويزيد على تناول الحكمة والمثل بأنه «صدّاح غير مدّاح».

السلطان محمد بن يوسف(*)

آليْـت بالحظائـــر المستـــره　　والآي في رقوقهـــا مسطـــره
والكعبة الجليلــة المطهـــره　　والروضـة الشريفـة المنــوّره
إنّي أسوق الواعظات المنــذره　　صادعـــة رادعـــة محــذّره
ناصحـــة لقومنـــا مذكّـــره　　واسمـــة بالهون كلّ نكـــره
من خابط في الظلمة المعتكره　　ووارد ســؤرَ الميـاه الكــدره
وعابــد للنجمـة المنكـــدره　　دليلها الحق، ومن ينصف يـره

• • •

إنّ أميرَ المسلمين جوهـــــره　　وصـــورةٌ من خلــق مصـــوّره
ونسخـــةٌ من أدبٍ محــــرّره　　وقطعـــة من حكـــم مقـــرّره
وقطرة من الهـدى منحـــــدره　　في الدهر من جد الشراف حيدره
مناقب عى المــدى مدّخـــره　　لمن غدا بين الملــوك مفخـره
وإن أتـــت أيامـــه بأخـــره

• • •

إنا إذا الحمــــد تلوْنـا ســـوره　　ثم جلوْنا - كالمرايا- صـــوره
ثم حدوْنـا في البرايـــا زمـــره　　سقنـا إليه شمســـه وقمـــره
ومن يطب مولى الموالي عنصره　　فمن تمـــام فضلـــه أن ينصـــره

• • •

(*) نشرت في العدد 147 من جريدة« البصائر» 19 مارس سنة1951.

من أدّعى وصف الكرام الخيره فاستشهدوا أخلاقــه وسيــره
واستنبئوا من الزمــان غيــره وسائلــوا: من قــاده وسيّــره؟
فالزيرُ -إن تنشده- حلف الزيرَه

• • •

ياعصبة في الغيّ ليست مقصره قد عميت عن الهدى والتبصره
لا تفرحي: إن الغنى والسيطــره لم يبرحا إلى الهــلاك قنطــره
لا تمرحي: إن الهوى والأثــره جالبةُ كل البــلا أو أكثــره
تسمّعي: إن الليالي مخبــــره بأن أيّــام الصعــود مدبــــره

• • •

قد كتب الدهر ووالى عبــــره وصدّقت رؤى العيون خبــــره
أن قصــور الظالمين مقبــره عمارها إلى الخــراب معبــره

• • •

ليس نم عادتنا أن نثني على الأشخاص لذواتهم أو لمقاماتهم التي قرّرتها الأوضاع والمصطلحات، وإنما نثني -إذا أثنينا- على الأعمال الصالحة، فينصرف الثناء إلى العاملين بالتبع.

وليس مما ركب في طباعنا الصغو إلى الملوك، أو انتحال النزعة الملكية مذهبًا، فقد قرأنا عن كثير من غابري ملوك الإسلام مازهدنا فيهم، وماكرّه إلينا نظام الملكية، وبلونا من حاضريهم ما يتبرأ منهم الإسلام من المنديات، وعلمنا علم اليقين أن أعمال الغابرين والحاضرين منهم هي التي أفضت بالإسلام والمسلمين إلى هذه المنزلة من الحطة والهوان، فأصبحنا نعتقد أن الملكية نظام لا يعتزّ به الإسلام، ولا يحيا عليه المسلمون، ولا يستطيعون أن يجاروا به أمم الحضارة في هذا الزمان، خصوصا مع ما انتحلوه لأنفسهم

وتعبَدوا به رعاياهم من هذا التألة الكاذب، وهذه الحقوق التي لم يأذن بها اللّه، وهذه المميزات التي زادها طول الزمن ، واستحكام الجهل رسوخا، والتي استمسكوا بها حتى في هذا العصر العالم اليقظان، عصر الدساتير المسنونة، بإرادة الأمم، فلا يحاكمون،وإن خربوا الدين والدنيا، ولا يعاقبون وإن أهلكوا الحرث والنسل، ولا يعاتبون ، وإن انتهكوا الحرمات، وجاهروا بالمنكرات، وإنك لتسّميهم ملوكا لترفعهم عن مقام العبيد، فتجبهك الحقيقة بأنهم عبيد لشهواتهم، وأهوائهم، وإنك لتلتمسهم في مواطن الحفاظ من أوطانهم، والاحتفاظ بأموالها، والاختلاط بأهلها، والمشاركة لهم في النعماء والبأساء، فلا تجدهم إلا في أوربا، و(بواليع الأموالِ في أوربا) ومغريات أوربا، يجرونها إلى ديارهم طوعا، فتجرّهم إلى ديارها كرهًا، ويأخذونها تفاريق فتأخذهم جملة... ويقتبسونها نورا، فتقبسهم نارا، وإنك لتجدهم حيث شئت إلا في مقامِ القدوة في الخير والصلاح.

فإذا أثنينا اليوم على محمد بن يوسف ملك المغرب، فإنما نثني على أعماله الجليلة ودينه المتين، ومواقفه المشرّفة المجيدة في نصر الحق على الباطل، ودحض البدعة بالسنة، وفي الدفاع عن حقوق وطنه، وفي سيرته النبيلة التي هي مضرب المثل في ملوك الإسلام، وإذا أحببناه فلأن في أعماله وخصاله مواقفه ما يفرض حبّه فرضا على كل مسلم صادق الإسلام.

وإذا أعجبنا به فلان كل فصل من سيرته موطن إعجاب.

وإذا نصرناه بما نملك من كلام فلانه ملك مسلم مظلوم، مظلوم في أمّته، ثم مظلوم ببعض أمّته، وليس في أنواع الظلم أحزّ في الصدور من هذا النوع، وليس فيها أدعى لإنتصار ذوي النخوة العربية والشهامة الدينية من هذا النوع.

• • •

نعرف عن جلاله السلطان محمد بن يوسف كل ما يجب أن يعرفه عالم مسلم، حرّ الفكر، مستنير البصيرة، موقوف المواهب على خدمة الإسلام، وإصلاح المسلمين عن ملك مسلم ممتاز بين ملوك المسلمين– في عصر كثر فيه الملوك– خصوصا في هذه الرقعة العربية – كثرة معاكسة لسير الزمن، منافرة لسيرة أبناء الزمن، فكانوا وباء للأجساد، ووبالا على الأرواح، وجائحة مرسلة على الأموال، ومطايا يستعملها الأجانب لاستغلال الأوطان، ثم للاستيلاء عليها.

نعرف عنه دراسة، ونعتقد فيه وجدانا، ونشهد منه عيانا، ما يرفعنا عن الأخذ فيه، بالتقليد، ويربأ بنا أن ننتقل في الحكم عليه من رأي قديم إلى رأي جديد، كما تربأ بنا عادتنا في الحكم على الرجال، أن نحابيه أو نتعصّب له، جريا مع هوى غالب، أو انتصارا لمذهب جامع.

فالنتيجة التي انتهت إليها الدراسة، واطمأن لها الوجدان والعيان في هذا الملك العظيم حقا، هي أنه ملك مسلم صحيح الإسلام، مؤمن متين الإيمان، سلفي العقيدة والتعبّد، قديم في دينه، جديد في دنياه، مجدّد مصلح في الدين والدنيا، واسع الاطلاع على أحوال زمنه، يقظان العقل في أسرار السياسة المحيطة به، شجاع الرأي في الجدل المحتدم فيها، يمارس من الأجانب هولا واحدا، ومن الأقارب أهوالا، يعمل لشعبه دائما، ويعمل لنفسه قليلا لمعنى يرجع إلى شعبه، وهو أن يرسم لهم خطوط الإقتداء والتأسي، ومن رأينا فيه أنه لو تأتت له الوسائل ولاينته الظروف، لطوى مراحل التقدّم بالمغرب في مرحلة.

هذه الخلال هي سر عظمته عندنا، وهي سر حبنا إياه، وإعجابنا به، وإنتصارنا له، ولو أنّي حكمت هذا الحكم قبل أن أجتمع به في الرحلة الأخيرة إلى باريز، لكان فيه شوبٌ من التقليد والاتكاء على السماع الذي شان

العقائد، وأفسد التاريخ، وغطّى الحقائق، ولكنني طابقت بين السماع والعيان، وصحّحت الإستدلال في تلك الساعة التي تحدثت فيها إليه، وتحدث إليّ، مجردا من الكلف والرسميات، في بلد غربة وموطن حريّة، وقد زويت في تلك الساعة القصيرة، أطراف تلك النفس الكبيرة، وكانت ساعة من تلك الساعات المعدودة في التاريخ، التي يلتقي فيها عالم مسلم، بملك مسلم، فلا يجري على لسانيهما إلا ما يرضي الله، وينفع الناس.

لمحت في هذا الملك الديمقراطي ملاءمة الفضائل الفطرية فيه، للفضائل المكتسبة بالدرس والتجربة والاحتكاك، فالذكاء الفطري يمازج الإلمام الواسع بما يجري في الكون، والإيمان بالعاقبة يزاوج الإحتفاظ الشديد بحقوق المسلمين، والإيثار يساند الإقدام، والصبر على المكاره يقارن الصراحة في قولة الحق، طراز من الأخلاق متلائم النّسب، متلاحم النسج، متناسب العرض، في شخصية واحدة ، يزيّن ذلك كله بساطة متناهية، هي بساطة المسلم الصادق المتشبع بالفضيلة، الذي لا تزدهيه المظاهر، ولقد وقع نظري وذهني- وأنا أحادثه، على صغيرة من آثار تلك البساطة،ولكنها مبعث الروعة والجلال، وهي تجرّد هذا الملك من تلك العهون والذلاذل(ولا أقول: الحلي) التي يزيّن بها بعض ملوكنا وأمرائنا صدورهم، وأعناقهم، وتراقيهم، على ضرب مماكان يزيّن به العرب جمالهم... فلا يكون معناهاه عند العقلاء إلا أن أصحابها فرغت بواطنهم من معاني السلطان، فعمروا ظواهرهم بهذه (الشرطان) وعلى أن الزمان إنتهى من السخرية بهؤلاء إلى هذه الدرجة، فعوّضهم من الأعمال التي يتحمّل بها الرجال، بهذه الحلية التي يتجمّل بها غيرهم...

• • •

والمحنة الأخيرة!...

والمحنة الأخيرة لهذا الملك المظلوم كانت جرحا في قلب كل مسلم طاهر السريرة، لما وسمت به من التلاعب بالدين الإسلامي، والعبث به، وجعله سلما لأغراض سياسية استعمارية، ولما وصمت به من الإهانة لملك مسلم صالح ذي سلطة دينية لم يخلّ فيها بشرط، تستند على بيعة شرعية قرّرتها الأوضاع والرسوم، وثبتها الإجماع على الرضا، ومكّن لها الاختبار والامتحان، واستوى في إيجابه نطق الناطق، وسكوت الساكت، ولم ينقض الملك لها عهدا، ولا نكث عقدا، ولم يأت في حالتي الشدة، والرخاء إلا ما يقتضي توكيدها ويوجب تجديدها، فالأعتداء على الأوضاع الإسلامية إعتداء على الإسلام في نظر المسلمين، والإهانة لملك مسلم صالح إهانة للإسلام.

أما ما ختمت به الرواية فإكراه من السلطة الاستعمارية لا يقرّه شرع سماوي، ولا قانون إنساني، وارتكاب من الملك لأخف الضررين، تعلو فيه حجة العاذر على شبهة العاذل، وهو -في حقيقته- بناء على السيف، وما للبناء على السيوف دوام، وإمعان في الحيف، والممعن في الحيف، ممعن في ظلام، وإنما يدوم على تقلبات الزمن بناء أساسه العقل، وحائطه العدل...

الدكتور عبد الكريم جرمانوس(*)

الدكتورعبد الكريم جرمانوس، مسلم مجري الأرومة، شرقي النزعة، نشأ جبار الذهن، سليم الفطرة، نير الفكر، فحدت به نزعته الشرقية إلى تعلم أمهات لغات الشرق الإسلامي: التركية والفارسية والعربية، وتعاونت هذه اللغات المتشابكة الأدب والفلسفة، المترابطة التاريخ والمواطن على تكوينه تكوينًا شرقيًا جديدًا، و وجّهته بطبيعتها إلى دراسة الإسلام، في أصوله الأولى، وانضاف إليها عامل آخر هو فطرته السليمة وفكره النير، فهدته إلى الإسلام، فأسلم إسلامًا صحيحًا مكينًا مبنيًا على الاقتناع الموصل إلى اليقين، والدراسة العميقة المفضية إلى الحق، لا ذلك الإسلام المبني على التقليد المريب، أو على الحيل السياسية المخادعة.

فالدكتور عبد الكريم جرمانوس مستشرق من ذلك الطرازالذي ينفذ إلى لباب اللغات والمبادئ فيتأثر بها تأثرًا وجدانيًا صادقًا، لا من هذا الطراز الذي عرفنا بعض أفراده ذوي الملكات القاصرة في اللغات الشرقية، والأنظار السطحية فيها، فغاية هؤلاء، الاتجار بالاستشراق وجعله ذريعة لخدمة ركاب السياسيين وسلّمًا للوصول إلى الوظائف.

ماكنا نجهل هذا الأخ المسلم، والمستشرق الصادق، قبل اليوم، فقد عرفناه من مقالاته التي حرّرها بالعربية الفصحى، وقرأنا عن مؤلفاته في كثير من المجلات العربية، وقدرنا من ذلك كله قيمته ووزنه.

(*) «البصائر»، العدد 148، السنة الرابعة من السلسلة الثانية، 26مارس 1951م.

وقد اتصل بنا هذه الأيام، اتصال المسلم بأخيه المسلم، بهذه الرسالة القيّمة التي ننشرها عقب هذا الكلام، فعرفنا فيها بنفسه و بالبواعث الأولى التي حببّت إليه الإسلام، وببعض نظراته فيه، وبشيء عن نشأة الإسلام في المجر، وشكا شكوى المسلم الغيور على دينه من عوائق انتشار الإسلام في وطنه(هنغاريا).

ونحن نغتبط بهذه الرسالة، ونعدّها عامل اتصال بين الأجزاء المتباعدة من أهل هذا الدين، ونفحة من نفحات الإسلام العاطرة في أوروبا، ونوجّه إلى أخينا عبد الكريم – على بعد الدار –ثناءً خالصًا على هذه التحفة اللطيفة وتحيات تحمل من الربيع روحه وريحانه، ومن الشباب اقتباله وريعانه[1] .

(1) نص الرسالة منشور بنفس العدد من «البصائر».

الفضيل الورتيلاني(*)

وصلتنا من بيروت كلمة الأخ الكريم الحاج خليل أبو الخدود -ومعها تصريحات لولدنا الأبرّ الأستاذ الفضيل الورتيلاني- قبيل الاجتماع العام لجمعية العلماء، وكنا إذا ذاك منهمكين في إعداد الإجتماع،وفي إستقبال السنة الدراسية وشؤون المدارس والمعهد الباذيسي، وما يستلزمه ذلك من أدوات ووسائل وتجديد في الأجهزة اللازمة من برامج ومال ورجال،ولقد كان إسكان تلامذة المعهد- وعددهم يشاوف السبعمائة- كافيًا لاستنفاذ الجهد، واستغراق الوقت، وقارنت تلك الجهود تأخّر «البصائر» عن مواقيتها لأسباب داخلية إقتضاها التجديد، لذلك كله تأخّر نشر الكملة وما معها من تصريحات إلى هذا العدد، فمعذرة إلى الأستاذين الفاضلين، البعيدين عنا بعد الدار، القريبين من قرب العمل المشترك، والفكرة الجامعة: أبي الخدود والورتيلاني.

• • •

وقد كنا قرأنا في الجرائد الشرقية خبر عفو أمير اليمن عن المتهمين في الحركة الإنقلابية التي كان من آثارها قتل أبيه يحي حميد الدين، فلم يحرّك منا هذا العفو شعرة، كما لم يثر العاطفة، فنحن من أشد الناس إفتتانا بالعروبة والعرب، وأرقهم إحساسا في النوائب التي تنوبهم، وأعمقهم أسًى للحالة التي هم عليها، ولكن رأينا في ملوك العرب معروف، ومن رأينا في الكثير منهم أن كل ما يصدر منهم من عقد ونقض وعفو ومؤاخذة فهو ناشئ عن خطرات من الوساوس الفردية، لا عن بواعث من المصلحة العامة،

(*) نشرت في العدد 174 من جريدة« البصائر»، 5 نوفمبر1951.

وأنهم عدموا القوانين المقيّدة، فاستحكمت فيهم النزعات المطلقة، فأصبحوا -في نظرنا- يوجدون، فكأنهم في فراغ الحياة- ماوجدوا، ويفقدون فكأنهم، لهوان الخطب، مافقدوا، ومن رأينا في ذلك الانقلاب أنه أحط من بصيرة المتبصرين بدرجات، وأنه متأخر عن وقته بسنوات، وأنه لو صحبته البصيرة، وكان العلم والعقل من ذرائعه، لكان تطورا لا إنقلابا، ولما سال فيه ملء محجم من الدم.

• • •

وقالت تلك الأخبار: إن العفو شمل الأستاذ الفضيل الورتيلاني المتهم بتدبير الإنقلاب والاغتيال، وتباشر أصدقاؤه وعارفو فضله بهذا العفو، كأنهم رأوا فيه حدّاً للحالة التي يعيش عليها، وكأنهم يرون أن تلك التهمة - على بطلانها- عاقت الأستاذ الفضيل عن مواصلة جهاده في سبيل العرب والمسلمين، فالعفو يضمن له متابعة الكفاح.

والأستاذ الورتيلاني إبن بار من أبناء جمعية العلماء، وغصن من دوحتها الفينانة، فتح عينيه على شعاعها، وسار في الحياة من أول خطوة على هداها، وقضى عنفوان شبابه في أحضانها، وتخرّج في العلم والعمل على قادتها، وبزّ الجياد القرّح في ميادينها ، ورمى الغايات البعيدة بتسديدها، وراض عقله على التفكير الصائب، ولسانه على الحديث الصادق، في الإصلاح الاجتماعي، وجرّته غيرته المحتدمة على وطنه إلى العمل للإصلاح السياسي، وهذه انواع من الإصلاح متشابكة الأصول، متشابهة الفروع، تفصل بينها فواصل إعتبارية دقيقة، ولكن الأجرياء المقدمين يرونها متلازمة، متوقفا بعضها على بعضها، فلا يتم جزء منها إلا بتمام جميعها، ومن هؤلاء ولدنا الفضيل، فلما ضاق عنه وطنه الأصغر، طار الى وطنه الأكبر.

ولمكان الأستاذ الورتيلاني منا، ومكانته عندنا، وعدّنا إياه من أبنائنا البررة، ورجالنا الأفذاذ، ويقيننا بطهارة ذمّته من القاذورات، وتسامي همّته إلى بناء المأثرات، نرى أن كلمة «العفو عنه» كما تقول الجرائد، سُبة لم يسب بأفحش منها، ولا نظن أن ولدنا الفضيل ارتاح لها، أو وقعت منه موقعا، لما نعرفه فيه من الشمم وكبر النفس، ومازالت كلمة العفو في مثل هذه المواطن ثقيلة على النفوس الحرّة، لا يطرب لها إلا المذنبون الضارعون، كالذي يقول: «رأيت العفو من ثمر الذنوب»، وإذا كان العفو لا يكون إلا عن جان، فإقراره إقرار للجناية، ومتى كان الفضيل جانيا حتى يعفى عنه؟ أو حتى يكون العفو عنه مدعاة للسرور والابتهاج؟ وقد وقع لنا مثل ذلك من الاستعمار، يظلمنا، ثم يبدو له فيقول: عفوت عنكم، فلا يكون أحز في نفوسنا من ظلمه إلا عفوه. كل ذنب الفضيل أنه أراد أن يعالج ناحية من نواحي تلك المملكة الشقية، فعاجلته الأيدي الخفية التي لا تريد إصلاحا، بتلك الحادثة.

وبعض ذنبه- إن كان هذا يسمّى ذنبا- أن جرأته على مصارحة الأمير الفتيل بلزوم الإصلاح، وتنبيهه الى مواقع الخطر المترتب على الإهمال، كل ذلك جرّأ الطائشين على التعجّل بأمر لم يجيلوا فيه روية، ولا تدبّروا له عاقبة، والمعاني الكبيرة لا تحتملها العقول الصغيرة، وأعان على ذلك ظلم طال أمده واتّسع مداه، وتظلم خفت صوته فلم يتردّد صداه.

إننا نعلن – نيابة عن الأستاذ الورتيلاني بما لنا عليه من حق الأبوية – أنه يستحق التبرئة والاعتذار إليه، لا العفو، إذا كانت العقول قد ثابت إلى رشدها، وطهر الجو من الروائح الاستعمارية التي أفسدته، أما إذاكان الإمام لا يحسن الإمامة، وكان السيف لا يقطع الا أوصال جاليه، فخير للفضيل أن تتخطفه

الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق من أن تكتب في تاريخه الحافل «طرة» وهي أنه (مجرم معفو عنه).

• • •

إننا قوم لا نرضى من الأخلاق إلا أن تكون عقائد، وإن هذه الإعتبارات هي التي أسكتتنا من الحديث في هذا العفو، وإن لا منا عن هذا السكوت اللائمون، أما ماجرّته تلك التهمة على الأستاذ الفضيل من تنكّر المملوك له، وضيق الحكومات به، فهو امتحان البطولة، وطالما أدّاه الأبطال قاسيا ثقيلا، وما زالت العليا تعني غريمها، كما يقول إبن خميس، وهو دليل البطولة، والبطولة منها عليها شواهد.

وأما ما لقيه بسببها من تجهّم بعض الأصدقاء، فهو دليل على أن صداقتهم كانت على دخن، أو من شماتة بعض الخصوم، فهو دليل على أنه كان غيظ الحاسد، ومسيح الدجاجلة، وكل ذلك مما يغلي قيمة الفضيل، ويبين عن صفاء جوهره، وأن تلك الغمّة العارضة ما زادت على أن كانت تلقيحا في رجولته، وتنقيحا في أصدقائه، وإفتضاحا لخصومه.

الأستاذ محي الدين القليبي(*)

زارنا في هذا الأسبوع الأديب الكاتب المفكّر الرحّالة الأستاذ محي الدين القليبي، زيارة تمكين للأخوة الصادقة، وإحياء لعهد الصحبة القديم، ونزل ضيفا على جمعية العلماء، فوجد هذا العدد الخاص بمصر في دور الإعداد، فرغبنا إليه أن يشارك فيه بكلمة، فكتب الكلمة المتينة التي ننشرها بعد هذه التوطئة، في نقطة من موضوع الحالة الحاضرة في مصر.

والأستاذ القليبي كاتب اختصاصي في مثل هذه الموضوعات، مرتاض القلم على الجري فيها طلق العنان، ومفكّر ألمعي فيما يختلف فيه الرأي منها، فيأتي رأيه فيها كفلق الصبح، لكثرة ما درسها وبحث فيها نظريّا، ولما باشرها وساهم فيها عمليّا.

و«البصائر» تغتنم هذه الفرصة الغالية، فتتقدّم إلى الأستاذ القليبي، بترحيب الثابت على العهد، وتحية المقيم على الودّ، وشكر العارف بالمنّة، راجية له إقامة حميدة وأوبة سعيدة، وصحّة تعين على أداء الأمانة وخدمة الوطن.

(*) «البصائر» عدد 178و179، السنة الرابعة، 7 جانفي 1952، تقديم مقال للأستاذ القليبي بعنوان «كتائب التحرير في مصر ومَن أحقّ بتسييرها؟»

ديوان «مع الله»
للشاعر عمر بهاء الدين الأميري(*)

قرأت هذا الديوان الصغير، الذي احتوته هاتان الدفتان... ثم جاد الزمن علي بمعاشرة الشاعر... عمر بهاء الدين الأميري...في كراتشي، أسابيع، وتلطف فأسمعني كثيرا من شعره، مكتوبا، ومحفوظا، فدهشت لهذه الشاعرية الجيّاشة، التي وهبتها الفطرة الصافية لهذا الوزير الشاعر، وهذا الخيال الخصب الذي يفيض بالمعاني فيضا...

... وأقوى ما تبدع هذه الشاعرية، فيما لاحظت، حين تتصل نفس شاعرنا بالله، وبمجالي آياته في الكون، وباسرار النفس البشرية، وغوامضها، وصلاتها بما يجاورها من مخلوقات، ونسبتها الى هذه العوامل، المنظورة والمغيبة.

كذلك حين تتصل أو تماس الآلام أو الآمال، فهنا ترى نوعا غريبا، من الإبداع في الوصف، ونوعا آخر من التحليق، وتسمع خفقات تتبعها زفرات، تتبعها أنات.. تنبعث منها آهات... يمزجها الشاعر في مقاطيع صغيرة، من البحور القصيرة، سهلة السبك، سهلة القافية، فتأتي مؤدية لمعانيها، وكأنها بين الآهات انقطاع واستراحة.

ولشاعرنا «خماسيات» تعوّد منذ سنين أن ينظمها في أيام «رمضان» وكأنها تجليات من روحانية هذا الشهر المبارك، على نفس الشاعر الرقيقة، التي يذكيها الاتصال بالله.

إن لإيمان صاحبنا الوزير الشاعر، وتقواه، وتربيته الدينية، ومحافظته على الشعائر، دخلا كبيرا في تلوين شاعريته، وإضفاء جلال الدين عليها ... وهو

(*) ديوان «مع الله»، دار الفتح، بيروت (لبنان)، 1392هـ، ص 216.

في هذا شبيه بمثله من الشعراء الأتقياء، وقليل ما هم- ومنهم شاعر الجزائر محمد العيد، ولكن للأميري نفسا مرحة، وشأوا في الأحماض بعيدا، ولكنه لا يجاوز لسانه، وهياما بالجمال في أكمل معانيه، لا يتدلى الى المعاني التافهة، التي يسف إليها أصحاب النفوس الصغيرة... وللشعراء في فهم الجمال وفي معانيه، وفي مجاليه، وفي تذوقه، مشارب متفاوتة، تبتدىء من «الملا الأعلى» وتنتهي إلى «الغزائز السفلى».

الشاعرية في شاعرنا الأميري قوية، حية، موهوبة، مشبوبة، جيّاشة، وهي مسستندة على حظ من البيان العربي غير قليل، وثروة من اللغة محيطة بالمعاني التي راض الشاعر قريحته على النظم فيها، وتبدو لسلاستها وسهولتها فطرية سليقية، لا تكلف فيها ولا عسر، مفصّلة على المعاني، موزّعة على الأغراض، كأنها لم تخلق إلا لها!

ولكم تمنيت لهذه الشاعرية القوية لو صحبها توسّع لغوي، وقراءة متأنية لفحول البلاغة، وإذن لجاء من هذا الشاعر، نادرة العصر، ولتكشف عن فحولة تخمل الفحول.

أنا آسف جد الأسف، أن لاتنشر هذه المقاطيع الجميلة، وأن تبقى هذه القصائد من غير نشر، وقد لمت الشاعر، في دلال الأبوّة على هذا التقصير، وقلت له: إن هذا ازراء بالأدب الرفيع، ووأدلكرائم الشعر، وهي من عمرها في الربيع، وفهمت من ملابساتي للشاعر أن هذه النزعة منه راجعة الى طبعه المتأصل في الصلاح والتقوى، وأنا أطمع أن يكون لكلامي تأثير في نفسه، فيتحف الأدب العرعبي بهذه العرائس المخدرة في القريب، ولئن جاد بذلك، ليجدنّني في طليعة المنوّهين بهذا العمل الجليل...

كراتشي، باكستان في 14 رمضان 1371.

الشيخ محمّد نصيف(*)

أيها الإخوان:

إن هذه الحفلات التي تقام لتوديع الأصدقاء أو لاستقبالهم، وغير هذا من المناسبات الإجتماعية، هي من دواعي الفطر السليم والنفوس والكريمة، وإن الصداقة قد تخمد والمودة قد تركد وإنما يصقلها ويجددها مثل هذه الحفلات.. وإن إقامة هذه الحفلات ليست من ابتكار المدنية الغربية، وإنما قد سبقتهم إليها مدنية الإسلام، وإن الذين إبتكروها هم الأسلاف من أهل الأندلس، وقد سمّوها «صنيعا».

أيها الإخوان:

رؤوس الأموال أنواع، وحظوظ النّاس منها متفاوتة: منها المادي الذي يقدر بخصائص الماديات من الكيل والوزن، أو بالذرع والمسح، أو بالعدد الذي كلّما انتهى صارت ملايينه آحادا، ومنها المعنوي الروحاني الذي يقاس بالموازين الروحية، ويوازن بالقيم العلوية بمعرفة صيارفة، من طراز سماوي يتسامى عن المادة وأوضارها وأكدارها وشرورها وآثامها، ولو خير موفق بين الجنسين لما اختار المادّة وإن تعرّضت زخارفها، وعرضت بقطوفها الدانية لخارفها، وإنما يختار أقوات الروح من المعنويات، ولكن الأذواق كالأرزاق منها الحلال ومنها الحرام، ومنها السالم والمعتل، ومنها السديد والممثل، إن

(*) من الكلمة التي ألقيت في الحفل العلمي التكريمي الذي أقامه الشيخ محمد نصيف ببيته في جدّة، في أكتوبر 1952، بمناسبة إنتهاء زيارة الإمام الإبراهيمي للمملكة العربية السعودية، ونشر ملخص منها في مجلة «المنهل»، العدد 4، ربيع الثاني 1372هـ، يناير 1952م.

الموفقين لعرفون أن رؤوس الأموال المادية كرؤوس الشياطين، تتحرك قرونا للفتنة والشر، ويستمس حرونها للفساد والضرّ، وقد صرنا الى زمان أصبحت فيه رؤوس الأموال المادية مبعث شقاء للإنسانية، وكفى بحال العالم اليوم شاهدا أدّى وسجل وأمن التجريح.

أيها الإخوان:

من سعادة أخيكم هذا أنّ حظّه من هذه الثروة المعنوية موفور، وأنه يكاثر بها ويفاخر، ويعتّز بها ويغالي، ويعتدّ ويقالي، وحسبه، من الحظوظ في الحياة أن يكون له أصدقاء أصفياء من هذا الطراز، يصدقونه، المحبّة، والمحبّة ملاك، ويصدقونه الهوى، والهوى مساك، ويمحضونه التقدير، والتقدير مسنّ، ويشاركونه في المبدأ، والمبادئ أرحام عند أهلها، وما لي لا أكون موفور الحظ من هذه الثروة وهؤلاء الإخوان الذين أجتلي غررهم، وكأنّما أستشف من وراء الغيب سرائرهم، ما أجتمعوا إلا بسائق واحد ليس من حدائه نغم الرغبة والرهبة، ولا هرج الرياء والنفاق، وإنما هو الوداد الخالص والصفاء الصافي، والتكريم لأخ أحبّهم وأحبّوه في المشهد والمغيب، والتقوا به في ميدان القلم بعيدا وفي ميدان اللسان قريبا، فكان بين أرواحهم وروحه تجاوب هو من أثر يد اللّه في الأوراح المتعارفة.

أيها الإخوان: إن من مذاهبي التي إنتهت بيٌّ تجارب الحياة إليها أنني لا أفهم الصداقة كما يفهمها الناس، وإنما أفهمها امتزاجا فكريا سبّبته عوامل خفية المسارب في الجبلة الأولى ولذلك فأنا أفهم أنّ الصداقة لا تزول ولا تنتهي بعداوة من الجانبين، فإن انتهت بعداوة من الطرفين دلّ ذلك على أنها ليست صداقة، وإنّما هي شيء مقنّع يسمّيه العرف المنافق المتساهل صداقة وليس بها، إنما هو تجارة انتهت بانتهاء المصلحة، أو زواج متعة انتهى بانتهاء

الأجل، أما الصداقة الطاهرة البريئة فهيهات أنت تنتهي بعداوة، ولقد يعرف منّي إخواني الملابسون لي أنّي لم أعاد في عمري صديقا، فإذا باداني بالعداوة لم أجاره في ميدانها خطوة، ووكلته الى الزمان الذي يقيم الصعر، فإذا هو تائب منيب أو خجلان متستر، وقد يسبّني أقوام بما ليس فيّ، فلا أقطع عنهم عادة من عوائد البر والرفق لعلمي أنّهم إنما يسبون غيري بعد أن يلبسوه اسمي، وإن هذا لمن طوابع التربية المحمّدية، بين أتباع سنّته، عبّر عنها بجملة من جوامع كلمه: «إنهم يقولون مذمم وأنا محمّد».

أيها الإخوان: لقد سمعت كلمات من بعض خطباء هذا الحفل وأنا غير راض بها ولا عنها، وأنا كنت- ومازلت- أحارب هذه الألقاب، وقد سمعنا من شوقي قوله: «إذا كثر الشعراء قلّ الشعر» وعلى هذا الوزن يصحّ أن نقول: إذا كثر المجاهدون قلّ الجهاد.

إن المجاملات لا تكون إلا حيث يكون الضعف، وإن هذه الألقاب لا تتمكن إلا حيث تفقد المناعة الخلقية المتينة، ولذلك لا نجدها عند أسلافنا الذين قوي في نفوسهم سلطان الأخلاق، وما نبتت هذه المجاملات إلا في العصور الإسلامية المتأخرة حينما وقف تيار العلم والخلق، وضعفت دولة السيف والقلم، قادتهم هذه الحالة إلى التمجّد الأجوف بالكلمات الضخمة الجُوف، ولذلك كثرت الألقاب وصرنا نسمع هذه«الطغراء» الكاتب الكبير، المجاهد العظيم، الزعيم الكبير....

إنني لم أكن مجاهدا، وإذا كنته ففي شيء واحد هو محاربة البدع والضلالات ومحو الأمية، وتعليم الأمة، وهذه الأمور عادية لا ترفع القائم بها الى مستوى الجهاد، وحقا إن الألقاب التي إعتدنا إستعمالها إنما هي «طغراءت» جوف لا تحقق أمنية ولا تؤدي الى غاية شريفة، إن عبد الحميد

بن باديس كان إماما في العلم والتواضع ومع ذلك فما كان إخوانه يخاطبونه بشيء من ألقاب الزعامة الفضفاضة، والذي استحسنه هو أن يتخاطب المسلمون فيما بينهم بكلمة «الأخ» أخذا من قوله تعالى: (**إنما المؤمنون إخوة**).

• • •

أيها الإخوان: إنّ من بين الأصدقاء الذين جمعتهم الصداقة في هذا الحفل الصادق ثلاثة قدم عهدي بصداقتهم فلم يزدد إلا جدة: هم الأصدقاء المخلصون محمود شويل، وحسونة البسطي، ومحمد نصيف، فقد جمعنا الشباب الطامح والأمل اللامح بالمدينة المنورة منذ أربعين سنة، وتجاذننا ملادة العلم فضفاضة، وتنازعنا كأس الأدب روية، وزجّينا الأيام والآمال العذاب، ولكننا نمنا في يقظة الدهر فما إستقظنا إلا وبعضنا مشترّق وبعضنا مرّب، وبعضنا في مدار الحوادث يدار به ولا تدور، وها نحن أولاء إجتمعنا بعد بضع وثلاثين سنة، وكأن خاتمة الفراق وفاتحة التلاق خميس وجمعة لهمَا ما بعدهما، وكأن ما بينهما من هذه المدة الطويلة إنطوى ومحي، وكأنّ الذكريات بينهما حبال ممدودة أو سلاسل مشدودة، وكأننا لم نفترق لحظة، وكأن تلك الصداقة الصادقة بيننا شباب أمن الهرم، كما أمن الصيد حمام الحرم.

إيه أيها الرفاق، هل تذكرون ما أذكر من تلك الليالي التي كانت كلها سمرا كما قالوا في ليل منبج؟ هل تشعرون بمَا أشعر به من تفاوت بين تاريخ الفراق، وتاريخ التلاق؟ هل تشعرون كما أشعربأننا كنا في هذا الفراق الطويل أشبه بالميت أغمض عينيه من الدنيا، وفتحهما على الآخرة، هل تحسّون كما أحسّ بأنّ مدّة الافتراق كانت صفحات كلها عبر ووخز إبر، وجمل ممن الحوادث سمعنا بمبتداها ومازلنا في انتظار الخبر؟... هل أنتم شاعرون مثلي

بأنّ آمال المسلمين، من يوم تركناها بالإفتراق الى يوم لقيناها بالاجتماع، تحققت ولكن بالخيبة، وأن أعمالهم نجحت ولكن بالفشل ، أما آمالهم فما زالت كموتا يسقيه وعد، وأما أعمالهم فما زالت إبلا يوردها سعد (وما ظلمهم اللّه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

أيه أيها الرفاق، إن الزمان فرّقنا شبابا وجمعنا شيبا، ولئن أساء لي هذا فلقد أحسن في أننا إجتمعنا أصلب ما كنّا قناة في عقيدة الحق، وأجرى ما كنّا ألسنة في كلمة الحق، وأجرأما كنا رأيّا في تأييد الحق، وأثبت ما كنا عزيمة في الدفاع عن الحق، إنّ الهمم لا تشيب وإن العزائم لا تهرم، وليس هذا البياض غبار وقائع الدهر كما يقول الشاعر، وإنما هو غبار الوقائع مع الدهر، فلا تهنوا ولا تفشلوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

• • •

أيها الإخوان: إنّي أتوسم في هذه الوجوه وأتلمّح ما وراءها من علم ومكارم، لا أقول فيهما بالتقليد ولكني خبرت وبلوت فاجد مصداق، الحديث، هذه مكة رمت إليكم بأفلاذ كبدها، بل أقول هذا الحجاز رمى إليكم بأفلاذ كبده، ومَن غير أستاذنا الجليل محمد نصيف يستطيع أن يجمع العالم في دار، أو يدّخر كنزا ثمينا تحت جدار، ومن عجب أن القضيتين متعاندتان ، فالذي يستطيع أن يجمع عالما في دار لا يستطيع أن يجمع كنزا تحت جدار، ومادامت الموائد تنصب، واللقم ترفع، والصحون تجرّ، والأفواه تفتح وتضم، والطعام كرات، والملاعق مخاريق بأيدي لاعبينا، فإن حال أستاذنا معنا حال أبي دلامة من شيوخ بني تميم إذ يقول: نحن شيوخ بني تميم... وأنت –يا أستاذنا– أبو دلامة، فاجهد جهدك، وأن شيوخ بني تيميم موفون بعهدهم فاوف، بعهدك، وإن هذه الدار مهدنا فإنّ برمت أو ضجرت

فاجعل غيرها مهدك، وإن دار الشيخ نصيف لم تبرم بنا ولم تضجر، فأعانك اللّه على هذا الجند أيها الشيخ الحصيف الكريم.

أيها الإخوان: إذا ما لم ينصف الحجاز شيخه ومخلد مجده، ورافع رايته أستاذنا الشيخ نصيفا، فإن العالم الإسلامي كله، ينصفه، فكلنا ألسنة شهادة بأنه مجموعة فضائل نعدّ منها ولا نعدّدها، وأنه مجمع يلتقي عنده علماء الإسلام وقادته وزعماؤه فيردون ظماء ويصدرون رواء، وأنني أقولها بصيحة صريحة وأؤدّبها شهادة للحق، والتاريخ بأنه محيي السنّة في الحجاز من يوم كان علماؤه، ومنهم أشياخنا- متهورين في الضلالة، وأنه صنع للسلفية وإحياء آثارها ما تعجز عنه الجمعيات بل والحكومات، وأنه أنفق عمره وماله في نصرها ونشرها، في هذوء المخلصين وسكون الحكماء، وسيسجّل التاريخ العادل آثاره في عقول المسلمين وسيشكر له اللّه غزوه للبدع بجيوش السنن المتمثلة في كتبها وعلوم أئمتها، وجمعية العلماء نفسها مدينة له، فإن الكتب السلفية لم تصلنا إلا عن يده، وسيسجّل أنه مفخرة من مفاخر الإسلام وأنه كفّارة عن تقصير العلماء وأنه زهرة فوّاحة في أرض الحجاز وأنه جماله الذي يغطّي كل شين، إني كنت قلت في الشيخ نصيف أبياتا منها:

قل للذي عــاب الحجــا ... ز وجانب المثل الحصيفــا

هيهات لست ببالـــــغ ... مدّ الحجــاز ولا «نصيفــا»

الأستاذ الفضيل الورتيلاني(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوان:

مافكرت في هذا الموقف، ولا دبرت طريق الخلاص من مفاجآته إلا بعد أن دخلت القاعة وتراءت وجوه الإخوان وسبقني بعضهم بالحديث، فوجدت نفسي بين عاملين قويين متعاكسين: عامل الأدب العرفي الذي يعلو حتى يصل الى الغلو والإغراق، وينزل حتى ينتهي إلى الإسفاف والعامية، وعامل الحقيقة الواقعة الذي هو دائما ميزان اعتدال.

تواضع الناس على أن مدح المرء لنفسه ذمّ، وتندر العرب في ذلك بالكلمة الساخرة: مادح نفسه يقرئك السلام، وتواضعوا على أن إطراء المرء لولده ذمّ، فإن لم يكن ذما فهجنة، وإن إعتذر عن ذلك بعض الناس الخارجين عن القياس بأن هذا من مقتضيات الفطرة، فهو تنفس بشيء من معاني العواطف التي تنطوي عليها كل نفس، والفطريات الوجدانية لا تخضع لهذه القوانين التي يسنها المجتمع، ومن كلمات العرب السائرة في هذا الباب: المرء مفتون بابنه، وزاد البحتري: وبشعره، وهو صادق: فإن فتنة الشاعر بشعره أعظم من افتتان الوالد بولده.

وأنا أرى أنه ما أكد هذا القانون العرفي في نفوس الناس إلا غلوهم في الإطراء، ومبالغتهم في المدح والثناء، حتىّ لا يكون المدح عندهم مدحا إلا هكذا، ولا يكون أدب المواجهة أدبا إلا إذا كان من هذه الآداب الزائفة المنافقة

(*) كلمة ألقيت في الحفل الذي أقيم في فندق«سميراميس»بالقاهرة تكريما للأستاذ الفضيل الورتيلاني، في شهر نوفمبر 1952.

التي أصبحت مادة لحياة الناس لا يتعارفون إلا بها ولا يتعايشون إلا عليها ولا يديرون ألسنتهم إلا بها، من تحية الصباح إلا بأن يخيط النوم أجفانهم، وأصبحت عمارة المجالس وبضاعة الأندية وقاعدة السلوك، ويعدّون الخارج عنها خارجا عنهم، ولو أنّهم سلكوا القصد والتزموا الحق ووزنوا كلامهم بميزان الصدق لسقط تسعة أعشار هذه اللغة الرائجة في المقابلات والتحايا والتمادح، ولسقط مثلها من قاموس التواضع الزائف مثل العبد الضعيف العاجز، الفاني.

فإذا لم نلغ هذا العامل فالأستاذ الفضيل الورتيلاني الذي يحتفي به إخوانه وعارفو فضله من أهل العلم والأدب والوجاهة والقلم واللسان، هو ولدي روحيا وتلميذي فكريا، وهو ثمرة طيبة من بواكير الحركة الإصلاحية العلمية التي أنا أحد المحركين لها والغارسين لبذورها، زكاه اللّه صبيا ويافعا وشابا وآتاه من المواهب في الصغر ماشارك به أساتذته في وضع الأساس لهذه الحركة المباركة، بحيث لم يزيدوا عليه ، فيها وأنا أحدهم إلا بالسن، فإذا أطريته الليلة تمشيا مع أدب التكريم أكون قد مدحت نفسي وانحرفت عن الأدب العرفي.

لكل من الإخوان الحاضرين علاقة بالأستاذ الفضيل هي التي حركته لحضور الحفلة وهي التي تملي عليه إذا تكلّم فيها معلنا أو ناجى مخافتا، ولكن علاقتي به تريد على ذلك كله: هي علاقة الوالد بالولد، وهو لوفائه وإنصافه يفخر بها، وأنا به أشد فخرا وأكثر مباهاة وأكثر اعتزازا.

ونحن بفضل اللّه وتوفيقه، قد بنينا حركتنا من أوّل يوم على قواعد ، منها القصد في الآداب المرعية بين التلاميذ وشيوخهم، لأن القصد أقرب إلى الصدق حتى كأنه مقلوبه كما يقول علماء البديع، ومنها تفصيل الإحترام الظاهري على مقدار ماتكنّه النفس من معانيه وأسبابه، ومنها تنزيل الإحترام

والتقدير على الأعمال لا عَلى المرتبة ولا على السنّ، ومنها تسمية الأشياء بأسمائها من غير محاباة ولا إجحاف، ومنها أعتبار الوقت رأس المال فهو أجلّ من أن ينفق إلا في المفيد.

• • •

أما العامل الثاني هو عامل الحقيقة والواقع فهو المقدم عندي وعند جميع العقلاء في الإعتبار، ولذلك فأنا أقتحم الموضوع من غير إستئذان للأدب العرفي ولا توقف عليه،وأقول في ولدي وتلميذي وخالصتي الأستاذ الفضيل الوريتلاني مايقوله الوالد العاقل الحساس في ولده البرّ، وما يقوله الشريك الأمين في شريكه الأمين، وما يقوله الزميل الشريف في زميله الشريف، وأقول فيه في المشهد ما أقوله في المغيب، ولا أقول– إن شاء اللّه– إلا حقا.

أقول: إنه رجل أي رجل، أو إنه الرجل كل الرجل، بالمعنى الذي تعرفه العرب من هذين التركيبين القصيرين الجاريين مجرى لغة البرقيات في زمننا، تجمع ضيق اللفظ واتساع الدلالة، ولعلّ من الإحسان إلى الإخوان الذين عرفوا الوريتلاني في الشرق وهو في أواخر شبيبته وأوائل كهولته، أن أعرّفهم بشيء من نشأته، فإن ملكات القوة إنما تثبت إذا كان وضعها صحيحا وعلى أصل صحيح، وإن العلّم بهذا شيء أنفرد به دون الإخوان، فمن الجوامع بيني وبين الورتيلاني قرب البلدين وقرب الميلادين، بين ميلادي وميلاده في الزمان بضع عشرة سنة، وبين مولدي ومولده في المكان مسافة لا تزيد على ثمانين ميلا.

وأقول إنه رجل تضافر على تكوينه قوة الاستعداد للخير، وحسن الإعداد له، أما الإستعداد للخير فهو من أثر يد اللّه في عبده إذا أراد به خيرا، وقد خلق الرجل مستعدا للعظائم، مهيأ لمعالي الأمور، مرشحا للقيادة، يلمح فيه المتفرس،وهو صغير، ملامح البطولة، ومخايل الاعتداد بالنفس والاعتزاز

بالذاتية، والذكاء الذي يكاد يحتدم في جوانب صاحبه، ويرى فيه المتوسّم، وهو شاب طرير، جرأة على المكاره يصحبها رأي عاقل وعزم صادق، وجرأة على الطغيان والظلم يصحبها قول مسدّد وعمل دائم، وحركة غير معتادة في لداته من الشبان، وطموحا نزّاعا إلى العلى، وعزّة نفس متسامية إلى الكمال، وثورة على الذين يصفون للأمّة الجزائرية سعادة الآخرة ولا يسلكون بها سبيلها، وعلى الذين يصفون لها سعادة الدنيا ويسلكون بها غير سبيلها.

وأما الإعداد فيبدأ من البيت الذي فيه ولد، والقرية التي فيها درج، والمحيط الذي فتح فيه عينيه، والمضطرب الذي إضطرب فيه طفلا وشارخا، والنشأة التي عليها نشأ.

نشأ الأستاذ الفضيل في بيت يجمع حاشيتي النسب والحسب، والخلق الموروث والمكتسب، ويتصل سند العلم فيه إلى أجداد، نبغ منهم في القرون الثلاثة الأخيرة آحاد، ويمتاز هذا البيت بالتدين المتين والروحانية المتألقة والتربية الربانية والاتصال القويّ باللّه والتقلّب في مراضيه، والجري على الفطرة السليمة التي لم يمسسها زيغ، والاستقامة الشرعية التي لم يلابسها عوج، يحوط كلّ ذلك علم متسع الجوانب بالنسبة إلى زمانها ومكانها.

ثم درج أول ما درج في قرية تحيط بها قرى، تحيط بهنّ مجاميع من القوى لم يطرقها دخيل منذ دخل الإسلام، وكلّها متساندة علي حماية الدين والعرض والخلق والمال في نظام ذي نزعة جمهورية يقوم بتنفيذه في كل قرية جماعة منتخبون من أهل الفضل والعقل والعدل ويسمونهم العقلاء أو الأمناء، ولهم في كل قرية دار الأمناء يجتمعون فيها كل يوم ثلاثاء لدرء المفاسد وجلب المصالح، فلا يلمّ بالقرية شرّ، ولا تنجم فيها بدعة، ولا يقع إعتداء من شخص على شخص،ولا تشم رائحة مما يمسّ عرض الغائب أو الحاضر، إلا

بادروا ذلك بالصلح أو بالحسم أو بالعقاب، ولهم في ذلك أحكام نافذة السلطان تقوم بالمصلحة ولا تجافي أحكام الدين ولا تدع المجال لتدخل الحكومة الإستعمارية وأعوانها، وأن سبعين في المائة من قضاياهم لا تسمع بها الحكومة، وقد أدركت وأدرك الأستاذ بقية من شيوخ تلك القرى عاشوا الثمانين والتسعين من أعمارهم ولم تر أعينهم فرنسيا واحدا في ذلك العمر المديد، ويعاون هؤلاء الأمناء على تربية الجمهور أن في كل قرية جامعا للجمعة ومساجد للخمس وخطباء من أنفسهم يختارونهم بأنفسهم، وفي كل مسجد حلقا لتحفيظ القرآن وأخرى لدروس الدين والعربية، ولا سلطان للحكومة علي هذه المساجد ولا على هذا التعليم المسجدي في هذه القرى دون سائر القطر الجزائري، فإن الحكومة الفرنسية أستولت على جميع مساجده وأوقافه واحتكرت لنفسها التصرف في أئمته وخطبائه، وإن هذا الموضوع طويل جاهدت جمعية العلماء في ميدانه عشرين سنة ومازالت تجاهد.

في هذه القرى السالمة يتزوّج الرجل الصالح بالمرأة الصالحة فيلدان الولد الأصلح، وإذا كان الطفل يتقلب بين أحضان الصالحين وحجور الصالحات، ويرجع من أخدان صباه وعشرات داره وزملاء ملاعبه إلى طفولة طاهرة راشدة تحرسّها أعين المجتمع كله، فأخلق به أن يكون مثالا للإنسان الكامل.

ثم فتح الأستاذ عينيه أول ما فتح على شماريخ الأطلس الأصغر وقممها الشمّاء، وشناخيبها المتناوحة وغاباتها الطبيعية التي تكسو سطوحها، وغابات الشجرتين المباركتين- التين والزيتون- التي تجلل سفوحها وعلى الوديان العميقة التي تخترقها هدارة السيول، وعلى مناظر الثلوج التي تكسو تلك القمم ثلث السنة، فاكتسب من كل ذلك هدوء التأهل، ومتانة الفكر، وصلابة العقيدة، وركانة العقل، وثبات الصيغة، ووعورة الجذ حتى لا مخلّ

معه لهزل ولا لهزال، وإنّ التوعّر لألزم الخلال للرجل، لاسيّما في هذا العصر الهازل المتخنث.

ثم إنتقل من ذلك المحيط بعد أن أتقن القرآن الكريم حفظا،وألمّ بمبادئ العلوم إلى مدينة قسنطينة، وهدّته بصيرته النيرة وقريحته العطشى إلى الإتصال بباني النهضة الجزائرية بجميع فروعها ومربى الأجيال الحديثة فيها على هدى القرآن وخلق محمد عليه السلام، أخطب علماء الإسلام في عصرنا وأقواهم بيانا لمحاسن الإسلام المرحوم الشيخ عبد الحميد إبن باديس، سليل تلك الأسرة التي خلفت الفاطميين على مملكة افريقية، وللمرحوم طريقة غريبة في وصل تلامذته باللّه وتفقيههم في حقائق سننه في الأنفس والآفاق، وله قدرة عجيبة في إستلال النقائص من نفوسهم، وفي ترويضهم على الكمالات النفسية واللسانية والبدنية وفي إعدادهم لمراتب الرجولة التي لاتخضع إلا للّه، وفي تعويدهم على أساليب الدعاية وتزويدهم بدلائل الحق.

وجد التلميذ أجنيته في الشيخ ووجد الشيخ بغيته في التلميذ، فقطع به مراتب التربية والتعليم في سنوات، وحضر عليه معظم دروس التفسير، وقد ختم الشيخ القرآن الكريم كله تفسيرا في خمس وعشرين سنة، ولم يختمه فيما نعلم في مغاربنا الثلاثة إلا أبو عبد اللّه الشريف التلمساني، في أوائل المائة الثامنة.

غبر الأستاذ الورتيلاني في وجوه السابقين فأصبح مساعدا، لأستاذه في إلقاء الدروس للتلامذة وكانوا يجاوزون ثلاثمائة طالب هم عماد الحركة اليوم، وفي تلك المدّة كان يقضي الصيف جوّالاً صوالاً في القطر، واعظا مذكرا، مثيرا للهمم الراكدة.

وله في الجزائر اليوم تلامذة وزملاء ما زالوا يحملون الذكريات العاطرة لعهده[1].

---

(1) لم نعثر على بقية الكلمة.

صوت من نجيب، فهل من مجيب؟(*)

حضرت قبل أسابيع حفلة تكريم للقائد الشعبي العظيم محمد نجيب أقامتها جمعية من الجمعيات العاملة للإسلام وسمعت خطبًا عادية في المعنى الذي أقيمت له الحفلة، وسمعت قطعة من الشعر أشهد أنه شعر حي صادق في تصوراته، وأنه مسّ مكامن الإحساس مني حينما مسّ فلسطين، وكأنما غمز من قلبي جرحا مندملا على عظم، ثم سمعت في الأخير كلمة القائد البطل: وكان أقلّها عن مصر وحركة الجيش وأسبابها وأهدافها، وأكثرها، عن فلسطين وحربها وحالة أهلها المشرّدين.

وأقول: القائد ولا أقول: الرئيس لأنني كنت أسمع كلام قائد لا كلام رئيس، وكنت أسمع كلامه فأفهمه بمعنين: معنى هو الذي تفيده الألفاظ والتراكيب، وينتقل بالسامع من خبر الى خبر ومن وصف الى وصف، ومعنى آخر مساوق له ممتد معه، وهو أن هذا الكلام نفسه قائد... فيه من القيادة أمرها ونهيها وحزمها وصدقها وواقعها وتوجيهها ومضاؤها وجرأتها وجميع خصائصها، فأفهم من ذلك كله أن القيادة هي صفته الذاتية، خلقت معه مستسرة معه في روحه ودمه، ولوّنتها فطرته السليمة، وكوّنتها تربيته الشعبية كما أن الإقدام هو صفة الأسد الذاتية التي خلقت معه، فلما أدّت قيادته العسكرية رسالتها وبلغت مداها انقلبت قيادة عسكرية شعبية سمّاها العرف رياسة، وماهي في الحقيقة، إلا امتداد لقيادته العسكرية، والقائد القوي الخصائص في الأمة الكثيرة النقائص، لا يزال يخرج من حرب الى حرب ويدخل من قتام في قتام.

(*) مجلة «الرسالة»، عدد1018، ثم نقلتها «البصائر»، العدد 214، السنة الخامسة من السلسلة الثانية، 23 جانفي 1953.

سمعت كلمة القائد متئدة رزينة فلما لمست فلسطين ظهرت شجية حزينة فنطق بالصدق ولا أصدق من شهادة العيان، ومحمد نجيب إذا تكلم عن حرب فلسطين، وصوّر نكبة فلسطين كان الراوية الثقة والضابط العدل، وقد حلّل تلك السبة الخالدة وعلّلها باثنتين: قبول الهدنة وفقد السلاح، ثم برأ الشرف العسكري العربي كله من وصمة التخاذل، ولم يعرج عى التخاذل السياسي بين ملوك العرب وساستهم، ولكن عده لقبول الهدنة أحد سببي النكبة أبلغ من التصريح في الاتهام والتجريح، فإن الراضين بالهدنة هم رؤساء الحكومات العربية من ملوك وساسة لا قادة الجيوش.

كانت كلمات القائد البطل عِن فلسطين تمسّ نفسي، وهو يلقيها مسّة الكهرباء فتحرق ولا تضيء، لأنني يشهد الله كنت ومازلت من أشد الناس اهتماما بالحادثة، ثم من أشدّهم التياعا بالكارثة، فإذا فاتني لشقوتي، أن أشارك في وقائعها بجمسي، فلم يفتني أن أشارك فيها بقلمي، فكتبت مقالات نارية المعنى قاسية الألفاظ تكاد ترسل شواظا من نار ونحاسا على المتسببين في تلك الهزيمة المنكرة بغير أسبابها المعقولة عند الناس، ولكن بسبب لا يستسغيه عقل عاقل وهو قبول الهدنة، لذلكَ كانت كلمات القائد تفيض من نفسه الجريحة وكأنما تفور من نفسي، حتى إذا سكت عن ساسة العرب أحسست بانفعال كنت أتمنّى أن أسكنه بشهادة حق من القائد الصادق عليهم تؤيد عقيدتي فيهم، فإن شهادة الحق تؤيّد الحق حتى لكأنه حقّان.

وتكلم القائد البطل عن أولئك البائسين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: وطننا فلسطين، والذين نسمّيهم مشردين ونحن شرّدناهم بما كسبت أيدينا، ووصف وصف المعايشين مايلقونه من شقاء وما يتجرّعونه من غصص، وبدأ صوته يرتفع ويتهدج وعيناه تغرورقان بالدموع فتشهد بأنه يغالب أسى كمينا وهما دفينا وكانت الجمل العبقرية التي تساوي الدم الذي

خرج من جسمه على ثرى فلسطين هي قوله: «كيف نلتذ بالطعام، وننعم باللباس والدفء، وإن إخواننا ليتضوون من الجوع ويفترشون الغبراء؟ لماذا لا نصوم يوما من الأسبوع عن اللحم، أو أسبوعا من الشهر عن هنة من هذه الكماليات، ثم نرصد ثمنها لإطعام إخواننا الفلسطينين وكسونهم؟ إن الإمساك عن اللحم يوما من الأسبوع أو عن الكماليات أسبوعا من الشهر لا تميتنا ولكنها تحيي إخواننا» ثم رمى السامعين بالآبدة التي ظننت أن الجباه تندى لها عرقا، إن لم تنخلع القلوب منها فرقا، وهي قوله: «إن من العار أن نطلب لهم الحياة ممن أماتهم ونسأل لهم القوت من الدول العاتية التي حكمت عليهم بالموت جوعا، وحكمت علينا بالإنحناء ذلا ومهانة».

حقائق جلاها القائد على مئات من السامعين ومامنهم إلا من له نباهة وذكر ومقام، جلاها في جمل حاكية، تحتها معان باكية، وشرحها الوافي ينتزع مما يتصوره المتصورون، ويصوره المصورون من حال أولئك البائسين، نيزع من تخاذل العرب ملوكا وحكومات وسادة وكبراء وشعوبا حتى ضاعت فلسطين وجاع أهلها، وتنتزع من حالة المسلمين المغفلين الذين مازالوا، وهم ذوو عدد .... يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن أساءة أهل السوء إحسانا...

ومازالوا يطلبون الصدقة ممن سبلهم ومازالوا يفزعون كلما لطمهم اليهود الى الإحتجاج، ومازالوا يطرقون أبواب هذا الهيكل الخرب الذي يسمى جمعية الأمم المتحدة.

أنا لا أتحدث عن قلوب السامعين ومواقع كلام القائد منها، ولا أملك لها أن تكون خلية أو شجية، وإنما أتحدث عن قلبي، فوالذي خلق القلوب مضغا سوداء وبثّ فيها شعلا من النور، لكأنما كانت تلك الكلمات نبالا على قلبي تنثال على هدف، ونصالا تتوالى على جريح، ياللعجب العاجب، أفيؤمن المسلم بأن المسجد الأقصى هو قبلته الأولى وأنه ثالث المساجد التي تشد

إليها الرحال، وأنه كان في ليلة من الدهر سلم الأرض الى السماء، ومطار البشرية المتمثلة في محمد، الى الملكية المتمثلة في الملأ الأعلى أفيؤمن بذلك كله ثم لا يقدم، لحماية هذا الحرم وجعله آمنًا مهجته وماله؟

إن فلسطين إرث النبوّة الخاتمة، من النبوّات المتقادمة، نفذ فيه عمر وصية الإسلام، وحرره أبو عبيدة وأصحابه في الأولين من رق الرومان ورجس الأوثان، وأدّت وقائع اليرموك وأجنادين شهادتها على استحقاقنا لهذا الإرث واقتدارنا على حمايته.

إن أعمال أجدادنا في فلسطين وإرثها وحمايتها هي وصية صريحة لنا بالمحافظة عليها وحجة ناطقة علينا إن نحن قصرّنا فيها أو فرّطنا في جنبها، فيا لتراث نبوي حماه الأسلاف الصالحون ، وأضاعه الأخلاف المفرطون.

ما أضاع فلسطين إلا العرب، وقد جاءتهم النذر فتماروا بها، ثم حق الأمر وهم غارون فاندهشوا، ثم وقعت الواقعة فأبلسوا، وعمد خطباؤهم الى الخطب ينمّقونها وشعراؤهم الى القصائد يزوقونها، وساستهم الى الدعاوى يلفّقونها وإلى الأهواء ينفقونها وعمد خصومهم اليهود الى الغايات يحقّقونها والى العهود يمزّقونها، وقضي الأمر وأوسعناهم سبا وراحوا بالإبل وبعد أن كنّا نقول: أهل فلسطين، أصبحنا نقول ما قالته الجرهمية في مكّة، بلى نحن كنا أهلها! ولا أدري كيف تنتصر أمة تقطعت بسوء صنيعها أمما ثم تدلّت في الذل ثم صارت تطلب الرحمة من معذبها، وتعطي الدية لقاتلها، ثم إرتكست في السقوط حتى أصبحْ نصف ملوكها صبيانا وأكثر أدلائها عميانا.

• • •

مضت على كلمات القائد البطل أسابيع، وأنا أتحسس وقعها في النفوس، وأترقب ثمرتها، من صوت المسلمين عن الطعام يوما في الأسبوع أو هجرهم لبعض الكماليات أسبوعا في الشهر ورصد أثمانها لدفع الغوائل عن مشرّدي

فلسطين أو لغير ذلك مما تتفتق عنه العقول من أفكار، وتتمخض عنه الهمم من آثار، فلم يظهر لها أثر إلا تلك الهزّة التي حركت الأيدي للتصفيق، ورسمت التأثر على الوجوه، ونشرت شيئا من التهلل على الأسارير ثم لا شيء.

إن تلك الكلمة العبقرية ليست كلمة من الكلام، وإنما هي فكرة عبّرت عنها ألفاظ، ومبدأ ترجمته عبارات، ولو كانت نفوسنا معشر سامعيها حية مستجيبة لفهمنا الكلمة بهذا المعنى، ولخرجنا من الحفلة منادين بها، داعين إليها ، شارحين لمراميها، ناشرين لها في العالم الإسلامي، بادئين بأنفسنا في تنفيذها ولكننا قوم بنينا أمرنا على اللعب واللهو، والخطأ والسهو، لا على الجد والصرامة والعزة والكرامة واطمأننا الى عادة لاتطمئن علهيا الحياة، فكل ما في أحزاننا عويل وبكاء، وكل ما في أفراحنا تصدية، ومكاء، وكل استجابتنا لداعي الحق تشقق الحناجر بهتاف ، وإلتقاء الأيدي على تصفيف.

ونبتت بعد تلك الكلمة التي لم تعها أذن واعية، فكرة قطر الرحمة، وهي فكرة جميلة صحبها العزم فكانت جليلة، ورافقها التنفيذ فكانت نبيلة، وحيّا الله مصر، ولقى أهلها نضرة كما كسى أرضها خضرة، ولكن قطر الرحمة ماهي إلا قطر من الرحمة، والمشرّدون أصبحوا بقعة إنسانية عطشى لا ترويها إلا الروائح والغوادي من سحب الخير، وأين الفكرة التي تختص بمصر من الفكرة التي تعم العالم الإسلامي؟ إن فكرة «الصوم» لو تمّت وانتشرت وصحّت العزائم على جعلها عادة وموسما لم تقف عند استحياء المشرّدين وكفكفة دموعهم، بل كانت تغسل الخزي وترحض العار، وتسلّح جيشا لاسترداد فلسطين.

أيها العرب: هاهم أولاء إخوانكم المشرّدون على غلوة سهم منكم لو تسمعتم لمستعم أنينهم من الألم يتردد، وحنينهم الى الديار يتجدد، ودعاءهم الى اللّه يرتفع على كل من أضاعهم وأجاعهم.

إنهم إخوانكم، وإنها أعراضكم، والقرابة، موضع الثواب والعقاب عند اللّه، والعرض محل المدح والذم عند الناس، وإنهم انسلخوا من الزمان، فلا ماضي

ولا حال ولا مستقبل، فهل تأمنون أن يبقى أبناؤهم الناشؤون في هذه الحالة على الإسلام والعروبة؟ وهل تأمنون أن يطول عليهم الأمد، ويستحكم فيهم البأس منكم، فيبايعون اليهود على العبودية المؤبدة؟.

أيها العرب: ساء مثلا من أفهمكم من معاني العروبة أنها نسبة الى جنس وإعتزاء الى جد والتصاق برقعة من الأرض، فعاجلوا هذا السطر الخاطئ بالمحو والشطب وخذوا العروبة على أنها ليست جلدة تسمرّ أو تصفرّ ولا بلدة تغبر أو تخضرّ، وليست متاعا مما يرث الوارثون ولا أرضا مما يحرث الحارثون وإنما هي بناء مآثر وإعلاء أمجاد، وإنما هي خلال تتفتّح عن أعمال، وإنما هي عزائم لا تعرف الهزائم، وإنما هي طموح وجموح: طموح لمواطن العز وجموح عن قيود الذل، وإنما هي رأي أصيل وفكر جزيل ولسان بالبيان بليل وعقل هو على الحكمة دليل وقلب للجرأة خليل، فجميع هؤلاء هو العروبة وجامع هولاء هو العربي، وما عدا ذلك فهو تعلّل بخيال وتعلّق بضلال، وتخلّق يكذبه الخلق وخيانة للعروبة في اسمها وعقوق لأباء كأنما عناهم المعري بقوله:

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم　　بعد الممات جمال الكتب والسيــر

أيها المسلمون: إن اليهود طامحون الى أكثر من فلسطين، وإنهم يستعدّون بعد أن غمسوا أرجلهم في ماء البحر الأحمر لاحتلال مكة والمدينة، فماذا أنتم صانعون؟ إن كنتم تعتمدون على أن للبيت ربا يحميه فهذا إرهاص لا يتكرر مرتين، وهو عذر لا يقوم بعد أن أخذ عليكم العهد بحماية البيت، إنه لا حجة لنا على اللّه بل الحجة علينا وإننا لسنا من العزة على اللّه بحيث يخرق سننه الكونية لأجلنا وقد رفع يده عنّا فلا يبالي في أي واد نهلك، وحكم سنّته فينا فحكمت بأن نمّلك ولا نملك، فعودوا يعد وغيّروا يغير وحققوا الشرط يحقق الجزاء.

من هو المودودي؟(*)

هوالأستاذ العلامة أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان، أصفه وصف العارف الذي قرأ وشاهد، فهو رجل لم تر عيناي كثيرا من مثله، بل لم أر مثله في خصائص امتاز بها عن علماء الإسلام في هذا العصر، منها الصلابة في الحق والصبر على البلاء في سبيله، والعزوف عن مجاراة الحاكمين فضلا عن تملقهم ، وهو أفقه من رأيته أو سمعت به في باكستان والهند في حقائق الإسلام تشريعا وتأريخا، واسع الاطلاع ، دقيق الفهم بارع الذهن ، نيّر الفكر كبير العقل، مشرق الروح على تجهم في ظاهره، سديد التصرف في المقارنة والموازنة والإستنباط مستقلّ في الإستدلال الى حد، يمضي من الشريعة الى مقاصدها العامة، دون إحتفال بالجزئيات إلا بمقدار ما يدخل من هذه الى تلك عميق الغوص في استخراج النكت، متين العقيدة، تظهر آثارها على أعماله ومواقفه قوة وثباتا، كما تظهر آثار الغذاء الصالح على البدن فراهة، ونعمة، فلسفي النزعة العلمية لا العقلية، يذوده إفتتانه بالنص والواقع عن أن يكون فيلسوفا عقليا، ولولا ذلك لكانه، فهو يؤمن بالنص، ويؤمن بعمل العقل في النص، ثم لا يزيد إلا بمقدار، جمهوري العشرة ولكنه خصوصي الزّعامة، يرى أن لها –لا للزعيم– حقوقا تحفظ النظام، وتوزْع الأعمال على الكفاءات، وتقف

(*) نشرت في العدد 232 من جريدة «البصائر» 5 يونيو سنة 1953.

بالمتطفلين عند حد، فهمت هذا من مجموع أحواله ومن ملابستي لبعض أنصاره، فصورته بهذه العبارات، وأنا أرى أن الفرق بين الزعامة والزعيم شيء دقيق، ودقّته، هي التي غرّت الزعماء بأنفسهم، وغرّت الأتباع بهم .

وهو هيوبة للتحدث بالعربية مع دقة فهمه للقرآن والحديث وكتب الدين، واقتداره على تطبيقها، ويرجع سبب ضعفه في الكلام بالعربية الى قلة إستعماله لها في الحديث والكتابة، فهو مع كثرة مؤلفاته التي تبلغ العشرات لم يكتب كتابا واحدا بالعربية وكل مؤلفاته بالأوردية والإنكليزية، وكلها في المواضيع الإسلامية الخطيرة، التي تقتضيها النهضة والتجديد، ويكثر الخوض فيها في هذا العصر، ويتناولها الغربيون بالنقد والتشويه، وللأستاذ مشاركة قوية في معارف العصر واطلاع على حضارته، وهو يزنها بالميزان القسط، فلا إنكار ولا إندفاع ، بل إنه يقف منها موقف الحذر والانتباه، وقد ترجم أحد أعضاء الجماعة طائفة من كتبه الى العربية فمكّن بذلك أبناء العرب من الاطلاع على أفكاره، وهذا العضو هو صدقنا الوفي الشيخ مسعود عالم الندوي، وقد أهدى لي جميعها منذ سنوات وأنا في الجزائر، فلمحت فكرا شفافا، ورأيًا حكيما وفكرا عميقا، وتساوقا بين الألفاظ ومعانيها، لا ينم على أن هناك انتقالا من لغة الى لغة، وتبيّنت السرّ في ذلك، وهو أنّ الموضوعات إسلامية، واللغتان إسلاميتان، والمؤلف والمترجم سليلا فكرة، فعملت الروح عملها العجيب، في ذلك، وصديقنا مسعود، لطف اللّه به، ثاني إثنين في القارة الهندية يحسنان الكتابة بالعربية كأبنائها، والآخر هو الأستاذ أبو الحسن الندوى.

والعلاّمة المودودي وثيق الصلة بجمعية العلماء الجزائرين، من طريق جريدة «البصائر» متتبع لحركتها، معجب بها وبأعمالها، قويّ الشعور يقرب المسافة بين مبادئها ومبادئه.،

وهو يحمل بين جنبيه قلبا عامرا بالإهتمام بأحوال المسلمين والأسى لحاضرهم، والإعجاب بماضيهم، والتنويه بالنظام الحكومي في الإسلام، يراه أعدّل نظام إنساني، وأضبط نظام للنزوات البشرية، وأحفظ نظام للمصالح المتشابكة، ومن هنا نشأت فكرته في الحكومة الإسلامية ، وقد سرّ كثيرا بالمعاني التي تنطوي عليها رحلتي، لأن تقارب المسلمين بالتعارف يفضي بهم الى التعاون على إصلاح شؤونهم وهو ينعى عليّ شيئا واحدا وهو أنني لم أشتغل بتأليف كتب على أحوال المسلمين على النمط الذي سمعه من كلامي، فأجبته بما لم يقتنع به لأنه يعتقد أن هذه الأحاديث العادية التي سمعها مني كتب لا ينقصها إلا التدوين، ورأيه في التأليف أن تكون الكتب صغيرة الحجم حتى تسهل قراءتها وتصريفها، وهذا هو المسلك الذي سلكه في كتبه فكلها كراريس مستقلّة بموضوعات.

• • •

لقيني جماعة من أصحابه لأوّل نزولي بكراتشي، واتصلوا بي اتصال الأخوة والمشرب، فوجدتهم يعرفون عن جمعية العلماء ما يمكن أن يستفاد من جريدة «البصائر» وسمع الأستاذ المودودي بوصولي وهو بمقامه من مدينة لاهور عاصمة البنجاب، فانتظر زيارتي لها فلما عزمت على الرحلة الى الداخل وكان نظام الرحلة يقتضي أن أسافر الى كشمير أولا وأن لا أنزل في لاهور، كتبت إليه أن يلقاني بمحطة لاهور، حرصا مني على التعارف الشخصي.

قبل زيارتي للاهور، ولكن الرسالة لم تصله في حينها لأن الحكومة تعطل رسائله للمراقبة، لما بينها وبينه من الانحراف الذي سنتعرض له، ولما بلغته الرسالة أسف وأرسل من ورائي رسولا الى راولبندي التي هي منتهى رحلتي

بالقطار وبينها وبين لاهور مئات الأميال فأدركني الرسول بها وبلّغني سلامه واسفه وانتظاره.

فلما رجعت من كشمير ويشاور لم أشأ أن أزعجه فلم أخبره إلا بعد نزولي بالفندق في لاهور، فزارني، وتعارفت الأجساد بعد تعارف الأرواح فإذا هو رجل ربعة، مهيب الطلعة، ممتلئ صحة وحيوية، يغلب السواد البياض على لحيته الكثة المهيبة، ثم استدعاني إلى داره، وهي مركز الجماعة، فاجتمعنا على الشاي في ثله من أعضاء الجماعة، طلبوا مني كلمة ونحن على موائد الشاي، فخطبت وأفضت في المواضيع الإسلامية الشاغلة للأفكار، وكان خفّف اللّه محنته، يستوقفني كلّما علت لغتي وتخللتها الإشارات والكنايات، ليترجم له أحد تلامذته البارعين في العربية ما غمض عليه، تقصيا منه للمعاني وحرصا على أن لا يفوته منها شيء.

• • •

أما ما بينه وبين حكومة باكستان، فأكبر أسبابه وأظهرها أن مبدأ الجماعة الإسلامية هو إقامة حكومة إسلامية في باسكتان بالمعنى الصحيح الكامل الذي لا هوادة فيه ولا تساهل، يتضمن دستورها الحكم بما أنزل اللّه في المعاملات والحدود والقصاص، وللأستاذ المودودي في ذلك آراء بعيدة المدى ومناهج وتخطيطات مدروسة لا تقبل الجدل، بل له دستور كامل مهيّأ وقد نقلت منه مجلة « المسلمون» الغرّاء التي تصدر بمصر قطعا دلّت على ما ذكرناه وعلى انفساح ذرع العلاّمة المودودي في فهم النظام الإسلامي، وحجة الجماعة في ذلك أن المسلمين ما رضوا بالإنفصال عن الهند وما هانت عليهم التضحيات الجسيمة التي لم تضح بها أمة في الدماء والأموال إلا في

سبيل إقامة دينهم على حقيقته ، أما إبقاء ما كان على ما كان فهو لايساوي تلك التضحيات ولا جزءا منها.

وحكومة باكستان، وإن كانت إسلامية المظهر، مدنية المخبر، لم تزل تسير على النظم التي وضعها الإنكليز للهند، وهي تريد أن يكون دستورها إسلاميا لأن الشعب يريد ذلك، أو لأن معظم الشعب يريد ذلك، ولكنها تريده تدريجيا ومع التسامح والتسهّل، ومراعاة مقتضيات الأحوال، وهناك طائفة من المستغربين لا تريد الدستور الإسلامي، ولكنها تعمل في الخفاء غالبا لقلتها بالنسبة الى الشعب، ويعتقد المتبّصرون أن هذه الطائفة تلقى تأييدا إجنبيا قويا، ولا تتسع هذه الكلمة لترجيح إحدى الفكرتين وإن كان لنا في ذلك رأي صارحنا به بعض المسؤولين في ذلك الحين.

لهذا الذي شرحناه ضاقت الحكومة ذرعا بالمودودي وتشدده، وصلابته وصراحة آرائه، وتسرّعه (في نظرها) فكانت تحبسه كلما ظهرت آراؤه المؤثرة، أو فتاواه في الحوادث الخاصة وتنظر إليه بعين الحذر دائما، وقد نسبت إليه فتوى في قضية كشمير أيام اشتدادها والاصطدام المسلّح فيها، ووصفت بأنها سلاح في يد العدو، ومدد للدعاية الهندوسية، وقد كنت كثير الاهتمام بهذه الفتوى، شديد الحرص على أن أطلع على حقيقتها، لأنها حكيت لي على وجه لو صحّ لكنت أول المخالفين لها، وقد ألقيت السؤال عنها في مجلس الأستاذ في داره، ولكن السؤال ضاع في معمعة المواضيع التي كان الحديث يتشقق عنها، ثم أنستني أحاديث المجلس إعادة السؤال، ولم تزل في نفسي حسرة من فوات تلك الفرصة، ولا أدري هل تعود ، وكل ذلك الحرص مني لآخذ الحقيقة من مصدرها ولأتباحث مع الأستاذ فيما ينتقد عليه إن كانت حقا.

ومع احتفاظنا برأينا في الخلاف بين المودودي وبين الحكومة في إقامة حكومة، على أساس دستور إسلامي، فإننا نقول كلمة صريحة لوجه الحق وهي أن المودودي، وحده أقدر رجل على وضع الدستور الإسلامي المنشود لدولة باكستان، وأبرع عالم في انتزاع ذلك الدستور من القرآن والحديث، ومن المقاصد العامة في التشريع الإسلامي والأصول المتفق عليها بين الأمة، وأنا مع هذا مؤمن بأن العقبة الكأداء في طريق المودودي ودستوره ليست هي الحكومة وحدها بل العقبة التي تنبهر فيها الأنفاس هي جمود فقهاء المذاهب وما أكثر المذاهب في باكستان.

• • •

وفي الأشهر الأخيرة حدثت إضطرابات في باكستان وسالت دماء، وأمسكت كثير من الجرائد العربية عن شرحها، فلم نتبّين دواعبها بالتفصيل ولا أغراضها، وأغلب الظن أنها تدور على« إسلامية الحكومة » ولعل الحكومة رأت آثار المودودي وأصحابه فيها بارزة فسجنته وسجنت كثيرا منهم ، ثم أحالته على محكمة عسكرية عقدت بمدينة لاهور فحكمت عليه بالإعدام وجاءت الأخبار بأنها خففت حكم الإعدام بالسجن أربعة عشر عاما، فاهتز المسلمون بباكستان لهذا الحكم القاسي بنوعيه الثقيل والخفيف، وانصبّ على الحكومة تيار من الاحتجاج والتظاهر بالغضب، ولا نشك أن تخفيف الحكم أثر من آثار تلك الغضبة.

ثم قامت الهيئات الإسلامية القوية بالاحتجاج والاستنكار من مصر وسوريا والعراق والكويت، وتأكدت عندي الأخبار وأنا بالكويت فامتعضت غلم اللّه لذلك وحزنت لما بيني وبين الرجل من صلات ولما بينه وبين جمعية العلماء من تقدير، ولأن الرجل ليس رجل إقليم أو قطر، إنما هو للمسلمين كلهم،

فمن بعض حقّه علينا جميعا أن نسعى في خلاصه من السجن بعد أن تراجعت الحكومة عن حكم الإعدام.

لذلك أبرقت البرقية المنشورة بعد هذه الكلمة لكل من حاكم باكستان العام ورئيس حكومتها باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أمثلها أنا والدها ومفخرتها الأستاذ الفضيل الورتيلاني وباسم المغرب العربي كله لأن حظه في الإسلام والإنتصار لحماته ليس بقليل، وإن عسى أن تراعي حكومة باكستان المسلمة هذا الشعور الإسلامي المتدفق بالأمس فرحا بوجودها، والمتدفق اليوم غيرة على سمعتها أن يقال عنها إنها تحارب حريّة الرأي بل حرية الدين، وأن تدرك أن ما ينادي به المودودي وتعدّه هي جريمة يستحق عليها الإعدام أو السجن، هو رأي جميع المسلمين فيها، فكلهم يتمنّى ويطالب بأن تكون حكومة باكستان إسلامية لتكون فخرا للمسلمين ومرجعا وملاذا وعزّا للإسلام وملجأ ومعاذا.

كان من تمام الواجب عليّ لصديقي، بعد أن انتصرت له بجهد المقل، أن أعرّف به بني وطني وقرّاء «البصائر» ليعرفوا أي رجل غضبت له هذه الغضبة، ولعلّ البشائر تحمل إلينا نبأ الإفراج عليه، فينقلب غضب المسلمين رضى وحزنهم فرحا، وحسب المودودي جزاء في الدنيا على جهاده للإسلام أن يجمع المسلمون على الانتصار له هذا الإجماع، وما عند اللّه خير وأبقى.

وسلام على المودودي طليقا وسجينا.

الأستاذ كامل كيلاني
الرجل الذي انتهت إليه حكمة التربية(*)

بعث الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من بغداد الى الأستاذ كامل كيلاني بالقاهرة الكتاب الآتي بعد الديباجة:

«أكتب إليكم مهنئا بالعيد ، وإن كانت معانيه البليغة ممسوحة من نفسي، لأنني أفهمه موقف حساب وعرض، لم يعرض فيه العرب من أعماله إلا المخزي ولم يحاسب فيه المسلمون من عباداتهم إلا بغير المجزي، ولكن التهنئة أصبحت كلاما يدور على الألسنة برغم الضمائر الحية والشواعر اليقظة!

زرت الكويت ورأيت ما رأيت، وألقيت عدة محاضرات كانت بتوفيق الله غيثا على جدب، وفراتا على ظمأ، ولم أنس في لحظة أخي كاملاً، وهل ينسى الإنسان جزءاً من نفسه، الحركات عند إخواننا العرب بطيئة جدا، يحتاج المتعرّض لها الى صبر متين وأناة، وإلى لطف إحتيال، أو الى ما جمعه الشاعر الذي يقول: ليس للحاجات، إلخ، وأنتم أعرف بالبقية!

أنا، فيما أعد نفسي مبشر بالمبادئ الصالحة والكتب الصالحة لأن التجارب إنتهت بي الى أنه ما أفسد العلم ورجاله إلا الكتب الفاسدة.

(*) صحيفة «منبر الشرق» عام 1953.

وبما أن الحرص على استقامة الإنسان يبدأ بتقويم الطفل، ولا يستفيم الطفل إلاّ إذا غرس عقله في «مكتبة الأطفال» وقد تكون هذه التعبيرات نافرة أو متنافرة، ولا يعنيني أمرها، فإن المعنى الذي أقصده هو هذا:

إنني أشهد اللّه وأشهد أمام خلقه، بأن الرجل الذي إنتهت إليه حكمة التربية من طريق كتب التعليم هو الأستاذ« كامل كيلاني».

وستشهد هذه النهضة بهذا يوم يمدّ مدّها، ويجد جدّها أحييكم وولدنا «رشادا» وأدعو لكم بالتوفيق، وسأكاتبكم من الشام.

تعليق على كلمة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز (*)

الأستاذ الكبير محمد عبد اللطيف دراز عالم من غير الطراز المعروف، يمتاز بدقة الملاحظة، وسعة الأفق، وسداد التفكير، وتبرز فيه خلة من خلال أماثل العلماء وهي الوفاء مقرونا بالنجدة والشجاعة مصحوبة بالآناة، وينفرد بخصوصية يندر جدا أن نراها على أكملها في عالم من علمائنا الدينيين، وهي العناية بدراسة أحوال المسلمين في جميع الأقطار، والافتتان بالبحث عن حركاتهم ونهضاتهم وعلائق بعضهم بالبعض، بحيث تحادثه في هذا الباب فتشرف منه على بحر متلاطم بالمعلومات الصحيحة المدققة عن المسلمين وحكوماتهم وجمعياتهم ولا تجد له ثابتا من صنفه في الحرص على الاتصال بكل من يزور مصر من رجال الإسلام وأقطابه في العلم والسياسة، وعلى التبسط معهم في السؤال والتقصي في البحث والمدارسة.

ولهذه الميزات في أستاذنا الكبير تتجه إليه الأنظار دائما لرئاسة الجمعيات الإسلامية الكبيرة في مصر، وتتوارد عليه الطلبات لعضوية هذا النوع من الجمعيات خارج مصر، وهو اليوم رئيس جمعية الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية وعضو في الكثير من الجمعيات والمؤتمرات الإسلامية وقضى من عمره سنوات في إدارة الأزهر ثم في الوكالة فكان في إدارته حازما وكان في وكالته أحزم.

بحكم هذه الخصائص التي أصبحت له ملكات تصدر عنها أعماله تجده أعرف إخواننا العلماء الشرقين بجميعة العلماء المسلمين الجزائريين يعرف عنها وعن رجالها وهو في مصر ما لا يكاد يعرفه الجزائري إلا بالدراسة والاتصال والعناية المقصودة وزاده الاتصال بالأستاذ الورتلاني خمسة عشر عاما، إطلاعا على حقائقها وفقها في دقائقها.

(*) «البصائر» العدد 288، السنة السابعة من السلسلة الثانية، 8 أكتوبر 1954.

وكما يعرف الأستاذ دراز عن جمعية العلماء كثيرا تعرف هي عنه أكثر، وليست معرفة جمعية العلماء به جديدة بل ترجع الى تاريخ نشأتها، فالسابقون الأولون من رجالها يعرفون مواقفه في الثورة المصرية 1919 ويعرفن شذوذه عن صنفه في اقتحام السياسة واصطلاء نارها ومزاحمة رجالها بمنكب قوي، على حين كان ذلك معدودا عند علماء الدين نوعا من الابتداع أو الابتذال، وقد إنتخبه المجلس الإداري لجمعية العلماء الجزائريين بالإجماع رئيسا شرفيا لها منذ سنوات مع من أنتخب لذلك من علماء الإسلام،فردا تكلم عن جزئية دقيقة من الجزئيات الخاصة بجمعية العلماء وعلاقاتها الداخلية فكما يتكلّم صاحب الدار عن داره أو كما يتكلم الشريك في علاقته مع شركائه.

وأبدأ فأشكر للأستاذ الجليل تفضّله بهذه الملاحظات الخالصة، وأؤكد له أن موقعها مني بالخصوص كان موقع صدقة المؤمن الكريم من الفقير إليها، كما أحمده بقلبي ولساني وكل جوارحي على هذا التقدير الجيمل لرجل من رجال جمعية العلماء ومفخرة من مفاخرها تعده وإن قصرت في حقه جيشا لا رجلا وعقيدة مجسمة لا شخصا وأعتبر أن هذا التقدير مصروف لجمعية العلماء في شخص قطب من أقطابها وسابق من سباقها، وأشكره شكرا مكررا على هذا النوع اللطيف من العناية بجمعية العلماء في معرض يتراءى بلونين عتاب وتقرير وبأسلوب يبدو بصيغتين، نصح وتقدير، وهذه طريقة لا يحسن مثلها إلا أمثال الأستاذ حفظه اللّه.

أما ما نعاه الأستاذ الكبير علينا متفضلا فهو حق لا شك فيه، وأنا المسؤول الأول عنه بحكم رئاستي لهذه الحركة التي وجّه الأستاذ إليها لومه وعتابه، فكما أتحمّل على إخوني واجباتها بقدر إستطاعتي أتحمّل مسؤولياتها بما فوق استطاعتي، وقد أوقعنا الشاعر، سامحه اللّه في الحرج بقوله:

وإن رئاسة الأقوام فاعلم لها صعداء مطلعها طويل

أقدم بين يدي تليقاتي الاعتراف بالتقصير في الاهتمام بالأستاذ الفضيل وأقرّ للحق والأنصاف أنه طالما وخزني ضميري حينما أشعر بهذا التقصير في المواقف التي يجب فيها الاهتمام به كأيام محنته، فأبث من حولي من الإخوان هذا الشعور فأجد شعورهم مساوقا لشعوري، وكل ما أذكره الآن من المعاذير، على ضعفها هو الغفلة والتواكل والاعتماد على مافي القلوب والاطمئنان الى أن الفضيل غني بالقلوب المحيطة به وبالنفوس المهتمة بشأنه، وربّما خطر في بال أحدنا أننا أحوج الى اهتمامه بنا منه الى اهتمامنا به.

هذه أعذار أؤكد أنها واقعة وأعتقد أنها واهية، فالغفلة نقيصة وإن لم يبرأ منها أحد فلا تنهض عذرا عن الحقوق الأدبية ذات الأثر النفسي العميق وبقية الأعذار تتفاوت في وجاهتها ووزنها وقبول العقول لها.

وإذا قصر إخوان الفضيل في جنبه أو قصرت الجزائر كلها، فما ذلك بالذي يضير الفضيل أو ينقص من قيمته شيئا وإنما يضير المقصّرين، لأنهم يحرمون من ثمرات الاتصال الممتع به، وما هي بالقليلة ، ففي الاتصال الكتابي وقوف على الحقائق ومثارات للبحث والسؤال والجواب والاستفتاء والعرض والكشف عن الغوامض وفيه أبواب من القول تفتح أبوابا، وأسباب تستتبعهع أسبابا، وما انتقلت العلوم من قطر إلى قطر إلا بذلك الأسلوب الذي كانوا يدعونه المراجعات، إذا كانت تغني كثيرا عن المثافنة والتلقّي والتلقين، وكثيرا ما أطفأ الاتصال الكتابي ناثرة وسفر بالرحمة بين قلبين وصدّ نفسا عن هواها وجلا عن وجه رأي، وعن نفسي اتحدّث، فقد اكتفتني وأنا بالجزائر في حدود سنة 1949 أحوال ضاق بها صدري وصبري فهممت أن ألقي حبل الجمعية على غاربها وأهجر الإخوان والأعوان وأنقطع للتأليف، ووافق طفح النفس بالاغتمام أن كان بين يديّ كتاب من الفضيل يتقاضي جوابه فكتبت الجواب وأنا في تلك الحالة ، وشرحت له في الأسطر الأخيرة من الرسالة بعض الأسباب

التي أدّت بي الى تلك الحالة وذكرت له ما عقدت عليه العزم من التخلّي لا على وجه المشورة بل على وجه الإخبار بشيء مفروغ منه، فجاءني جواب الأستاذ يثنيني عن تلك العزيمة بأسلوب من الرأي أخذ نفسي أخذة السحر ومسح منها تلك العزيمة المصمّمة مسح السواقي للرسوم، وبتّ وفي النفس هم يعتلج، فأصبحت بفعل تلك الرسالة أو بفضلها صاحي القلب من تلك الدواعي كلها، ولقد قرأت كثيرا للأدباء القدماء في باب سل السخائم ونقض العزائم وفيه العجب العاجب من الافتنان في ضروب الإقتدار على ثني أعنّة النفس وصرف أهوائها من جو الى جو بسحر البيان، ومن ألطف من قرأت تأثيرا وأدقّه تعبيرا قول أديب أندلسي يثني عزيمة عالم عن الرحلة الى الشرق:

أشمس الغـرب حق مـا سمعنـا ... بأنـك قد سئمـت من الإقامـة

وأنك قد عزمـت على رحيـل ... بحـق اللّه لا تقـم القيامـة

ونفثة السحر والتأثير أنه هيّأ لمراده بقوله: «أشمس الغرب» ثم ختم بقوله: «لا تُقم القيامة» إشارة الى أن طلوع الشمس من مغربها من علامات قيام الساعة.

قرأت كثيرا من هذا النوع ومثّلت نفسي معنيًا به فما وجدت له من التأثير ما وجدت لرسالة الفضيل إلي، وليس مرجع التأثير الى البلاغة التي يتأثر بها أمثالي بل قوة الرأي وسداد الحجة، ولا أذكر أن كلمة ثنت عزيمتي عن شيء هممت به إلا كلمة الفضيل هذه، وكلمة قبلها لأخينا الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه اللّه فقد وقعت مرة في هم برّح بي فصممت على الخروج من الجزائر، وزارتي بمدينة تلمسان وأنا مصمّم فكشفت له عن ذات صدري ، فارتاع ورأى أن إقناعي بالكلام المعتاد لا يثني عزمي فسكت قليلا وقال: إن خروجك يافلان أو خروجي يكتبه اللّه فرارا من الزحف، فوالذي وهب له العلم والبيان لقد كانت كلمته تلك شؤبوبًا من الماء صبّ على لهيب.

الدين في شعر أحمد شوقي(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوان، السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته:

هاج عليّ عرق النسا، فلم يؤلمني منه إلا أنه فوّت عليّ الحضور بنفسي لإسماع المستجيبين لدعوة شوقي ما أحفظه من شعره في الموضوع الذي خصصّه لي الأخ الكريم الأستاذ الجليل مسجّل الفضائل الإسلامية والأمجاد العربية الشيخ أحمد الشرباصي وهو الدين في شعر شوقي، وإذا فاتني ذلك الخير فلا يفوتني أن أبعث إليكم بهذه الكملة التي كتبتها في اللحظة الأخيرة متلفعة بملاءة من خجل التقصير في حقكم وحق شوقي، وإن لكم عليّ لحقا أوجبه وفاؤكم لشوقي حين قلّ الأوفياء له حتى كاد ينسى ويجفي وإن لشوقي عليّ لحقّا أوجبته على نفسي حين غاليت بقيمته في شعراء العربية غابرهم وحضارهم ، وسلام عليكم في الأوفياء.

الدين في شعر شوقي

ونعني بالدين هنا ما هو أعمّ من الإسلام. فإن شوقي تغنّى بكل دين استحدث خلقا أو ثَبَّت فضيلة إنسانية أو زرع محبة بين الناس، أو أنشأ حضارة أو زاد فيها أو ولد فنّا، أو كان إرهاصا بدين أكمل، لا يبالي أكان ذلك الدين سماويا أو من مواضعات البشر.

وشوقي يرى في ما يفهم من شعره، أنه ما من نفس منفوسة إلا وهي منطوية على دين يسيرها في الحياة ويحددّ لها نهجها وأن جميع هذه

(*) كلمة ألقيت نيابة عن الشيخ في الحفل الذي أقيم بجمعية الشبّان المسلمين بالقاهرة في فبراير 1955، ونشرت في مجلة «الشبان المسلمين» عددي مارس وأفريل 1955.

النفوس مؤمنة باللّه طالبة الوصول إليه وإنما اختلفت بها الطرق المؤدية إليه فتعثرت، وطلاّب الغايات المكانية كثيرا ما يتعثرون فتكون العثرات عائقة عن الوصول فكيف بطلاب الغايات الروحية، ولا مفرّ من ضلال في هذه المسالك مالم يكن لها دليل سماوي، وكذلك لبث البشر أحقابا يتخبطون الى أن أذن اللّه بفتح بابا الوحي.

وشوقي يلمس في مناحيه الفكرية آراء ومنازع صوفية للقدماء ويكسوها حللا شعرية تذهل بروعتها عن تعرف حقيقة رأيه ويغطي الإفتتان بالصور الشعرية على التفكير في أصل الرأيين فضلا عن الفروق والجوامع بينهما ولشعر شوقي في بعض المواقف إشراق كإشراق البرق يبهر فيخفي فيه ما يكاد يظهر.

يقول شوقي في حالة البشر قبل بعثة الأنبياء:

- ربّ شقت العباد أزمان لاتكتـ	ـب بهـا يهتـدي ولا أنبياء
- ذهبوا في الهوى مذاهب شتّى	جمعتها الحقيقة الزهـراء
- فـإذا لقبـوا قويّـا إليهـا	فلـه بالقـوى إليـك انتهـاء
- وإذا آثـروا جميـلا بتنزيـ	ـه فإن الجمـال منـك حباء
- إذا أنشـأوا التماثيـل غـرا	فإليك الرمـوز والإيمـاء
- وإذا قـدروا الكواكـب أربـا	با فمنـك السنا ومنك السناء
- وإذا ألهـوا النبـات فمـن آ	ثار نعمـاك حسنـه والنمـاء
- وإذا يمّموا الجبال سجـودا	فالمـراد الجلالـة الشمـاء
- وإذا يعبد الملـوك فـإن الـ	ـملك فضل تحبو به من تشاء
- وإذا تعبد البحار مع الأسمـاك	والعاصفـات والأنـواء
- وسباع السمـاء والأرض والأر	حام والأمهـات والآبـاء

- لعلاك المذكرات عبيد　　　خضع والمؤنّثات أماء

- جمع الخلق والفضيلة سرّ　　　شفّ عنه الحجاب فهو ضياء

ويقول:

- ربّ هذي عقولنا في صباها　　　نالها الخوف واستباها الرجاء

- فعشقناك قبل أن تأتي الرّسـ　　　ـل وقامت بحبك الأعضاء

- ووصلنا السرى فلولا ظلام الـ　　　ـجهل لم يخطنا إليك اهتداء

وشوقي يحضّ أهل الأديان جميعا على التسامح، ويشدد النكير على من يتخذونها أداءة للتنازع والاختلاف، ويقول إنها كلها للّه ، وإن لم تكن كلها من اللّه ومادامت كلها للّه فهي رحم جامعة ومن البرّ بهذه الرحم والرعاية لهذا النسب أن لا نتعادى فيها ، ونفس شوقي ينبوع متدفق بالرحمة والحنان قبل أن تكون ينبوعا متدفقا بهذه الروائع من الحكمة والبيان وإنه لأصدق صادق حين يقول:

خلقت كأنني (عيسى)، حرام　　　على قلبي الضغينة والشمات

وحين يقول:

ولا بتّ إلا كابن مريم مشفقا　　　على حسّدي مستغفرا لعُداتي

ولإغراق شوقي في الدعوة الى التسامح سبب آخر وهو أن الدعوة العثمانية التي هي ليلاه ومناط هواه ومُعقد رجائه في إعزاز الإسلام كانت راعية للأديان الثلاثة، وتحت لوائها طوائف من اليهود والمسيحين ، فكان يخشى أن تتخذ منهم أوروبا ذريعة للتشويش على هذه الدولة الإسلامية، وكذلك كانت الحال في مصر، فكان يوجّه دعواته البليغة في أسلوبه الشعري المؤثر للمسلمين والأقباط أن لا يتخذوا من إختلاف الدين سببا للشقاق فيطمع الذين في قلوبهم مرض في توسيع شقة الخلاف.

يقول في مرثية بطرس غالي:

نعلي تعاليم المسيـح لأجلهـم ويوقـرون لأجلنـا الإسلامـا

الديـن للديّـان جـلّ جلالـه لو شاء ربّـك وحّـد الأقوامـا

ياقوم بان الرشد فاقصوا ما جرى وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما

هـذي ربوعكـم وتلك ربوعنـا متقابليـن تعالـج الأيامـا

هـذ قبوركـم وتلك قبورنـا متجاورين جماجمـا وعظامـا

فبحرمة الموتى وواجب حقهـم عيشوا كما يقضي الجوار كراما

ويقول:

إنما نحـن مسلميـن وقبطـا أمـة وحّـدت على الأجيـال

سبـق النيل بالأبـوّة فينـا فهـو أصـل وآدام الجـدّ تـالي

ويقول وهو من المبالغات التي لا تخلو من مؤاخذة.

جلعنا مصر ملّة ذي الجـلال وآلفنا الصلب على الهـلال

وأقبلنـا كصـف من عـوال يشـدّ السمهـري السمهريـا

أما تمجيد الإسلام فلا ف شاعرا عربيا قبل شوقي مجد الإسلام وجلا فضائله ومحاسنه كما مجدّ وجلا شوقي، ولا نعرف شاعرا بعد شرف الدين البوصيري دافع عن حقيقة الإسلام كما دافع شوقي، وإذا كان البوصيري نظم لامية الإسلام بعد لاميتيْ العرب والعجم وقال في دين محمد وكتابه:

اللّه أكبـر إن ديـن محمـد وكتابـه أقوى وأقـوم قيـلا

ثم ضرب له ذلك المثال الشرود في قوله:

لا تذكر الكتب السوالف عنـده طلع الصبـاح فأطفي القنديـلا

فإن شوقي أتى في مدائحه وسائر شعره بالأعاجيب وضرب العشرات من الأمثال الشوارد وأعانه على ذلك معارف عصره وعجائب العلم في عصره،

وامتداد التاريخ بخيره وشرّه في مابين عصر البويصري وعصره، وتداعي الأمم على المسلمين تدعي الأكلة على القصاع، فكل ذلك أرهف إحساس شوقي وهاج شاعريته وأثار أشجانه فهبّ يدافع عن الإسلام ويجهّز من شعره الكتائب لا الكتب.

إن شعر شوقي في الأفق الذي تستقر فيه الحكمة مجاورة للبيان، والذي يشارف السدرة التي لا مطمع في الوصول إليها لأحد، ولا يحلق إليها ولو بجناّح لبد، فلا يستفيد منه إلا الذي يقرأه بالتدبر والإهتمام وتصفية الذهن وعن ذلك يعلم أية براعة أوتيها هذا الرجل، وأية قسمة من إشراق الذهن وجبروت العقل زرقها في هذه الجملة التي أعدّه اللّه لقيادتها في نصرة هذا الدين ، وفي أثناد ذلك تجد الغرائب من عرض سماحة الإسلام وخصائصه وجمعه بين القوة والرحمة، وبنائه على العدل والإحسان وتجاربيه الناجحة في هداية البشر وفي بناء الحضارة وفي إمامة العلم، وفي قيادة العقل، ثم يدّس في تضاعيف ذلك دعوات عامة إلى التسامح تجري في النفوس جريان الماء لأنه يعلم أن قومه مغعلوبون على أمرهم لايقدرون على الانتصاف لأنفسهم فهو يقرعهم على ذلك ويدعوهم إلى الاتحاد ونفض غبار القرون والأخذ بأسباب القوّة، وأن لهم في كل مكرمة إماما وما عليهم إلا أن يتحدوا ولا تكاد تخلوا قصيدة من قصائده من هذه الفنون، يخرج إليها من عمود القصيدة ولو كانت في الرثاء أو في الأغراض البعيدة، حتى قال بعض ناقديه، إن شعره خال من وحدة القصيدة.

أيها الإخوان:

والتديّن أثر الدين في النفس أو ممارسة شعائره بالجوارح وليس من موضوعنا المخدد البحث عن تديّن شوقي بمعنى إقامته لرسوم الدين وشعائره،

لأننا في شغل شاغل عن ذلك بهذا الفيض المدرار الذي يفيض به شعر شوقي في التغالي بالإسلام وتاريخه وأمجاده، وبهذا الإيمان القوي باللّه وفضائه، وبهذا التصوير لبدائع مصنوعاته، وبهذا الترديد اللذيذ للقرآن والحضّ على التمسّك به، وبهذا التكرار الحلو للمقدسات الإسلامية من ملائكة وأنبياء وصحابة وأماكن وأيام، فيغشى في شعره ذكر اللّه وجبريل ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وعمر وخالد ومكة والمدينة وبدر والقدس، وأسماء كثيرة لبناة المجد الإسلامي والعربي يكرّرها فلا تملّ، ويصفها في أماكنها فلا تختّل، ويسمها بسيمائها ويصفها بخصائصها، ويجلّي موضوع العبرة فيها والقدوة بها، فتتألف من ذلك كله في عامة شعره صور بديعة تأخذ النفس أخذة السحر وتقضي به إلى الاعتبار ثم الاقتداء.

وشيء آخر يدلّ دلالة واضحة على إيمان شوقي بما يقول في ذلك وهو أن ما يثقل ميزان الممدوح أو المرثي في حكم شوقي أن يكون مقيما لدينه، كما يريد اللّه، حتى الدولة العثمانية لم يفرغ عليها تلك الحلل الخالدة إلا لأنها تخدم الإسلام وتؤمّل لإعزازه.

يقول شوقي في رثاء حسين شيرين:

إبدا يراه اللّه في غلس الدجـــى	**في صحن مسجده وحول كتابـه**

ويقول في تعزية لأهل دمياط:

- بني دميـــاط ما شيء ببـــاق	**سوى الفرد الذي إحتكر البقـاء**
- تعـالى اللّه لا يبقـــى ســواه	**إذا وردت بريتـــــه الفنـــــاء**
- وأنتـــم أهـل إيمـان وتقوى	**فهــل تلقــون بالعتـب القضاء**
- ملأتـــم من بيوت اللّه أرضا	**ومن داعـــي البكـور لهـا سمـاء**
- ولا تستقبلــون الفجـــر إلا	**على قدم الصـــلاة إذا أضـــاء**

ويقول في وصاياه الخالدة للأجيال:

– ويا جيل الأمير إذا نشأتا   وشاء الجد أن تعطى وشئنا

– فخذ سبلا إلى العلياء شتى   وخلّ دليلك الدين القويما

– وضنّ به فإن الخير فيه   وخذه من الكتاب وما يليه

– ولا تأخذه من شفتي فقيه   ولا تهجر مع الدين العلوما

– وصل صلاة من يرجو ويخشى   وقبل الصوم صم عن كل فحشا

– ولا تحسِب بأن اللّه يُرشى   وأن مزكيا أمِن الجحيما

ويقول في بعض تلك الوصايا:

– يامديم الصوم في الشهر الكريم   صم عن الغيبة يوما والنميم

– وإذا صليّت خِف من تعبُد   كم مصلّ ضج منه المسجد

– واجعل الحج الى أم القرى   غبّ حج لبيوت الفقرا

– وتسمح وتوسع في الزكاة   إنها محبوبة عند الإله

– فرض البّر بها فرض حكيم   فإذا ما زدت فاللّه كريم

وفي هذه القطع منازع لطيفة في فقه الدين تدلّ على ما لشوقي رحمه اللّه من رسوخ في فهم حقيقة الدين ومعنى التدّين.

ويقول في مناجاة شعرية لربّه هي ثمرة كمال إيمانه وخوفه منه:

– ويارب هل تغني عن العبد حجّة   وفي العمر ما فيه من الهفوات

– وتشهد ما آذيت نفسا ولم أضر   ولم أبغ في جهري ولا خطراتي

– ولا غلبتني شقوة أو شعادة   على حكمة آتيتني وأناة

– ولا جال إلا الخير بين سرائري   لدى سدّة خيرية الرْغبات

– ولا بتّ إلا كابن مريم مشفقا   على حسدي مستغفرا لعداتي

– ولا حمّلت نفس هوى لبلادها   كنفسي في فعلي وفي نفثاتي

-وإني ولا منّ عليــك بطاعــة أجل وأغلي في الفروض زكاتــي
- أبالغ فيها وهي عدل ورحمــة ويتركها النســاك في الخلــوات
- وأنت ولي العفوفامح بناصــع من الصفح ما سوّدت من صفحاتي

ويقول في الشيخ جاويش وأعماله للإسلام:

- يقولـــون ما لأبي ناصــر وللترك، ما شأنـــه والهنـــود؟
- وفيــم تحمــل همّ القريـــب من المسلميــن وهــم البعيــد
- فقلت وما ضركم أن يقــوم من المسلميـــن إمــــام رشيـد
- أتستكثــرون لهــم واحــدا وليّ القديــم نصيــر الجديــد
- سعى ليؤلــف بين القلــوب فلم يعد هديّ الكتـاب المجيـد
- يشــدّ عــزا الديـــن في داره ويدعو الى اللّه أهــل الجحــود
- وللقـــوم حتى وراء القفـــار دعـاة تغني ورســـل تشيــد

وهو يشير بهذا البيت الى ما يبذله المبشرون في سبيل دينهم:

• • •

أما توحيد اللّه والإيمان بقضائه وقدره وغيبه وبعثه ونشوره فإن دارس الشعر شوقي يستفيد منه مالا يستفيده من كتب الكلام الجافة بأنواع من الإستدلال الوجداني فتدخل النفوس من أيسر طريقة وتتغلغل الى مكامن اليقين فيها، بها الى غاية الغبابات من الإيمان الصحيح.

يقول في الروح:

- الروح للرحمـــن جلّ جلالــه هي من ضنائــن علمه وغيابــه

ويقول في مشكلة القضاء:

القضــــــاء معضلـــــة لــــم يحلهــــا أحـــــــد
كلمـــــا نقضـــت لهـــا عقـــــدة بـــدت عقـــد
أتعبـــــت معالجهـــــا واستـــــــراح معتقـــــد

ويقول في تولستوي:

طوانا الذي يطوي السموات في غد ... وينشــر بعد الطي وهو قديــر

ويقول في رثاء صديق:

فعليه حفـظ العهــد حتى نلتقي ... وعليك أن ترعـــاه حتى نحشـرا

• • •

ومن دلائل إيمانه القوي بالله ورسوله ومحبته لهما محبة ملكت شعوره، تلك المدائح النبوية التي أرى أنّه تفوّق فيها على السابقين الأولين، وبد فيها السوابق القرح من المجيدين في هذا الباب الذي لم يجد فيه إلا إثنان أو ثلاثة في تاريخ الملة الإسلامية.

وإنّ في مدائح شوقي أنواعا من الحكم، وأصنافا من العلم وأمثالا مضروبة ونصائح ومذكرات لاتوجد في مدائح غير شوقي وبلغ من إعتزاز شوقي بمدائحه أن يقول في قرية صديق له:

قد كان شعري شغل نفسك فاقترح ... من كل جائلـة على الأفـــواه

فاقرأ على «حســان» منه لعلــه ... بفتاه في مدح الرســول مبــاه

أيها الإخوان:

يؤخذ على شوقي أنه مع جلالته في الإيمان ومتانة العقيدة يطغى عليه الجبروت الشعري فيقع في هفوات تدخل في باب الإغراق والغلو أو في باب التساهل والإستخفاف، وقد سبقه الى الوقوع في أمثالها من فحول الشعراء إبن هانى الأندلسي والمتنبي والرضي من غير إكثار، ولعمري إن بعض ما وقع لشوقي من ذلك يجاوز حدود التأول ، لا لأن موقع هذه الأشياء التي تشاهل فيها شوقي في باب التوفيقيات، وللتوفقيات في الإسلام آداب مخصوصة وموارد منصوصة لا يستمح فيها، ولا يشفع فيها العذر والتأويل.

من هذا المبالغات قوله:

– وجه النانة ليس يغضب ربّكم ... أن تجعلـــوه كوجهه معبـــودا

– ولّوا إليه في الدروس وجوهكم ... وإذا فرغتم واعبـــدوه هجـــودا

وقوله:

جعلنا مصـــر ملّة ذي الجـــلال ... وآلفنا الصليـــب على الهـــلال

وقوله في مهرجان:

مهرجـــان طوّف الهـــادي بـــه ... ومشـــى بين يديـــه جبرئيـــل

وقوله لأم الخذيوي عباس:

وقفي الهـــودج فينـــا ساعـــة ... نتناوب نحـــن والروح الأميـــن

وقوله لعباس حلمي:

يحييك (طه) في مضاجع طهره ... ويعلم ما عالجـــت من عقبـــات

وقوله في نفس ميتة:

نجـــلّ ستـــر نعشهـــا ... كالكســـوة المسيـــــره

وننشـــق الجنـــة مـــن ... أعـــــواده المتضّـــــره

وقوله في جورجي زيدان:

ولا يزل في نفوس القارئيـن لـه ... كرامة الصحف الأولى على التالي

وقوله في تلامذة ماتوا في حادث إصطدام:

توابيت في الأعناق نثرى زكيـة ... كتابوت موسى في مناكب إسرال

وقوله في أمين الرافعي:

تنشد الناس في القضيـة لحنـا ... كالحـواري رتـل الإنجيـــلا

وقوله في مرثية الشريف حسين:

أعسلوه بطيب من وضـــوء الرّ ... سل كالورد في ربـاه البواســـم

وخذوا من وسادهم في المصلّى | رقعة كفنوا بها فرع هاشم
واستعيروا لنعشه من ذرى المنـ | ـبر عودا ومن شريف القوائم
واحملوه على البراق إن استطعـ | ـتم فقد جلّ عن ظهور الرواسم
وأديروا إلى العتيق حسينا | يبتهل ركنه وتدع الدعائم

وقوله في جرح سعد زغلول:

منايا أبي اللّه إذ شاورتك | فلم يلق نابيه ثعبانها
حوت دمك الأرض في أنفها | زكيّا كأنك عثمانها
ورقت لآثاره في القميص | كأن قميصك قرآنها

وغير هذا في شعره كثير، وإنها لهنات، نرجو أن تكون في مقابل إحسان شوقي وفي جانب عفو اللّه هينات.

لغة الشاعر:

والذي لا يشك فيه قارئ شوقي أن لغته متأثرة بالدين الى أبعد غايات التأثر، صادقة في شعورها بوحدانية اللّه وعظمته وكماله، وبالإفتقار إليه والخوف منه[1].

(1) كأنّ الشيخ بدأ فصلا عن لغة شوقي ولم يكمله.

كامل كيلاني: باني الأجيال(*)

من الكتب مايقرؤه القارئ فيجد فيه نفسه، حتى لكأنه منه أمام مرآة صقيلة، ومنها ما يقرؤه فتضيع فيه حقيقته ومعالمه، فكأنه فيه خلق آخر، أزيد أو أنقص أو مشوّه.

وكتب شيخ أدباء العصر الأستاذ الكبير كامل كيلاني، التي نسقها على أعمار الأطفال والشبّان حتى وصلهم بالرجولة، هي من الصنف الذي يجد فيه كل طفل، وكل شاب نفسه، لايعدوها ولا يضيعها، بل يكفيه أن يقرأ الكتاب من المجموعة، فيجد فيه مع حقيقة نفسه مبلغ عمره،

قرأت هذه المجموعة الممتعة من كتب كامل كيلاني، فوجدتها كأنها صيغت من الصورة الكاملة لعقلية الطفل، أو الشاب كما يجب أن تكون في الذهن والتصوّر، فخرجت قوالب نصبّ عليها عقول الأطفال والشبّان، كاملة بالفعل والتصديق: يستقيم فيها الزائغ، ويصحّ عليها المئوف فلا يقطع الطفل مراحله الى الشباب، ولا الشاب مراحله الى الرجولة، إلا وهو مستقيم الملّكات، مصقول المواهب، سديد الإتجاه في الحياة، مرتاض اللسان على البيان العربي، ولا يصل واحد منها الى ذلك الحد حتى تكون هذه الكتب قد خزنت فيه ثروة من فصيح اللغة العربية، مصفاة من الحشو، منقاة من الدّخيل، سمت عن الساقط المبتذل، وجانبت الغريب الوحشي، ووفقت عند المأنوس السهل، الذي لا يتعثر فيه لسان، ولا يتعسر معه فهم، ولا تنقر منه

(*) «الأيام» دمشق، حزيران(يوليو) 1956م.

أذن ولا ينطوي معه وتدرّج هو بها، في مراحله العقلية والذهنية والبيانية وفي أطوار نموّه الجسماني، تدرجا طبيعيا هادئا، متناسقا، مقدرا، كنقل الأقدام في المشي الوئيد، حتى كأنها نسخة مقدودة من وجوده، أو مثال مفصّل على أقطاره وحدوده.

وكتب كامل كيلاني نفحة من نفحات الفطرة الأولى للأطفال تحبّب إليهم القراءة، وتجذبهم إليها، وتقرّب ميولهم، يقرؤها الذكر والأنثى فلا يشعر واحد منهما بإيثار، ولا استيثار.

وكتب كامل كيلاني، لطفل العجم تعريب، ولطفل العرب تدريب ولهما معا تسهيل للتلاقي وتقريب وأكبر حسناتها أنها تزقّى الذوق، وتنبه الإحساس، وشر آثار التربية السيئة في الطفل عثر الذوق وبلادة الإحساس.

قرأت هذه الكتب وأنا شيخ كبير، فنقلتني الى ذلك العالم الجميل الذي يتمنّى كل شيخ مثلي أن يعود إليه: عامل السذاجة والغرارة، والبراءة والطهارة، ورجعت بي الى فصل إقترا الحياة عن مباسمها وإقبال الآمال على مواسمها، فوددت لو انحدرت في سلّم الحياة الى ذلك العهد ثم صعدت بإرشاد كتب كيلاني الى رأس السلّم، حتى أفضي ما بقي لي من العمر في الصعود والإنحدار، ليبني عقلي بتلك اللبنات الثمينة، ويتجدده طبعي منقحا، في كل مرّة، تنقيحا، «كيلانيا» عبقريا.

كان هذا النمط العالي من كتب التربية دينا واجب الوفاء من ذمم علمائنا، فقضاه عنهم هذا المربّي الصامت الصابر الذي إفتحم الميدان وحده، ونصب حيث لا معين وظمئ حيث لا معين، فإذا جحدته الأجيال التي بنى فيها فحسبه سلوى أن ستحمده الأجيال التي بنى لها.

• • •

للأستاذ كامل كيلاني منزلته الرفيعة في الأدب وله وزنه الراجح في العلم، وهو في ذلك كله رجل كالرجال يصطرع حوله النقد، ويتطاير عليه شرر الحسد والحقد، ولكنه، بما جوّد وأتقن وإبتكر من هذه الطرائف في التربية أصبح مبدأ لا رجلا.

والمبادئ الصالحة حظها الخلود، ومن شأنها أن تستمد معاني الخلود من جحد الجاحدين وحمد الحامدين على السواء.

أبقى اللّه شيخ أدباء العصر، كاملا للنفع وعاملا للرفع، وهدى أنصار العروبة وقادة أجيالها إلى الانتفاع بهذه الكنوز التي أثارها، والاندفاع في هذه السبل التي أثارها.

أحمد شوقي (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوان الأوفياء:

حيّاكم اللّه وأحياكم، وأبقاكم للعروبة تحيون مآثرها وتجدّدون مفاخرها، وللعربية توفون بعهودها، وتقومون بحقوقها، وتعمرون مواتها، وتنشرون أمواتها، فتخطون للباقين طريق الأسوة الحسنة من سير الماضيين، وتدلونهم على أقدار الرجال ومواقف الأبطال...

أيها الإخوان:

إني مغتبط لإحيائكم لذكرى شوقي شاعر العرب في وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى صيحاته التي تحرّك الخامل وتهزّ الجامد، وإلى نغماته التي تنعش العاملين وتنبّه الخاملين، فما رأيت في أكثر ما رأيت في هذه المناسبات التي تقام لأجلها الاحتفالات على كثرتها سببا أشدّ ملاءمة لسببه من مهرجانكم هذا في ذكرى شوقي شاعر العربية العظيم.

ففي هذه الأيام كثر ترداد الساسة والخطباء وحملة الأقلام لكلمة العروبة والقومية العربية وجميع الألفاظ التي اشتقت من كلمة «عرب» وعسى أن يكون هذا إيذانا من اللّه بوحدة العرب فألهم الألسنة والأقلام ترداد هذه الكلمات كما ألهم أمية بن أبي الصلت وجماعة من زعماء العرب في الجاهلية ترداد الكلمات الدينية قبل البعثة المحمدية إرهاصا، للإسلام وتنبيها على إظلال زمانه.

(*) في مهرجان أحمد شوقي بالقاهرة، أكتوبر 1958.

وإن في جو الأمة العربية اليوم لوعودا هذه بوارقها ، فمن صنع اللّه لهذه الأمة، ومن تلقي الإلهام الصادق بإرادة الخير لها، ومن حسن الذوق لكل من يعمل في جمع شملها الشتيت أن تساق الشعوب العربية الى غاياتها المرجوّة لمثل هذا النوع من التفكير الذي هو الدواء الوحيد لما رماها به الاستعمار من ضروب التخذير.

إن هذه الأمة العربية هي هدف الاستعمار قبل كل شعوب الأرض، فهو لذلك لا يزال يعمل على تفريق أجزائها وتطفيف جزائها وقد بلغ منها ما أراد بكيده وسحره حتى ينسيها ماضيها وأمجادها فمن فروع التعبئة العامة للوقوف في وجهه والدفع في نحره أن نصرف هذا الجيل الذي فتنه الغرب بقوّته عن طريق هذه الفتنة وأن نبين له ما تجهله من أن هذا الشرق مطلع الأنوار ومعدن الأسرار، وأن نعالجه من هذا الكسل العقلي الذ ي رماه بالجهل والجمود، وأنه إن أراد أن يبني العلم والبيان والقوة على أسسها الصحية فليلتمسها من معادنها في أسلافه ولا يأخذها بالتقليد للغرب والإستعارة من الغرب وأن نهزه بمثل أقوال شوقي في هذا الباب وما أكثر اقواله في ذلك، فهو الذي يخاطب مصطفى كامل بقوله:

أتذكر قبل هذا الجيل جيـــلا سهرنا عن معلمهم ونامـــــا؟

مهار الحق بغضنـــا إليهـــــم شكيم القيصرية واللجامـــا

لوإإك كان يسقيهم بجـــــام وكان الشعر بين يدي جامـــا

أيها الإخوان:

ليت شعري، هل كان شوقي يدري حين نظم هذا البيت:

هل كلام الأنام في الشمس إلا أنها الشمس، ليس فيها كلام

أنه سيصبح أحق به ممن قيلت فيه، فقد وصل شوقي بشعره حينما إقتحم به جميع الميادين الى مرتبة من مراتب الخلد لا يستطيع وصفها إلا هو بمثل هذا البيت:

ولقد دأب شوقي بتقليد المتنبي فلي أول أمره فجاراه، وما كبا وما قصّر ثم شآه في التشبيب الصادق والغزل الرقيق، ثم طاوله فطال عليه في وصف الآثار الباقية عن الحضارات الدائرة وفي التغني بالأمجاد الغابرة لبني جنسه أو بني وطنه أو بني دينه، على حين كانت عبقرية المتني لاتتجاوز به مدح شخص يجود، أو شجاعة في وصف حروب وانتصارات قد يكون الغناءفيها لغير الممدوح، ولا تبرز العبقرية إلا في الحكم التي سجّلها والأمثال التي سيّرها أما الوصف الذي تتبارى فيه قرائح الشعراء، وتتجارى سوابقهم فيه فليس للمتنبي فيه كبيرة قيمة إذا استثنيا قصديه في شعب بوّان وقصيدتيه في وصف الجمى وفي وصف الأسد وفي قطع قليلة من شعره.

ورأيي في شوقي معروف في المشرق والمغرب بين خلصائي من الأدباء، وخلطائي من المتأدبين فلم أزل منذ كان لي رأي في الأدب، أغالي بقيمة شوقي في الشعراء السابقين واللاحقين وربّما شاب هذا الرأي مني شيء من الغلو في مقامات الجدل والمفاضلة بين شعراء العربية وماكنت أتهم نفسي بعصبية لشوقي، ولا كان الناس يتهمونني بتحيّز، لأنني يكنت قواما على شعر شوقي استحضره كله وأستظهر جلّه، حتى ليصدق عليّ أنني راوية شوقي بالمعنى الذي كان يعرفه أسلافنا في الرواية، ولقد حفظت الشوقيات القديمة قبل هجرتي الأولى إلى الشرق سنة 1911 ميلادية.

ثم أحفظ من شعر شوقي ما جدّ بعد طبع الشوقيات الأولى، واستوعبت شعره في منفاه بالأندلس حفظنا لأول ظهوره في الصحف أو في أجزاء ديوانه بعدما طبعت.

وما كادت تلوح النهضة الأدبية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، ويكتب لي أن أكون أحد قادتها حتى كنت أول الداعين دعوة جهيرة إلى الائتمام بشوقي وإلى إحتذاء طريقته والسير على نهجه في الأدب العربي وأول الدالّين على روائع شعره، ولما جدّ جدّ تلك النهضة وتعددت المدارس العربية على يد جمعية العماء الجزائريين، وقدر لي أن أكون المشرف على توجيهها مكنت لشعر شوقي في نفوس الألاف من الناشئة الجزائرية فأنبتت تلك النهضة من أولها على أدب شوقي وشعره وفهمته ناشئتنا على وجهه لحكمه وأمثاله لحسن تصويره ودقة وصفه، ولسهولة مدخله على النفوس وإن آلافًا عديدة ممن إرتقوا ولو قليلا في سلم الأدب ليحفظون من غرر شعر شوقي وسوائر أمثاله مايجمّلون به كتاباتهم وخطبهم ومجالسهم للمذاكرة وإن كثيرا من الشعراء الذين أنجبتهم النهضة الجزائرية ليترسّمون خطى شوقي ويسيرون على هداه، وتلوح عليه مخايله وسماته.

وأول ما حبّب شوقي الى نفوس ناشئتنا، على طراوة عودهم، هو ما يفيض به شعره، من تمجيد للإسلام، وبيان لأثاره في النفوس وتغنّ بمآثره وأمجاده وافتتان في مثله العليا التي قاد بها أتباعه إلى مواطن العزة والسيادة، ولا عجب فناشئتنا على الفطرة الإسلامية النقية، وشعر شوقي أبلغ معبّر على تلك المعاني العالية، ونهج شارع الى سبل التأسي والاقتداء.

ولقد كان موت شوقي صدمة قوية للأندية الناشئة بالجزائر التي كانت تأتم بشوقي وتسير على هديه وشعاعه مما ظهر أثره في قصيدة الشاعر الجزائرية محمد العيد آل خليفة التي رثى بها الشاعرين حافظا وشوقي، حيث يقول:

دولة الشعر من الشرق انقضت　　　وانقضى فيها مراء الأمراء

أيها الإخوان:

إن الجزائر الفتية مدينة بجميع فروع نهضتها بل في أصول ثورتها لشوقي، فكم حدونا الشباب بشعره المطرب القوي، ووجّهنا ذلك الشعر الى مكامن الإحساس من نفوسهم فكان ذلك أحد الأسباب في ثورته الخالدة التي أقضّت مضاجع الفرنسيين وأتت بخوارق العادات من الشعب الجزائري.

وإنا لنرجو إذا مدّ النهضة الأدبية في الجزائر، بعد أن تؤتي هذه الثورة المباركة ثمراتها، أن سيكون لأدب شوقي أثره الخالد الفعّال، في بناء الأدب العربي بالجزائر، كما كان له الأثر اللائح في الثورة، تأسيا بما خلّده شوقي من أعمال الثائرين الأبرار في ليبيا وسوريا وتركيا.

إن الحكومة الجزائرية المؤقتة الفخورة بعروبتها لسعيدة بأن تدعى الى هذا المهرجان وتشارك شاعر العروبة شوقي الذي يقول:

ربّ جار تلفتت مصـر توليـ ـه سؤال الكريم عن جيرانه

بعثتنـي معزيّـا بمآقـي وطني أو مهنئـا بلسانـه

ومع تأثر الجزئر الشديد بشعر قوقي وعقيدتها التي لا تتخلخل في شاعرته ومع أعترافها بأنه أول من هزّ الشرق العربي ببدائعه وآياته فإن أدباء الجزائر ما زالوا يعتبون عليه، بل ما زالوا ينقمون عليه مدحه لفرنسا وافتتانه بحضارتها المزيفة وتخطيه الأصول التاريخية التي لا تعترف لفرنسا ببعض ما ينوّه به شوقي من فضائلها، فهو يقول:

دم الشـوّار تعرفـه فرنسـا وتعلـم أنه نـور وحـق

جرى في أرضها، فيه حيـاة كمنهل السمـاء وفيـه رزق

(وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق؟)

سامحك اللّه ياشوقي، أي شعب تحرّر على قنا فرنسا، فإن كان بعض ذلك فهو من باب الربا الفاحش، تأخذ فيه فرنسا أكثر مما تعطي وليس خالصا لوجه الحرية والتحرير.

وبعد، فهل كل الوفاء لشوقي أن نحيي ذكره في كل سنة مرّة، وأن تقوم بعض الجمعيات فينا ببعض الواجب من البر بعظمائنا وعباقرتنا، الذين هم مناط فخرنا ومعاقد التيجان لمجدنا واعتزازنا؟

الحق إن هذا بعض الواجب، وإن الذي فرّطنا فيه وقرصنا دونه أكثر بكثير مما تقوم به جمعياتنا وهيآتنا الرسمية، فليس من الوفاء لشوقي أن نذكره في السنة مرة، وأن نتبارى في الحديث عن شعره ومنزلته بين الشعراء، ثم يبقى في جميع العام منسيا لا يذكره إلا المتمثلون بسوائر أمثاله.

رحم اللّه شوقي وأثابه كفاء ما قدّم للعربية من كنور ثمينة وما سنّ للأدب العربي من أساليب بليغة، وما حرّك من همم العرب ونخوتهم.

والسلام عليكم ورحمة اللّه.

الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني (*)

ولدنا الأبرّ الأستاذ الجليل الشيخ أحمد الشرباصي- أبقاه اللّه- السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته:

يعزّ عليّ أن لا أشارككم في هذه الحفلة التي تحيون بها رجلا نعده سلفا لنا في الشجاعة وعدم الرضى بالضيم، وفي الجهر بقوله الحق، وفي كثير من الخلال الصالحة.

يعزّ على هذا اللسان أن تجيئ ذكرى الأفغاني ولا يتحرك فيها بكلمة، وأن يدعي من جمعية الشبّان فلا يستجيب، وجمعية الشبّان هي منتجع هواه، ومنبرها هو أول منبر أرتفع عليه صوته، وقاعتها هي التي تجاوبت أرجاؤها برجع كلامه.

ويعزّ عليّ أن أحرم من الإستفادة من آراء إخواني الخطباء، الذين يسعدون في هذه الليلة بالحديث عن جمال الدين، وإنني لفقير الى الإستفادة منهم.

ولكن المرض الذي تعرفه برح بي وأقعدني عن الحضور، وتسلط على فكري فما يبضّ بكملة، وعلى لساني فما ينطق إلا بصعوبة، إنني عاجز على القعود على الكرسي ولو دقيقة واحدة، وعلى عذري لكم وللإخوان الحاضرين فإنني أمليت بصعوبة على الكاتب كلمة في آخر لحظة أملاها خاطر كليل، ولسان غير بليل، فجاءت خشبة لم يهذبها إنتقاد، ولم يعمل فيها نظر معاد، وأنتم أولى من يقوم بالاعتذار عنيّ عند إخواني.

وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته.

الإبراهيمي

(*) كلمة عن جمال الدين الأفغاني ألقيت نيابة عن الإمام في مركز جمعية الشبّان المسلمين بالقاهرة في 21 أكتوبر 1959م. ومعها رسالة الأستاذ أحمد الشرباصي.

بسم الله الرحمن الرحيم.

أيها الإخوان:

أحيي هذه الذكرى الجميلة، ذكرى جمال الدين الأفغاني، تحية فيها معنى الإجلال والإكبار، ومعنى الإعتزاز، والإفتخار للمقيمين لذكراه.

أحيي الذين فكّروا فيها، والللذين أقاموها وأحيوها، والذين سعوا لها وحضروها، والذين تكلموا فيها وشرحوها، فجلوا جوانب سيرة هذا العبقري، وكشفوا عن مكامن العبر وعن وجوه التأسي فيها.

إن هذه الذكريات التي تقيمها الأمم لعظمائها لا تنفع الأموات، لأنهم قد خرجوا من الدنيا وفرغوا من تبعاتها وتكاليفها، وتركوا لمن بعدهم من أعمالهم ما ينير لهم سبل الحياة، بعد أن أدوّا واجبهم لأممهم خيرا ونفعا وجمالا وقاموا لعقائدهم ومباديهم مايجب لها من إبانة وتثبيت وتمكين في الأرض، وإنما تنفع الأحياء لأنها تجعلهم متصلين دائما بعظمائهم وسلفهم الصالح حتى كأنهم بينهم أحياء يأمرون وينهون، ويعظون ويرشدون ويردون الضالّ عن ضلالته، ويوقظون الغافل من غفلته، ولو أننا عرفنا كيف نستفيد من حفلات المولد النبوي التي تقام آلاف المرات في كل سنة، وطهرناها من المجانة واللهو والعبث والمنكرات، التي تبعدنا عن اللّه وتحجبنا عن حقائق الدين التي جاء بها صاحب الذكرى، ووجهّناها الى تلك المعاني السامية المطربة في سيرته العملية، ورمينا بها الى الغايات التي هي حقيقة الإسلام وأخلاق المسلم، لو فعلنا ذلك لنقلناها من باب البدع المنكرة الى باب السنن الاجتماعية الصالحة المحمودة، ولكان منها في كل مظلمة شعاع هاد وفي كل معضلة نور نمشي به في الظلمات فلا نخاف ضلالا ولا زيغا.

إن من البر بأنفسنا أن نذكر –مع كل شارقة– عظماءنا ومصلحينا الذين كان له مأثر مشرق في تاريخنا، وأن نحيي ذكرياتهم لنحيا بها ونأخذ العبر منها ونجعلها دليلنا إذا أظلمت علينا السبل، وقدوتنا إذا أعوزنا الإمام القائد.

العلماء الربّانيون في هذه الأمة ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين، والحكماء في هذه الثلة قلة أخرى، لا تلد القرون منهم إلا الواحد بعد الواحد، ولا يجيء الواحد الى الوجود إلا بعد فترة من تحكم الأهواء واستيلاء الخمول، وسفه القيادة، والبعد عن هداية الدين، والجهل يأمور الدنيا وبالصلة الوثيقة بينها وبين الدين وانطماس المعالم المنصوبة، والأعلام الهادية فيهما، فيكون ظهوره تجديدا للدين والدنيا معا، ودعوة للعزة فيهما معا، وإصلاحا لما أفسدته الغفلة منهما معا، وربما لما تشعث من بنائهما معا،

ومن هذا القليل جمال الدين الأفغاني.

والأفغاني ينظر إليه الخليون الفارغون من علماء القشور والرسوم على أنه ليس عالما دينيا بالمعنى الذي يفهمونه من الدين ومن العالم الديني الذي هو عندهم حاكي أقوال وحافظ اصطلاحات وراوي حكايات، يجلس في حلقته فيفيض في الحلال والحرام وفي الزهد والرقائق بكلام مقطوع الصلة بالقلب، مقصور على اللسان ، فهو لايؤثر ومن ثم فهو مقصور على سمع السامع فهو لا يتأثر، وليس فيه إلا قال فلان، وقال فلان، وليس منه قلت ولا رأيت، ولا فكرت ، حتى إذا فرغ من الكلام فرغ كل شيء منه وخرج من الدرس فوجد البدع والمنكرات بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يهتز لها هزة الغضب، ولا يتأثر لها تأثر لها تأثر المنكر، بل يجاري البدع والمبتدعين ويكثر سوادهم، ويكون حجة على الدين لا حجة له.

أما أصحاب العقول المتدبرة والأفكار المثمرة، والبصائر النيّرة، والموازين الصحيحة للرجال، فإنهم يرون في الأفغاني عالما أي عالم، وفردا إنطوى على عالم، وحكيما أي حكيم، وأنه أحيا وظيفة العالم الديني وأعاد سيرتها الأولى وأنعش جدها العاثر، وجدد رسمها الدائر.

كان العالم الديني في نائأة الإسلام أقوى نفوذا، وأوسع سلطة من الخليفة والملك والأمير، وكان الأمراء القاسطون يخشون ذلك النفوذ الواسع ويضيقون به ويتبرمون منه.

كان القاسطون من الخلفاء والأمراء بعد دولة الراشدين يخشون سلطة العلماء ونفوذهم الروحي، لأن في ذلك النفوذ حدا من إستبدادهم ووقوفا في طريق شهواتهم الحيوانية، فعمدوا الى حيلة تتابع فيها أولهم وآخرهم وهي: إلصاق الحاجة بالعلماء، أو تحنيكهم بحلاوة الشهوات حتى يتخذوا منها مقادة لهم يجرونهم بها الى مجالسهم وغشيان قصورهم، والحضور في محافلهم، فوقع الكثير في هذه الحبالة، ونجا من عصمه اللّه من هذه المكيدة، ونقرأ في تراجم الكثير من الزهاد المتورعين أنهم كانوا يمتنعون من وطء بساط السلطان، وأكل طعامه، وأخذ جوائزه والولاية له، لأنهم كانوا يرون أن ذلك كله ترويض على مابعده من إذلال وإمتهان وذريعة إليه، ولكن تلك الحيلة أخذت مأخذها من النفوس مع تطاول الزمن وإلحاح الإغراء حتى ضاع ذلك النفوذ الواسع، الذي كان يُمسك الأرض أن تميد ويحرس الإسلام من طرق هذه المعاني الخبيثة من الداخل ومن الخارج، الى أن إختل أمر الدين والدنيا معا بين المسلمين، وكانت الخاتمة ما نراه اليوم في المجتمع الإسلامي من تخاذل وتفكك وإنحلال، وهذه هي عواقب بعد العلماء عن الرأي وعدم تدخلهم في الشؤون العامة، وهكذا كان علماء عصر جمال الدين يريدون لجمال الدين أن يكون.

والعلماء المصلحون متفاوتون في الاستعداد بالميادين التي جلوا فيها بمقتضيات الضرورة والزمان والمكان، فأحمد بن حنبل رأى أن العقيدة التي يريد الخليفة أن يغرسها بالقوة هي عبث بعقائد الحق كلّها، وأنها ستسري إن سكت عنها لبقية العقائد، لاسيما والذي يرعاها خليفة، وتربتها التي نبتت فيها بغداد، وبغداد عاصمة الإسلام إذ ذاك، فالآراء التي تؤمر منها تنتشر في العالم الإسلامي كله، فوقف أحمد فيها المواقف المشهورة، ولاذ بقية العلماء وهم أئمة الدين وقادة المسلمين بسلاح الضعفاء المترددين، بعضهم بالتقية وبعضهم بغيرها من ذرائع سلامة البدن، والعز بن عبد السلام رأى أن طغيان المماليك في مصر وإستهتارهم يؤديان الى ضياع المصالح، وإختلال السابلة، فوقف منهم موقفه الذي يخلد اسمه، وأحمد بن تيمية رأى أن ضلال العقائد واستفحال البدع وتسلط المتبدعين على عقول العامة قد طغت بحارها، فوقف منهم طول عمره موقف الخصم اللدود حتى خضد شكوتهم وفل شباتهم، ومحمد بن تومرت رأى إقتناع علماء الدين في تغيير المنكر بالمرتبة الأخيرة التي لا بلاء فيها ولا جهاد، وهي التغيير بالقلب، فانتقل الى أعلى رتبها وهي التغيير باليد، فكان يغير المنكرات بيده، ولولا مخرقة شابت أفكاره لكان في عداد المصلحين العظام، وجمال الدين رأى أن أنكر المنكر في زمنه هو عبث الأمراء المستبدين أو الأمراء الضعفاء بمصالح المسلمين وأنهم أضاعوها في سبيل شهوتهم الشخصية، وأنه لولا سكوت العلماء وقعودهم مع الخوالف لما تمادى أولئك الأمراء في غيّهم فوجه جهوده ووقف مواهبه على هذا الميدان السياسي، والسياسة في نظر الإسلام هي من لباب الدين لأنها حامية لشرائعه وشعائره وحدوده، وموقف الأفغاني، من شاه إيران وسلطان العثمانيين وخديوي مصر مشهورة، فالأفغاني باتساع معلوماته وباستعداده الفطري، وببعد نظره، وبصراحته وشجاعته وبحسن

فهمه لأمراض المسلمين، ومعرفته بأصناف علاجها، مصلح سياسي، اجتماعي مستكمل الأدوات لا يشق له غبار ولا يصطلى له بنار.

ولم يتخذ الأفغاني وطنه الذي ينتسب إليه مركزا لحركاته وأعماله لأن ذلك الوطن لا يصلح مركزا لانبعاث حركة فكرية شاملة، لبعده وإنقطاعه عن بقية الأوطان الإسلامية، واختار مصر قاعدة للحملات الصادقة التي حملها على استبداد الأمراء وخمول العلماء، وغفلة العامة وشيء أخر من بواعثه على إختيار مصر واتخاذها قاعدة لحركاته وهو أن مصر لم تزل حاضنة العروبة، وحافظة عهودها من لدن الفتح الإسلامي، ولم تزل كعبة العرب ومهوى أفئدتهم منذ قرون، وكل مبدأ يتعلق بإصلاح شؤون المسلمين العامة، فمن دواعي نجاحه أن يكون منبعثا من أرض العرب لمكانهم من النبوة ومنزلتهم من القرآن.

أيها الإخوان:

الذكرى من الذكر، فماذا تذكرون في هذه الليلة عن جمال الدين الأفغاني، وماذا تدخرون من آثارها في نفوسكم لليالي المقبلة من أعمالكم؟ اذكروا أنه كان عالما شجاعا، قوالاً للحق جريئا فيه، واذكروا أنه كا لا يخشى في كلمة الحق يقولها ولا في الحق يدعو إليه لومه لائم، وإذكروا أن جميع الثُغر التي أتينا منها فعلة العلل فيها آتية من سكوت علماء الدين وبعدهم من شؤون المسلمين العامة وقد جزاه الله في الدنيا جزاء عاجلا فرزقه طرازا من التلامذة المستعدين، نفخ فيهم من روحه، وربّاهم على مباديه، وكانوا من بعده حملة فكرته، الشارحين لها بالعمل، وحسبكم بالأستاذ الإمام محمد عبده.

وإن جمال الدين اقتحم هذا الميدان فكان حجة لبعض العلماء وحجة على بعضهم رحمة الله على جمال الدين جزاء ما قدّمه للإسلام والمسلمين، وكفاء ما سنّه للعلماء من أسى حسنة لم نزل نتقلّب في أعطافها، وندين له بالفضل فيها.

والسلام عليكم ورحمة الله.

محمد العيد (*)

النهضة العربية في الجزائر بجميع فروعها، وفي مقدّمتها نهضة الأدب العربي، وليدة الخمس الثاني من هذا القرن الميلادي، وقد سبقتها إرهاصات وتباشير كلها لم تسبق إبتداء هذا القرن، وسبقها كذلك تقدّم مشهود في عربية القواعد، إضطلع به نفر استطاعوا بوسائلهم الخاصة أن ينفلتوا من الحواجز التي وضعها الاستعمار الفرنسي عن قصد في سبيل التعليم العربي، فنفرت طائفة قليلة منهم إلى مصر، ورجعت بزاد من القواعد العربية وسعت به مداها في ذلك القطر المرزوء في جميع مقوّماته ومنها اللسان العربي ونفرت طائفة أخرى كثيرة العدد الى جامع الزيتونة بتونس وأخذت العلوم العربية على أمثال الشيخ محمد بن يوسف والشيخ النخلي، رحمهما اللّه، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور مدّ اللّه في حياته، وكانت دروس هذا الأخير هي الإشراقة الأولى في جامع الزيتونة للأدب العربي بمفهومه الصحيح في عصرنا هذا ، وتجلّى ذلك في عكوفه على درس ديوان الحماسة بشرح المرزوقي، فقد كانت تلك الدروس منبّهة لطلاب الزيتونة الذين كانوا يفنون أعمارهم في تكرار قواعد النحو والصرف من دون أن يتبوّأ واحد منهم درجة مرموقة في الأدب، وقد عاصر الشيخ بن عاشور عالما أزهريا ندين له بالفضل في إحياء الأدب العربي بالأزهر، وهو الشيخ المرصفي، بدرسه لكتاب الكامل للمبرد، والأزهر والزيتونة متقاربان في مناهج التعليم وأساليب الدراسة، والكتب المقرّرة فيهما تكاد تكون واحدة.

• • •

(*) تصدير لكتاب أبي القاسم سعد اللّه، « محمد العيد آل الخليفة: رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث»، دار المعارف، القاهرة، 1961.

حمل أولئك النفر من مصر ومن تونس إلى الجزائر قبسًا خافتًا من الأدب العربي، ولكنه كان كافيًا في تحريك القرائح، والأذهان، وقارن ذلك أو سبقه بقليل وصول الآثار الأدبية الجديدة من شعراء الشرق المجلّين، وعرفت الجزائر شعر شوقي وحافظ ومطران والرصافي، وما انتهت الحرب العالمية الأولى حتى كانت تلك المؤثرات المختلفة الموارد قد فعلت فعلها في نفوس الناشئة التي هي طلائع النهضة الأدبية، وشعرت الجزائر بعروبتها الأصيلة التي كانت كامنة كالنار في الحجر، والتمست القائد الملهم الذي ينفخ من روحه القوية في تلك البذرة لتخرج شطأها فتورق فتزهر أو تثمر فوجدته مهيأ في شخص الأستاذ عبد الحميد بن باديس، رحمه الله، فاضطلع بقيادة تلك النهضة إلى أن أصبحت كاملة في الأدب والعلم والسياسة، وكانت هذه الفروع سائقا بعضها إلى بعض، لأن ضرورة الوطن تستدعي سيرها في طريق واحد، وكان مظهرها الأعلى وعنوانها الأجلى جمعية العلماء، فهي التي جمعت الشتات، وأحيت المَوات، وحدّدت المبادئ، ووفّرت الوسائل للقوادم المستعدة أن تطير وتحلّق، وللأفكار المفيّدة أن تبحث وتتعمّق، وبدأت النهضة الأدبية تسابق الإصلاح الديني وتغذّيه، وفي هذا الجو ظهر محمد العيد آل خليفة متأثرا بالنهضة ومؤثّرا فيها.

• • •

محمد العيد آل الخليفة أول شاعر تشظت عنه صَدَفَةُ النهضة في الجزائر، وشعره أول شعر حي رافق النهضة العامة وحدا قوافلها المغذة فأطرب ، وأول شعر جرى في عنانها وسجّل مراحلها، وهذه الدراسة التي نقدّمها لقرّاء اليوم هي أول دراسة يقدّمها شاب جزائري عن شاعر جزائري ، فشعر محمد العيد،

وجمعه في ديوان ، وطبعه، ودراسته ونقده كلها بواكير من الأدب العربي في الجزائر. . . ونقول إن هذه الأشياء كلها بواكير لننبّه إلى أن مع البواكير عذرها في عدم النضج وعدم الكمال، فنمهّد للاعتذار عما يوجد في بواكيرنا من نقص وعدم شمول في البحث، وعدم تفقّه في الاستدلال.

ذلك أن النهضة الجزائرية المتعدّدة النواحي كانت أكبر من القائمين بها، فهي متشعبة، والقوّامون عليها بجدّ وصدق نفر قليل، وكانت تتقاضاهم أن يهدموا ويرفعوا الأنقاض، ويبنوا ويشيّدوا ويعمروا ويربّوا ويعلّموا،كل ذلك في آن واحد، وأن يحاربوا عدّة أعداء في عدة ميادين : يحاربون الاستعمار، ويحاربون التدجيل في الدين، والضلال في العقائد، ويحاربون الإلحاد، كل ذلك مع قلّة الأنصار وقلّة المال، ولولا فضل اللّه عليهم ورحمته وصدق وعده معهم، لما جروا في هذه الميادين خطوة.

لهذه الأعباء التي لايعرفها إلا من حملها، لم يتفرّغوا للكتابة والتدوين، ولا اتسع المجال لتلامذتهم أن يكتبوا ويدوّنوا فقلّ الإنتاج الأدبي، بقدر ماجلت الآثار الصالحة في نفوس الشعب.

. . .

كاتب هذه الدراسة هو الأستاذ أبو القاسم سعد اللّه، أحد أبناء الجزائر، البررة الناشئين في ظلّ نهضتها الحاضرة، تلقّى العلم بجامع الزيتونة، ثم رحل إلى مصر ضمن البعثات التي تفتّقت عنها النهضة العربية، وأكمل تعليمه في كلية دارالعلوم إلى أن حصل على شهادة « الليسانس» في الأدب العربي، ثم رحل في هذه السنة إلى أمريكا ليتخصص في آداب اللغة الإنكليزية الأمريكية، وهو مشغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور.

وهذه الدراسة لشعر محمد العيد محاولة أولى، تلمح فيها آثار الجهد الذي بذله الكاتب في استخراج طبيعة الشاعر ونوازعه النفسية من شعره، والحكم على الشاعر من شعره وعلى العالم من آثاره العلمية، هو أقرب الطرق الى الصدق والمعدلة، فإذا رزق الدارس حظا من دقّة الملاحظة وسداد الاستنباط بلغت دراسته الغاية التي يتوخّاها الدارسون ويرضى عنها المنصفون.

وقارئ هذه الدراسة قد يحكم لأول وهلة بأن صاحبها يكتب عن شاعر من الغابرين، والواقع أن محمد العيد وكاتب الدراسة جزائريان، متعاصران، بل هما من بلد واحد، وإن كان الشاعر أسن وأسبق في الرحلة لطلب العلم بتونس، فلم يجمعهما زمان طلب العلم ولا مكانه، وإنما اجتمعا اجتماعا خاطفا لا يثمر صداقة ولا امتزاجا، ورحم اللّه أسلافنا الذين كانوا يحرصون أشدّ الحرص على اللقى والسماع والرواية، ويتلقفون الكتاب والفائدة والنكتة والديوان والقصيدة والبيت المفرد بالسماع من المؤلّف أو الشاعر، ويتباهون بذلك يرحلون لتحصيله من بلد إلى بلد، ولو سلكنا سبيلهم لما تردّد الأستاذ سعد اللّه في بعض أحكامه، كتردّده في أن الشاعر يحسن لغة أجنبية أو لا ...

إن الحكم على شعر شاعر أو له يتوقف على الإحاطة به حتى تكون الصورة كاملة أمام الدارس،وشعر محمد العيد لم يجمع كله، وإنما جمع الشاعرمنه جزءا، وزدنا نحن بمعونة الأستاذ سعد اللّه عدة قصائد التمسانها في بعض الجرائد والمجلات الجزائرية الموجودة بدار الكتب المصرية، لأن الثورة الجزائرية قد قطعت ما بيننا وبين الجزائر من صلات، وإن شبابنا الواعي الكاتب الدارس المتطلع كان أول مستجيب لداعي الثورة وهجر الأقلام إلى البنادق،

ومات أكثره في وقائعها، ويوم يحيا وطنهم بموتهم ويعيش من قدّرت له الحياة منهم ستتصل هذه الأبحاث الأدبية وتمدّ مدّها، ويومئذ تتعدّد الدراسات لشعر محمد العيد، ويجمع الجمع الشامل، ثم لا يبخس تاريخ الأدب الجزائري الأستاذ سعد اللّه حظّه من التقدير لدراسته التي خطا بها الخطوة الأولى في هذا الباب في وقت سُدت فيه جميع الأبواب، ويومئذ يكمل الأستاذ سعد اللّه دراسته هذه ، ويزيد فيها فصلا عنوانه «شعره في الثورة».

إن لمحمد العيد دعوات صارخة إلى الثورة، في الوقت الذي كانت فيه كلمة الثورة بلفظها المفرد كافية لنزول العقاب الأليم بلافظها قبل أن يتم تركيب الجملة، ويقيننا أنه لا يسكت بعد أن رأي بعينه مواقف الأبطال وأسود النزال ، وسمع دمدمة البنادق من حماة الحقائق.

نحن نهنئ الأستاذ سعد اللّه بتوفيقه في هذه الدراسة التي سدّد فيها وقارب، ونشكره على خدمته لوطنه بهذه النزعة التي تلحقه بالمجاهدين الأبرار وندعو له بالتوفيق لمواصلة هذه الدراسات النافعة وتقديمها لذلك الشعب المؤمن الصابر الذي ملأ بثورته الدنيا دويًا، وسلك إلى الحياة طريق الموت فسلك صراطا سويًا.

أجازة للأستاذ محمد الفاسي(*)

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد، فقد سألني أخونا في اللّه العالم الحافظ الواسع الإطّلاع السيّد محمدّ الفاسي الفهري، ذون النسب الواضح المرفوع الى أبي بكر إبن الجدّ الفهري، ذون البيت الرفيع العماد، في التاريخ العلمي بالأندلس والمغرب، الذي لايحصى عدد المتخرّجين في العلوم الإسلامية منه، وناهيك بالإمام أبي المحاسن الفاسي حسبما قلت في أرجوزة المثلثات:

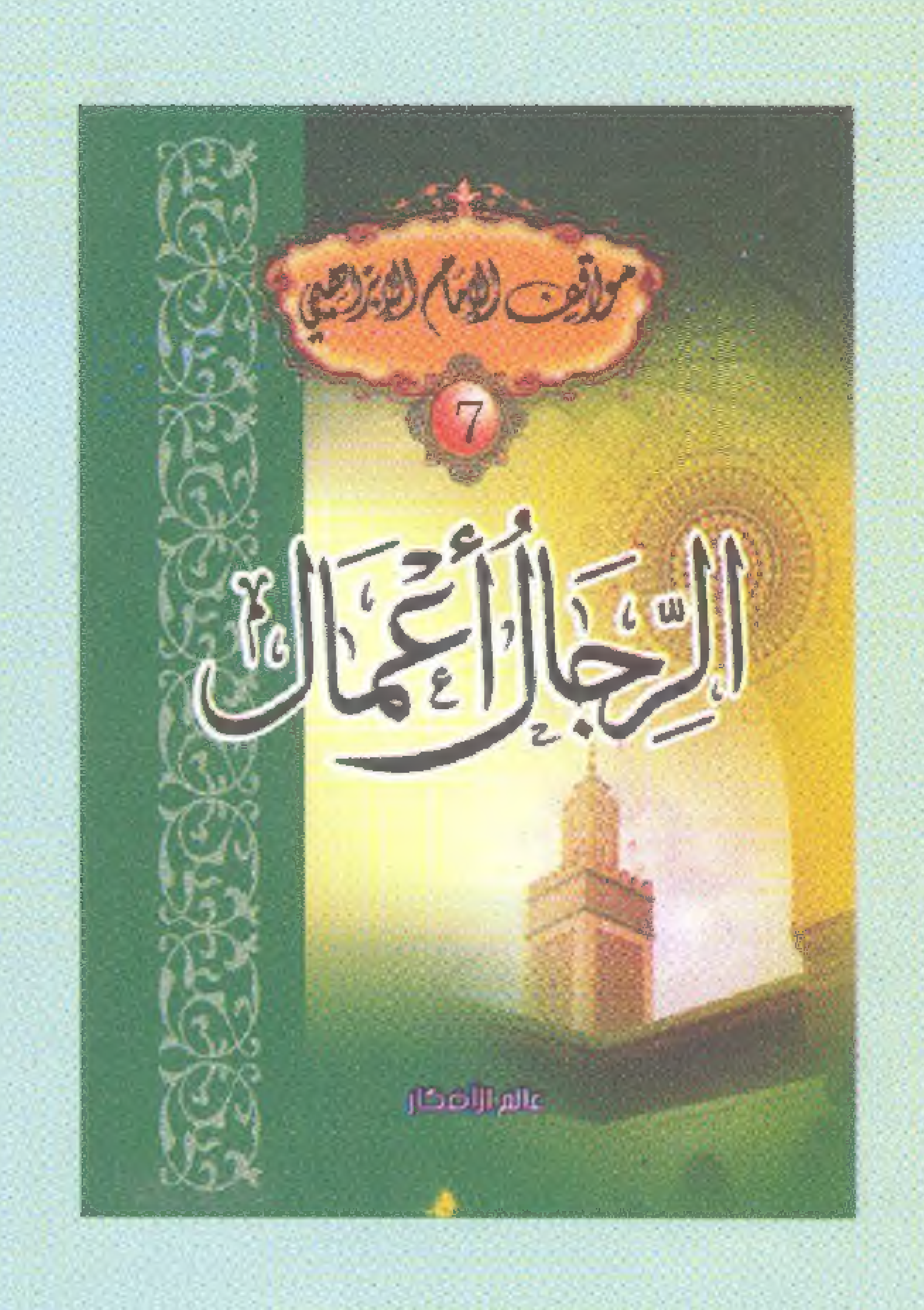
والجدّ جدّ أسرة شهيرة	**سيماؤها التعظيم والإجلال**
ومن بقايا نسلها علاّل	**ووسمها الأوضاح لا الأغفال**

سألني أن أجيزه إجازة عامة في رواية وتدريس ما أخذته ورويته عن مشائخي من علوم عقلية ونقلية، وهو أهل لجميع ذلك، ولو تحلّينا بحلية الإنصاف، وجربنا على جميل الأوصاف، لكان هو المجيز وأنا طالب الإجازة.

(*) زار الأستاذ محمد الفاسي الشيخ الإمام في منزله بالجزائر في بداية سنة 1964، وهو طريح الفراش، وطلب منه أن يجيزه فأملى على ولده أحمد هذه الإجازة.

ولكنّني أجبته الى مرامه، وأجزته بكل ما حصّلته عن مشائخي في الشرق والغرب رحمهم اللّه وجازاهم عنّي خيرا، وقلت بعد حمد اللّه والاستعانة بحوله وقوّته، أجزت أخانا الشيخ محمد الفاسي برواية كتب الحديث الصحيحين ومسند أحمد الموطأ وكتب الرجال والجرح والعديل، وجميع منون العلم وأمهاته، وكذلك أجزته بأن يروي عنّي جميع

محتوى الكتاب



هذا الكتاب

لم يكن العلّامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عالما بالمعنى المألوف عند كثير من النّاس، غايتُه حفظ المتون، وتحقيق ثمرات الفنون، والتفوق على الأقران، أثناء الطلب والتحصيل، ثم تصدُّر المجالس، والحرص على الهندام، وشغل عقول العوام بالغرائب وسفاسف الأمور، وقشور العلم.

وإنما كان عالما مجاهدا، جاهد من أجل تحصيل العلم والرسوخ فيه، وجاهد من أجل تبليغه وتربية الأمة به، وجاهد من أجل المحافظة على شرف العلم من أولئك الذين أرادوا أن يمتهنوه، وجاهد من أجل أن يقوم بالواجبات والتبعات التي يفرضها العلم ويوجبها و يحتمها شرفه، فحمل هموم أمته في قلبه حيثُما حلّ وارتحل، وفي كل ما كتب أو ارتجل، ودعاه هذا كلّه إلى التعاون مع رجال الأمة الإسلامية - مشرقا ومغربا - على تعدد اختصاصاتهم، وتنوع ملكاتهم و مواقعهم، فيهم السياسي، والعالم الديني، والأديب ورجال المال والأعمال، فنسج شبكة من العلاقات تمتد من شبه القارة الهندية إلى المغرب الأقصى، مرورا بالحجاز والشام والعراق ومصر، لم [illegible] مآربه الشخصية، أو أغراض دنيوي[illegible] لخدمة الأمة، والدفاع عن قضاياها، و[illegible] موقع القيادة العلمية الذي تبوأه يو[illegible] أولئك الرجال ويخلّد هاتيك المواقف[illegible] شهادة، وأنْعِم بها من مواقف.




9789961712283